
إيهاب فاروق
عجائب
البلاد والعباد
جولة ساخرة حول العالم فى ٣٠٠٠ يوم
دار ليلى
كيان كورب

الكتاب:

عجائب البلاد والعباد

المؤلف:

إيهاب فاروق

رقم الإيداع:

3265 /2014

الترقيم الدولي:

978-977-5283-07-8

★ ★ ★

الغلاف:

محمد محمود

المدير الفني:

حسام سليمان

★ ★ ★

التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

★ ★ ★

المهندسين-23 **شارع السودان—تقاطع مصدق-الدور الرابع—مكتب** 11

هاتف: 33370042 (02) (002) - 23885295 (012) (002)

البريد الإليكتروني: mail@darlila.com **الموقع الرسمي:** www.darlila.com

كيان كورب
للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلى

إيهاب فاروق

عجائب البلاد والعباد



الإهداء

إلى..

قارئ مجهول أعجبه ما أكتبه..

قبل أن يعجبني أنا أساسًا..

إيهاب فاروق

المقدمة

الصدفة وحدها وفورمات «الهارد ديسك» هما ما دفعاني لكتابة هذا الكتاب؛ فعندما تصبح كل ذكرياتك ضحية مقتولة برصاصة، قد خرجت سريعًا بضغطة زر من فأرة سفاحة دموية، قتلت بدم بارد وبلا أدنى شفقة كل الصور التي صورتها بكاميرتي الديجيتال، ثم حفظتها آمنا مطمئنا على الهارد ديسك، حتى أعود إليها وأقلب فيها، لأشعر معها بدفء الذكريات، لكن يبدو أنني كنت أبحث عن هذا الدفء في ليل أمشير، فقد ضاع كل شيء ولم يبقَ لي منه إلا البرد الساكن في «الهارد» المحروق، في أحد فصول أجهزة الكمبيوتر المجمعة البايخة، فقررت أن أرجع للوراء وأودع زمن التكنولوجيا المتوحشة، وأمسك بالقلم والورق وأستدعي من الذاكرة الربانية، التي ما زالت باقية على عهد الوفاء، ما عجزت عن حفظه أقراص «الويسترن ديجيتال»!!

وقد وقعت في حيرة كبيرة فعلا عندما فكرت في اختيار عنوان لهذا الكتاب، أولا لأن الكتاب يبدو من عنوانه، وثانيا لأنني كذلك كنت من محترفي قراءة هذا النوع من كتب أدب الرحلات، والذي لم أكن أتخيل عندما كنت أقرأ فيها، منذ مراحل صباي الأولى، أنني سأكون بطلا من أبطال هذه الكتب، وإن تمنيت ذلك بالطبع أثناء القراءة، عندما كنت أحلق معها في آفاق رحبة، تتعدى جدران غرفتي الصغيرة، لأسافر مع كُتَّابها إلى جميع أرجاء الكرة الأرضية، بل

وإلى الفضاء الخارجي أحيانا، في صاروخ صغير على هيئـة رصاصـة أو طلقـة قـد أطلقها مدفع، كما ورد في رواية «من الأرض إلى القمر»، للكاتب الفرنسي الرائـع «جول فيرن»، الذي ربطني مع كتابه يوما كـاملا، وأنـا غـارق في قـراءة روايـة «حول العالم في 80 يوما»، لدرجة أنني أكملـت قراءتهـا علـى ضـوء شمعـة ولم أنتبه لعودة الكهرباء!!

وبعيدا عن قـصص الخيـال العلمـي، إلى أدب الـرحلات الـواقعي، كـان كتاب «تخليص الإبريز في تلخيص بـاريز» لرفاعـة الطهطـاوي، الكتـاب الرائـد الذي قرأته حديثا، بعد أن قـرأت قبلـه «رحـلات مـصطفى محمـود» و«سـندباد مصري» لحسين فوزي و«مذكرات شاب مصري يغسل الأطباق في لنـدن» لحـسين قدري، إلى الدرة الخالـدة «حـول العـالم في 200 يـوم» لأنـيس منـصور، الـذي عكفت على قراءته لمدة أسبوع كامل، حتى أرده لصاحبه؛ فلـم يكـن ملكـي، وإن كان كاتبه قد امتلك عيني وعقلي، لما له من قدرة غريبة على نقـل القـارئ لعالمـه الخاص، دون أن تشعر معه بأي ملل أو كلل، وهكذا كان أنيس منـصور دائمـا في كل كتبه، والذي كتب كذلك «بلاد الله خلق الله»، وغيره من أدب الرحلات.

وعلى الرغم من أنني كنت أسافر مع كل كاتب إلى حيث كانـت تحملـني سطور كتابه؛ فمرة أكون على متن طائرة أو في بطن باخرة أو بداخل قطار أو على ظهر جمل، وأحيانا على ظهر فيل أو حصان أو حمار، وكل ما تيسر من وسـائل النقل والمواصلات حديثها وقديمها، حتى أعـود مـرة أخـرى وأصـطدم بـواقعي،

عندما أدرك أنني ما زلت مرابطا في غرفتي، التي اتسعت من خيالي مع سطور الكاتب، لبرج إيفل وتمثال الحرية وتاج محل، بل ولسور الصين العظيم، حتى أجدها قد ضاقت مرة أخرى مع إغلاق صفحات الكتاب، لأضعه فوق الرفوف بجوار كتبي ومجلاتي الكثيرة، وعلى رأسها مجلة العربي الكويتية، التي كنت أشتريها خصيصا لمتابعة رحلات الدكتور محمد المخزنجي لكل بقاع الدنيا، وقت أن كان ثمنها خمسة وعشرين قرشا فقط! !

حتى تحقق الحلم المستحيل، أو الذي كنت أظنه كذلك، وأصبحت بطلا مثل كل أبطال تلك الكتب، مع اختلاف الزمان والبلدان طبعا، لأتجول أنا الآخر حول العالم، وأرى بعيني المسافرتين ما لم ترَه عيناي القارئتان، حتى تحولت لديَّ المقولة الشهيرة «ليس من رأى كمن سمع»، وصارت لديَّ «كمن قرأ في كتاب»، أو «كمن قال بأن السفر قطعة من العذاب»، والحقيقة أنه العذاب الممتع، الذي تتمنى أن يزداد تعذيبه لك أكثر وأكثر، حتى لو كان على مدار ثلاثة آلاف يوم إلا قليلا، هي عمر رحلاتي حول العالم.

ثماني سنوات قضيتها حول العالم؛ فمن القاهرة، التي تبهر زائريها ليلا وتقهر سكانها في الليل والنهار، إلى دبي التي تفترس العيون بأنوارها وأبراجها، وبما يختفي خلف زجاج مولاتها الكثيرة، إلى سنغافورة وناطحات سحابها ونظامها، إلى إندونيسيا، حيث الجزر الخضراء والتلال الأكثر اخضرارا، إلى أستراليا والطبيعة البكر التي لم يمسسها بشر، إلى الصين وكل

شيء هناك ممكن، إلى تايوان والصين الأخرى التي لا تريد أن تكـون كـذلك، إلى تايلانـد والطبيعـة الـتي تـسحر جميـع زوارهـا إلا العـرب مـنهم، إلى كوريـا الجنوبية، حيث الترحاب الذي بلا حدود، ولكن حذارِ أن تأكل مما يأكلون، إلى اليابان، حيث الكل مشغول وغائـب، إلا النظـام وحـده هـو الـذي تـراه حاضـرا دائما، إلى أمريكا، ولكن قف مكانك لترانا فقط من بعيـد، إلى البرازيـل، حيـث العيون الزرقاء والجلود البرونزية والأجساد الذهبية، إلى اليمن والتـاريخ الـذي أرهقه الإهمال، إلى جنوب أفريقيا وقصة صعود وصمود وتحدٍّ، إلى فرنسا، حيث التاريخ والعطور والنساء والنعومـة، إلى سـوريا، حيـث مـصر الأخـرى الـتي لم تلدها أفريقيا، إلى كندا، حيث تُحترم حقـوق الإنـسان، إلى الـسنغال، حيـث لا قيمة لأي إنسان، إلى ساحل العاج، وهنا تجد أفريقيـا الحقيقيـة، وغانـا حيـث الأحراش والأشباح، وإسبانيا حيث الدولة التي تحولت كلها لمنتجـع سـياحي، وألمانيا حيث الحياة كما ينبغي أن تكون، وبلجيكا حيث المرأة التي تمكنـت مـن كل حقوقها، حتى عرضوها في الفتارين مجردة مـن الملابـس والحقـوق، وتركيـا حيـث شمـوخ القـصور والأنـف العثمـاني المكـسور، وأوكرانيـا حيـث العراقـة المستباحة، إلى جورجيا وفخامة المباني وفقر الشعوب، والبحرين حيث تجـد في كل مكان شقة مفروشـة، إلى الهنـد ومـصر الـتي لا أتمنـى لهـا ذلـك الغنـى، في مواجهة ذلك الطوفان الهائل للفقر تحت مظلة القهـر، إلى الـسعودية، ولم أكـن أظن أن هذه ستكون هي النهاية!!

سوف أحكي، وفقط، عن كل ما رأيت من غرائب وعجائب البلاد ومن يسكنها من العباد، وعن لحظات مر بها العمر ولم يسجلها القلم، ولا استطاعت أن تحفظه لي ذاكرة إلكترونية، أضاعت كل ما التقطته عدسة الكاميرا، التي ضاقت بما تكدس في داخلها من صور، ثم ضاعت كلها بضغطة زر خاطئة؛ فكم من التكنولوجيا التي ننعم بها الآن قد كنا نتمناها في الماضي، وشريحة ذاكرة واحدة كبيرة في أي هاتف نقال الآن كانت تغنيني عن ندم ظل يؤرقني، لكن الله تعالى كان بي أرحم؛ فقد ظلت شرائح عقلي التي وهبني إياها تسجل نيابة عني، وهاهي الآن تمدني وتُملي عليَّ كلما أردت استدعاء أحداثها.

نعم، ما زالت الذاكرة بخير، وما زالت الأماكن تناديني، حتى أسطرها حروفا على الورق، لتبقى الكلمات هي التي تحكي لي ما تجاوزته الأيام فغاب عن العيون، لكنه قد ترك ومضات مضيئة بين ثنايا العقل المجهد بكل ما يحمله، هي فرصة أغتنمها قبل فوات الأوان، وقبل أن تمر عليها عجلات التاريخ التي لا ترحم، حتى لا تصبح كأي حلم حريري رقراق، ظل يداعبنا قبل ساعة فجر، ثم أتى الصبح علينا ليدق ناقوس الخطر، حتى نرويه لأي أحد قبل أن ننساه، ويتبخر نداه تحت حر شمس حارقة لا ترحم، تترك كل شيء جافا صلدا لا يتكلم!!

إيهاب فاروق

نهاية عام 2012

الرحلة الأولى

من القاهرة إلى دبي

(1) خلاص مسافر

الخروج من مصر

الخروج من الوطن شعور لا يضاهيه إلا شعور العودة إليه، وما بين الخوف والأمل والرجاء، نحتار ما بين الأشياء، وحلم الخروج من الدائرة قد ينتهي بك إلى كابوس، عندما تفتقد الدفء الذي كان بداخلها، لتجد نفسك وحيدا وسط الرياح والأنواء، وعلى الرغم من أن قصص النجاح كثيرة فإن حكايات الفشل أكثر، لكنا لا نلقي للفشل بالا، حتى لأخذ العبرة وتجاوز أخطاء الآخرين، ولا نلتفت غالبا إلا على قصص الناجحين؛ لأننا نظن أنفسنا دائما في زمرتهم!!

وعلى الرغم من أنها كانت مجرد صدفة، لكن رُب صدفة كانت خيرا من ألف ميعاد، فأن تغني لي شادية «خلاص مسافر» وأنا فعلا مسافر، لهو شيء يدعو للدهشة بالتأكيد، ولكن كانت هذه هي الأغنية التي كنت أستمع إليها وأنا نصف نائم في المقعد الخلفي في السيارة الأجرة (البيجو السبعة راكب)، وأنا متجه إلى القاهرة؛ حيث كانت تنتظرني الطائرة، التي ستحملني إلى خارج مصر للمرة الأولى، إلى دبي، لتكون محطة الترانزيت الأولى في رحلتي الكبيرة التي كانت كلها رحلات ترانزيت.

ظلت الأفكار تطاردني طوال الطريق، وأنا أسير نحو ما أجهلـه، حتـى دخلت في حالة من السخرية مع النفس، فقد كانت هذه هي طـريقتي الوحيـدة، حتى أبدو صامدا ورابط الجأش، ولكي أطمئن قليلا بدأت بإقناع نفسي بأنني من محترفي السفر، وكيف لا؟! وأنا الذي سافرت كثيرًا لأشهر دول العالم، صحيح أن هذا السفر كان خياليا، بين دفات الكتب وعلى صفحات المجلات، لكنه كـان سفرا والسلام، حتى لو كان زائفا، ولكن ماذا سأفعل الآن وقد بدأت رحلة سفري الحقيقية حتى صرت كمن كان يحترف لعب «البلاي ستيشن»، ثـم وجـد نفـسه فجأة في ساحة شعبية للكرة «الشراب»، وعليه أن يلعب حـافي القـدمين وبـالكرة «الكلة» ثقيلة الظل؟ فقلت لنفسي: «العب بقى يا حلو»!!

ولماذا لا ألعب؟ وما الفرق بين سفري بالطائرة، وسفري بأي بيجو سبعة راكب، مثل التي أركبها حاليا، وحوادث الطائرات مقارنـة بحـوادث الطـرق في مصر لا تذكر على كل حال؟ ولماذا لا أجد قائد الطـائرة ينتظرنـي في المطـار وهـو يحمل فوطـة صـفراء وقـد انهمـك في تلميـع زجـاج طائرتـه، وهـو ينـادي علـى الركاب: «دبي واحد دبي واحـد»؟ ولا أدري إن كـان سيدفع «كارتـة» لـسلطات المطار أم أنه سيطير بالطائرة من «بره بره»، وعلى الرغم من أن سفرتي هذه كانت أول عهدي بركوب الطائرات فإنني سأصر على الجلـوس بجـوار الـشباك، ولـن أشارك بالطبع في «لم الأجرة»، على الـرغم مـن أنـني قـد سمعـت بالفعـل صـوتا ينـادي: «الأجـرة يـا أفنديـة»، عفـوا لم يكـن هـذا الـصوت في الطـائرة ولكـن في

البيجو، التي وصلت بسلامة الله إلى ميدان المؤسسة بشبرا، الذي انطلقت منه رأسا لميدان رمسيس.

اندفعت نحو تمثال رمسيس، الذي كان لا يزال موجودا فوق «فسقيته» الشهيرة، في وسط الميدان في ذلك الوقت، قبل أن يتم نقله لمثواه الأخير في موقع المتحف المصري الكبير، الذي سنفتتحه بإذن الله قبل حلول عام 3000 ميلادية، ولكن على كل حال اعتبرت أنها فرصة أخيرة لي لكي أُملي عيني منه بنظرة عسى ألا تكون الأخيرة، من تمثال ذلك الفرعون المصري العظيم الذي غزا الشرق كله، عساي أن أحصل منه على البركة، باعتباري فرعونا جديدا صغيرا يتأهب كذلك لغزو الدنيا بأكملها، لكن الوقت لم يسمح لي بقراءة فصل من فصول كتاب الموتى على جبهته المتحجرة، ثم غادرته وجبهتي أنا هي التي تغمرها المياه، ولكن ليس من سح الدموع على روحه المحنطة، ولكن من جراء طرطشة مياه الفسقية!!

ثم توجهت ناحية شارع رمسيس لأبحث عن محل للصرافة حتى أشتري بعض الدولارات الفكة، العملة المعترف بها في كل دول العالم، وأعطيت موظف الصرافة 353 جنيها «حتة واحدة»، الذي أعطاني بدوره ورقة واحدة صغيرة من فئة المائة دولار، فقلت: «ما أرخصك يا جنيه بلدنا» في ذلك الوقت طبعا، ثم عُدت للصراف مرة أخرى وطلبت منه أن يعطيني ورق عملة نقدية (فكة)، فأعطاني الرجل مشكورا عشرين ورقة كاملة، من فئة الدولار الواحد، فحمدت الله أن الحياة لا تزال رخيصة في أمريكا، تماما كما هي في مصر!!

ثم أوقفت سيارة تاكسي، ويبدو أن السائق قد لمح الحقيبة الـتي بيـدي، فعلم أنها توصيلة «عسل»، عندما سألني: «على فين يا عسل»؟ فقلت لـه: «علـى المطار يا سكر»، لكني سألته، كما أوصوني في البلد، عن الأجـرة قبـل التحـرك، وكان رده كالعادة: «اللي يطلع من ذمتك يا باشـا»، فأصـررت علـى الاتفـاق قبـل الركوب؛ لأن ذمة الباشا «أستك» طبعا، وليست كذمة السائق المحترم الـذي لـن ينتهز الفرصة أبدا، وسيتركني هكذا بكل سهولة حتـى ألحـق بطـائرتي، ولـن يصر على أخذ ما يريد أمام باب المطار، وإن بعض الظن إثم! !

عشرون جنيها كاملة، كانت هي المبلغ المتفق عليـه بـيني وبـين الـسائق، الذي زاد عليها جنيهين، قيمة «كارتة» دخول المطار، التي وعدته بـدفعها نيابـة عنه، وهو يكاد يفترسني بنظراته النارية، وعلى الرغم من أن ذهابي للمطـار كـان للمرة الأولى، ولم أصطحب معي العيلة وعيلة العيلة، كما يفعـل الكـثيرون في زفـة السفر المصرية المعتادة، فلم أصطحب معي غير أخي الأصغر، أي أننا كنـا «طـازة»، وهذا ما زاد من حنق السائق علينا، خصوصا عندما سألني: المطار القديم أم الجديد؟ وهو ينتظر أن أعطيه التذكرة حتى يعمل معنا الواجب المدفوع الأجر مؤخرا طبعا، وكنت لا أعلم فعلا، لكني قلت له بلا تردد: «المطـار الجديـد يـا عـسل»، فأصـيب بخيبة أمل ربما لا تصيب إلا سائقي التاكسي في مصر! !

وكانت هذه هي الرمية التي رميتهـا بغـير رامٍ، دون أن أنظـر حتـى في التذكرة؛ حيث خمنت أن طائرة جامبو كبيرة تابعة للخطوط الجوية الإماراتيـة مستحيل أن تقلع من مطارنا القديم؛ لأنه بالفعل قديم، والجديد يحب الجديد.

(2) الوداع يا تراب شبرا

وصلنا أخـيرا لمطـار القـاهرة بـسلامة الله، وسـلامة أُذنـي كـذلك، الـتي تخلصت أخيرا من حكاوي سـائق التاكـسي الهمـام وصـولاته وجولاتـه في دنيـا السواقة، التي تتضاءل أمامها كل بطولات «مايكل شوماخر»، في مضمار سباقات «فورميـولا 1»، الـذي سـيتنازل عنهـا مختـارا لحـضرة جنابـه وهـو في غايـة السعادة، عندما يشاهد لولبياته الرائعة في مضمار «عباسية 2»، وكيف أنه كـان سببا في إنقاذ واحدة ست في حالة ولادة، عندما وضعت أول توائمهـا في سيارته المبروكة، أما التوأم الثاني فكان في كشك الولادة بمستشفى الجلاء، ومع ذلـك لم يدعه أحد من العائلة في «الـسبوع»، حتـى يغـني «حلاقاتـك برجلاتـك» ويأخـذ نصيبه من الملبس، وهاتك يا حكايات في حكايات، لم يكـن يـريحني منهـا كـل فترة، إلا موجات السعال التي كانت تستلم حنجرة جنابه، من جرايـر تـدخين السجائر الكليوباترا المضروبة، التي وجدت لها فائدة أخيرا، وهي حمايـة آذان زبائن التاكسي المساكين، ولهذا لم أجد بُدًّا من إعطائه إحـدى أذنـي علـى سـبيل الإعارة، فأعرته أُذنا من طين وتركت لي الأخرى من عجين، ولهذا كاد يحدفني حدفا في نهاية المشوار على باب المطار، لولا أنني أعطيته خمسة جنيهـات علـى سبيل البقشيش، ربما ليعوض ثمن ملبس السبوع، وحتى لا أكون بطلا من أبطال حكاياته القادمة!!

راجعت الباسبور والتذكرة، التي كانت ذهابا فقط بلا عودة؛ فالعودة كانت في علم الله، وحتى الوجهة التالية كانت كذلك في علم الله؛ فدبي كانت نقطة للتجمع فقط، لمهمة عمل سيكون الرجوع منها من أي مكان في العالم، ومن هنا من القاهرة، كانت البداية على باب المطار؛ حيث ودعت أخي، الذي منعوه من دخول صالة وداع المسافرين، ولا أدري لماذا! وسألت أمين الشرطة الواقف على الباب، ولا أدري كذلك لماذا يقف على الباب: طائرة دبي من هنا؟ فأخذ الباسبور والتذكرة، وقال لي: «اتفضل يا باشا»، ويبدو أن رتبة «الباشاوية» قد صار منحها، مؤخرا، حكرا على أمناء الشرطة وسائقي التاكسي، بعد أن كان الملك ينعم بها على الرعية رأسا، والبركة في تأشيرة دبي، التي تم تدبيسها في الباسبور؛ فقد كانت تأشيرة خاصة، وليست من نوع الزيارة ولا حتى العمل.

لكن الباشا لم يكن «مفتحا» بالقدر الكافي عندما حمل له سعادة جناب أمين الشرطة حقيبته الضعيفة ووضعها على سير البوابة الإلكترونية، فقد دخلت دون أن أُفتح مخي مع جنابه، فتبعني للداخل وهو يعاتبني معاتبة شيالين محطة مصر، فأعطيته ما تيسر من فكة حتى أفك منه ومن سماجته، حتى استلمني متعهد ترولليات الحقائب فقلت له: «عليك واحد»، فقد كانت حقيبتي بعجل وأجرها خلفي كما الرهوان، وتركته والشرار يتطاير من عينيه، وأنا أشكر السيراميك الذي يغطي أرضيات المطار.

انتهيت من وزن الحقائب، بلا بقشيش هذه المرة، وأخذت جوازي وأنا

خفيف خفيف، إلى حيث كشك ضابط الجوازات، وأنا أتشبث وأتبت بيدي على الباسبور وبداخله إذن السفر للخارج، الذي دخت في استخراجه السبع دوخات، من مكتب التجنيد والتعبئة لمنطقة التجنيد، حتى لا تنتهي الليلة على «فاشوش»، وأرجع مرة أخرى لأنتظر الاستدعاءات التي تأتي دائما صدفة بغير ميعاد، لأعود وأحمل «المخلة والجربندية»، بعد أن حلمت بالسفرية «اللي هيه»، حتى أعطاني الضابط الختم المحترم، الذي انتقلت به إلى صالة السفر وصرت خارج البلاد بربع قدم.

كانت الطائرات تبدو من زجاج الصالة، وهي تلمع تحت الشمس، مثل الفل، والعمال منهمكون في تحميل حقائب المسافرين، وفي مأكولات ومشروبات لزوم الكانتين وخلافه، ولم يبق لنا غير أن ينادي علينا الطيار ويستعجلنا في الصعود إلى الطائرة و«بسم الله نقرا الفاتحة يا جماعة، عشان ربنا يستر طريقنا ويوصلنا بالسلامة إن شاء الله، واللي قدام يربط الحزام والكنبة ورا أربعة، ومفيش إزاز هيتفتح عشان الأوكر بتضيع، ومن أولها كده ممنوع التدخين عشان ما نتخنقش»، حتى صحوت من أفكاري «الميكروباصية» على صوت فتح باب الصالة للأتوبيس، فاندفع الركاب وكأننا في موقف العتبة.

وصلنا إلى سلم الطائرة، وصعدت حتى وصلت للباب، فاستقبلتني مضيفة شقراء طلبت مني ما تبقى من البوردنج (بطاقة الصعود)، التي أخذوا مني نصفها عند الخروج من الصالة، ولو كانت قد طلبت عينا من عينيَّ لأعطيتها

إياها بلا أي تردد، حتى قالت لي اتجه لهذا المكان، مقعدك في الفئة «إتـش» يـا جميل، و«جميل» هذه من عنـدي طبعـا، حتـى فوجئـت بـضياع حلـم الجلـوس بجوار الشباك، فقلت خير الحمد لله «كده كده مفيش أوكـر في الـشبابيك»، لكـن رجعت وقلت «يمكن الإزاز هنا كهربا»!!

وعلى الرغم مـن أن الطـائرة كانـت جديـدة وفخمـة وتفـوح عطـرا نفـاذا اعتبرتـه أولى بشائر دبي، ولكن هنا في القاهرة، لكنها امتلأت عن آخرها، مثـل أي أتوبيس بولمان، وكنت أنا في منطقة الوسط، في الدرجة الشعبية الاقتـصادية، وعن يميني مصري شرقاوي من بلبيس، وعن شمالي مـصري كـذلك قليـوبي مـن قليوب، أما المضيف الـذي تعهـدنا طـوال الرحلـة فقـد بـدا أنـه مـن الأشـقاء في السودان، وهكذا تحققت وحدة وادي النيل، أمـا المـضيفة الـشقراء الـتي بحثـت عيناي عنها، فقد اتضح أنها لا تفارق خدمـة الدرجـة الأولى ورجـال الأعمـال، فانهمكت في متابعة شاشة الفيديو التي كانت في ظهر كل المقاعد، ولكـل راكـب على حدة، فقلت الحمد لله أن الفيديو لا يفرق بين الركاب في الخدمة، كما تفرق الشركة بينهم في المضيفين!!

ربطنا الأحزمة وتحركت الطـائرة إلى الـرن واي (مـدرج الطـيران)، ثـم انطلقت مثل الرصاصة، حتى أقلعت عن الأرض وانخلع قلبي معها كذلك، عندما شاهدت الأرض من النوافذ البعيـدة عـني، وقـد كنـا فيمـا بعـد العـصر ونهايـة النهار، وكيف أن الأرض كانت تبتعد، والقـاهرة تتـضاءل شـيئا فـشيئا، حتـى

رأيت الطريق الزراعي الذي أتيت منه، ولكن غبار شبرا الخيمة كـان قـد غطـى على كل شيء، وكأنه يصر على أن يترك لـي نظـرة أخـيرة، حتـى انقلـب حـال الطائرة، ومال بنا الطيار في حركة جريئة، ظننـت نفـسي بعـدها سـوف أنهـي الرحلة في ترب الغفير، فتمتمت في سري تشهدي الأخير، حتى انعـدل الحـال وقالوا لنا «فكوا الحزام»، ولم يكن هذا صوت عادل إمام، لكنه كان إيذانا بأننا قد استقمنا فوق السحاب، فقلت الوداع يا تراب شبرا، والوداع يا قاهرة يا زاهرة يا مُغبرة، وإلى دبي العامرة.

(3) جحيم أفران الغاز يهب علينا

اتخذت الطائرة طريقها فوق السحاب الرمادي، الذي اكتسى مع غروب الشمس بلون ذهبي رائع، تلك الشمس التي سنتركها في مصر مع الطيران ناحية الشرق؛ حيث بدأ الظلام يكسو كل شيء، وضاع أملي في مشاهدة الحقول الخضراء، بعد أن تركت تراب القاهرة ومصانع شبرا ومداخن مصانع كريستال عصفور، فقلت: ونعم ما ستتركه لي الذاكرة وأنا ذاهب لبلاد الأبراج والناطحات، بما تبقى فيها من مناظر شبرا المظلات!!

ثم بدأت أداعب شاشة الفيديو التي أمامي، ونسيت تماما أننا فوق السحاب، حتى أتاني المضيف السوداني وهو يجر ترولي الأكل والمشروبات، مع مضيفة أخرى كان يبدو عليها أنها أوروبية، ولما التفتُّ للمضيفة حتى تسألني ماذا أريد، إذا بالسوداني هو الذي يسألني: دجاج أم كباب؟ ويبدو أن الشقراوات على متن هذه الطائرة من النوع الأخرس فعلا، أو من النوع الذي يتحدث فقط بالعين والحاجب، ولكن على كل حال كان السوداني قد عمل معي الواجب، وتحيا مرة أخرى وحدة وادي النيل.

وتناولنا وجبة العشاء، التي لم تكن تسد رمق فأر مقطوع الذيل، ولولا إصرار المرحومة أمي على أن آكل في البيت قبل خروجي، حتى لا أسافر هكذا

وأنا هفتان، وكانت قد تعهدتني ببطة بلدي محمرة، أكلت صدرها كله قبل مغادرتي للمنزل، ولولاها لكنت قد سقطت مغشيا عليَّ من الجوع في بطن الطائرة، وكان سيحملني في تلك الحالة المضيف السوداني طبعا لتحيا وحدة وادي النيل للمرة الثالثة، فشكرا لله ثم لأمي، رحمها الله، وللبطة كذلك التي ضحت من أجلي بعمرها المديد في عشة سطوح بيتنا.

ثم نام الجميع في الطائرة، عداي أنا بالطبع، ليس لأنني كنت جائعا وظللت كذلك، ولكن بسبب تلك «الأوركسترا السيمفونية»، التي كان يعزفها جاراي العزيزان، الشرقاوي من بلبيس والقليوبي من قليوب، على أوتار شخيرهما المنتظم، الذي يفشل في ضبط إيقاعه حتى المايسترو «سليم سحاب»، فكان حلي الوحيد في وضع سماعة الأذن والاستماع لآيات من القرآن الكريم، وكم تمنيت أن تُتلى عليَّ سورة الكهف حتى يعود لي الأمل مرة أخرى في أن يستيقظ جاراي من رقدتهما ولو بعد زمن، لكن هذا الزمن لم يكن طويلا؛ فقد عاد جاراي أيقاظا من بعد رقود، بعد أن طلبوا منا ربط الأحزمة، إيذانا بوصول الطائرة وبداية الهبوط، وقد بدت أنوار دبي من بعيد.

كانت دبي تبدو مثل لؤلؤة مكنونة، ترقد على شاطئ بحر مظلم، تأخذك بنورها البراق كما تأخذ عين كل ناظر بأبراجها العالية التي تشع نورا مبهرا من جوانبها، ونورا أحمر آخر متقطعا، لتنبه به الطائرات حتى لا تصطدم بها، حتى ظننت من كثرة الأبراج وارتفاعها أننا لن نستطيع الهبوط،

لعدم وجود أماكن خالية على الأرض أو حتى في السماء، خصوصا أن الطيار قد بدأ يلف ويدور في حركات غريبة، ربما ليجد مكانا خاليا يصلح للهبوط، وسط كل هذا الزخم من المباني الشاهقة، حتى قام بحركة جريئة أخرى كالعادة، مثلما فعل في القاهرة، ولكني كنت قد تعودت على حركاته «البايخة» هذه، حتى لف بالطائرة وبدا المطار من بعيد، وبدا معه ممر الهبوط، والأنوار تحيط به من الجانبين، وبدأت الطائرة في الهبوط رويدا لا اختيالا، على رأي المرحوم «أبو العلاء المعري»، الذي كنا سنلحق برفاته حتما، عندما لامست الطائرة أرض المطار بسلامة الله، وسلامة قلوبنا كذلك التي وقعت في أرجلنا، بعد أن ارتجت الطائرة رجة مفزعة، حاولت معها ألا أحرك ساكنا، حتى لا أبدو غشيما مع أول عهدي بركوب الطائرات، لكن معدتي خانتني هذه المرة، وزمجرت وكركبت وحاولت أن تخرج ما فيها، من بقايا بطة الست الوالدة والكباب الذي أكلته على الطائرة، ويبدو أن الأكل الذي وزعوه على الركاب كان منظورا، حتى مرت مرحلة الهبوط بسلام، سواء للطائرة أو لقلبي الذي هبط كذلك بين رجلي، وكأنني الراكب الوحيد لتلقي تبعات الهبوط على ركبتي، لكني خمنت أن هذا هو العادي، لولا أن جاري القليوبي أعلن، وبكل فخر، أن طياري مصر للطيران «ما يعملوش كده»!!

خرجنا من الطائرة في أنبوب طويل، وكان مفروشا بالسجاد الأحمر، حتى ظننت نفسي ضيفا من ضيوف مهرجان كان، ولكن لم يكن هناك مصورون للأسف، حتى وصلنا لبوابة الجوازات، التي كانت تنتظرني عندها مفاجأة

أخرى غير متوقعة، سدت نفسي عن البلد وعمَّن يسكن فيه!!

رأيت على رأس الطوابير هناك ثلاث لافتات تصنف القادمين لدبي: اللافتة الأولى مكتوب عليها «مواطنون»، فقلت: عادي، لكل دولة مواطنوها الذين يجب أن يُحترموا في بلدهم، أما اللافتة الثانية فكان مكتوبا عليها «مواطنو دول مجلس التعاون»، فقلت: عادي، هم أبناء عمومة وخليج وصحراء ونفط، وأنا وابن عمي على الغريب، وقد اتضح في النهاية أنني هو ذلك الغريب، فقد توجهت إلى الطوابير التي تعلوها اللافتة الثالثة، التي كان مكتوبا عليها «أجانب»، هنا أيقنت أنني في هذا البلد العربي!! قد صرت أنا «الغريب» والمحسوب من زمرة الأجانب، فقلت: رحم الله أناشيد الوحدة العربية وأمجاد يا عرب أمجاد، التي ما زلنا نعترف بها في مطاراتنا، ونضع لافتة مكتوبا عليها «عرب»، على الرغم من أن كثيرًا من العرب لا يعترفون بتلك القومية إلا عندما يأتون إلينا فقط، ورحم الله الرئيس جمال عبد الناصر الذي صدعنا بها قديما، وما زال حواريوه يتشدقون بها حتى الآن، ولكن لم يتغنّ بها معه إلا العرب الفقراء!!

ولكن على كل حال، كانت هناك طاقة نور أخرى تبدو من بعيد، وشيء مبشر بالخير؛ فعلى غير العادة وجدت بعض من يراجعون الأوراق ويختمون الجوازات، من غير صنف الضباط، الذين يحشرونهم لدينا في كل شيء، من أول التوقيع على شهادة الميلاد إلى التصريح لك بالخروج من البلد ثم بالدخول إليها، ولم تبقَ إلا ليلة الدخلة لتكون كذلك مختومة بختم ضابط!!

التقطت حقيبتي اليتيمة من على سير الحقائب بعد أن نلت الختم الشريف على باسبوري الأجنبي غير الخليجي طبعا، وبدأت رحلة المشي إلى صالة الوصول للخروج من المطار، ولما كان الطريق طويلا جدًّا إلى الصالة، قلت في نفسي عمار يا مطار القاهرة الجديد «مفيش أضيق من كده»، حتى دلني أحدهم أن أتجه لاستخدام المشاية الكهرباء، فقلت ما أحلى التكنولوجيا، فتعب الكهرباء ولا وجع الركب، حتى وصلت لردهة المطار التي كانت متسعة ومرتفعة السقف بصورة مدهشة، وانضممت إلى باقي الزملاء، حتى اكتمل العدد واتجهنا ناحية باب الخروج الزجاجي، الذي انفتح تلقائيا، ربما احتراما لنا كأجانب لا كعرب طبعا ! !

ولكن بمجرد أن انفتح الباب حتى هبت على وجوهنا عاصفة ساخنة، في سخونة نيران الجحيم كادت تحرقنا، وكأن أحد أفران غاز محرقة هتلر (الهولوكوست) قد انفتح علينا بابه، وزاد من وطأة شظاياها على وجوهنا ذلك الذي تبقى عليها من نسيم جنة رضوان، التي تركناها داخل صالة المطار، بهوائها البارد المشبع بالعطور الفرنسية، وارد السوق الحرة، والمحمولة على نسمات هواء التكييف المركزي، التي استبدلناها برائحة عرقنا الملزقة، ماركة «إف.. إيه الصهد ده»، حتى وصلنا بالسلامة والعرق يتصبب منا إلى حيث كانت تنتظرنا سيارة «فان» مكيفة؛ فقد كنا في شهر يوليو، وما أدراك ما شهر يوليو في الخليج، فقلنا الحمد لله على نعمة التكييف، بعد أن فرهدنا من عشرة أمتار فقط، وعمار يا نسيم مصر حتى لو أتانا دائما وهو مغلف بالتراب.

(4) بدولار واحد فقط

أصبحت سيدًا في دبي

خرجنا أخيرا من مواقف مطار دبي، بعد أن احتار بنا الهندي سائق السيارة الفان، أو هكذا تخيلنا، فقد لف بنا ودار في كل مواقف سيارات المطار، التي يبدو أن سيارات دبي كلها كانت تركن فيها آخر الليل، وكدت أسأل السائق الهندي عمَّا إذا كنا فعلا في موقف سيارات مطار دبي أم في سوق السيارات بمدينة نصر، لكنني استنكرت السؤال فعلا حتى لا أظهر وكأنني أنا الهندي، فما الذي يجعل سوق سيارات مستعملة في مصر مكتظة بهذا الكم الهائل من السيارات الأمريكية واليابانية الضخمة ذات الدفع الرباعي، من فئة «الاستيشن» و«اللاندكروزر»، وهو المعتاد على صنف «السيدان» و«الهاتشباك» الصغيرة، وإذا أكرمه ربنا يرزقه بمرسيدس معدلة؟!

حتى عثر السائق أخيرا على باب الخروج من المواقف، ليمسك أول طريق البلد، بعد أن صعد كباري ونزل في أنفاق، ولف على صواني (دوارات) بها نافورات، كانت ترش مياها زرقاء وحمراء وصفراء وبألوان أخرى لم أتبينها، وكأن البلد في فرح مستمر حتى مطلع الفجر، ويبدو أن البلد لم يكن بعيدا بالقدر الذي تخيلناه؛ فقد بدأت تطالعنا لافتات خضراء لمن يريد وسط

المدينة، وكذلك لمن يريد أبو ظبي أو جبل علي، حتى دخل بنا السائق أخـيرا إلى طريق يؤدي إلى وسط دبي، وظننا أننا قد وصلنا حتى فوجئنا بما لم نكن نتوقعه.

كان الطريق من المطار إلى دبي مفتوحا، وكانت السيارات تسير فيـه وهـي تكاد تطير من فـوق الأسـفلت النـاعم جـدا، مثـل أسـراب الغـزلان البريـة عنـدما تهاجمها النمور في برنامج عالم الحيوان؛ لهذا لم تكـن أعيننـا المنبهـرة تـستطيع متابعة أي شيء، مع تلك السرعات الرهيبة، التي لم أشاهد مثلـها مـن قبـل، إلا على طريق الـساحل الـشمالي، عنـدما تنـام عدسـات الـرادار لمـن ترغـب مـن رواد مارينا، لكن هذا لم يدُم طويلا؛ فقد وقفت الفان في أول إشارة، التي تراكمت فيهـا صفوف السيارات، كما يتراكم الناس في طوابير العيش المدعم في مخابز وسط البلد، فظننا أنفسنا قد عدنا لمواقف المطار مرة أخرى من كثرة السيارات، وعلى الرغم مـن أن الطريق كان ست حارات، لكنه كان ممتلئا عن آخره، وربما يصل للإشارة الـتي تسبقها، وكلما فتحت الإشارة واقتربنا قليلا مـن العبـور تعـود لتغلـق علينـا مـرة أخرى، وكأننا في شارع رمسيس مع اختلاف فخامة السيارات بالطبع.

وهكذا تعذبنا من إشارة لأخرى، حتى بدأنا نسأل المولى – عـز وجـل – أن ينعم علينا بصبر أيوب، لما أصابنا من مرض مـروري تجمـدت فيـه أطرافنـا، وبدأنا نُسبح مثل يونس – عليه السلام – حتـى يُخرجنـا الله – سـبحانه – مـن بطن هذه الفان، وليرمنا في العراء علـى أبـواب أي فنـدق، حتـى لـو كـان فنـدق المشهد الحسيني، أو أي ولي من أولياء الله الصالحين في دبي.

تورمنا جميعًا على كراسي الفان، من قلة سيرها وكثرة وقوفها، ولو كنا ندري مكان الفندق المنتظر لأخذناها من قصيرها ونزلنا نمشي إليه، والأجر والثواب عند الله، فعلى الرغم من سخونة الجو في الخارج، لكن وجوه البشر التي كانت تمشي في الشارع كانت مشجعة جدًّا على النزول ولو في الجحيم، وقد تفرغ معظمنا لمتابعة لافتات المحلات والمولات التجارية الفخمة على جانبي الطريق، التي كانت معظمها بالإنجليزية، وبلغات أخرى لم نعلمها؛ حيث بدا البلد وكأنه في مولد وصاحبه غايب، ولولا وجود بعض اللافتات باللغة العربية لكنا قد ظننا أنفسنا في عاصمة أوروبية، أو في حاضرة من حواضر جنوب شرقي آسيا المبهرة، من كثرة الوجوه الغريبة الصفراء والحمراء، التي لم نعهدها في عالمنا العربي، حتى بدأنا نتساءل بالفعل: أين ذهب أهل ذلك البلد؟ وهل يسكنون في بلدة أخرى قريبة؟!

لم يكن هذا السؤال غريبا بالطبع، وقد تأكدت من منطقيته عندما وصلنا إلى الفندق الصغير، الذي سنقضي فيه ليلتنا الأولى في دبي؛ حيث استقبلتنا بمنتهى الترحاب شقراء باهرة الجمال، هي موظفة الاستقبال في الفندق ذي الخمس نجمات، ثلاثة منها من هيئة السياحة بدبي، والنجمتان الأخريان كانتا تلمعان على خدَّي تلك الشقراء الأوكرانية، بخلاف عشر نجمات أخرى ظهرت مع ابتسامتها الساحرة.

وفي خضم سباحتنا جميعا في عينيها الزرقاوين وشعرها الذهبي المنسدل

على جبينها، كانت هي قد فرغت، وبمنتهى السرعة، من إنهاء كل إجراءات تسكيننا في الفندق، وقد كنا عشرة أشخاص، لنصحو من أحلام تذكرنا فيها علاقاتنا الوطيدة بالاتحاد السوفيتي قديما، على صوت جرس ذهبي كانت قد رفعته ورنته من أمامها، وكأنها تنادي لنا البوليس بسبب عيوننا المتلصصة، ولكن لم يأتِ بوليس ولا يحزنون، بل أتى ثلاثة هنود، كانوا صورة طبق الأصل من «أميتاب باتشان»، فأيقنَّا بأن فيلم الترحيب قد انتهى، كما انتهى من قبل الاتحاد السوفيتي بمخابراته وهيلمانه، وصار علينا أن نتبع الهنود وهم يحملون الحقائب، وكلنا حسرة وأسى على ما آل إليه حال أشباه أميتاب باتشان في دبي.

وصلت إلى غرفتي وأنا أمشي خلف الهندي «الباتشاني» الهيئة، وقد فتح لي الباب بمنتهى الأدب، لكنه دخل قبلي بمنتهى قلة الأدب، فقلت أحسن، فربما الغرفة بها شياطين، والحذر واجب في هذه الحالات، لكن الهندي قد قام بضبط جهاز تكييف الغرفة، وكذلك التليفزيون والريسيفر، بعد أن وضع حقيبتي اليتيمة بجوار الدولاب، فعرفت لماذا دخل قبلي، وإن بعض الظن إثم.

لم ينتظر الهندي ليأخذ البقشيش كالعادة، وخرج سريعًا وسط دهشتي، فلحقته وهو على الباب، وأعطيته ورقة بدولار واحد، حتى لا يظن الهنود فينا، كمصريين، أننا عالم هنود مثلهم ولا نعطي بقشيشا، وكاد الرجل يبكي

وهو ينحني ويقول لي «ثانك يو سير»، بعد أن دسها سريعًا في جيبه، دون حتى أن ينظر فيها، وأحمد الله أن أوراق بنكنوت عملة أمريكا كلها شبه بعض؛ فالدولار الواحد بحجم العشرة، وشكرا لأمريكا ولدولارها الذي تطبعه بجميع فئاته قطعية واحدة، والذي جعلني «سيرا» رسميا رغم أنف ملكة بريطانيا، والفضل لمحل الصرافة بشارع رمسيس ولدبي وهنودها، و«ثانك يو مسز دبي» على هذا الكرم الإنجليزي!!

(5) حذارِ من أكل الشيبسي
في فنادق دبي

تـركني الهنـدي وهـو يـصر علـى أن يـنحني لجنـابي، وهـو يتراجـع للخلـف، بينمـا أنـا متأكـد تمامـا أنـه سـوف ينـدم أشـد النـدم علـى كـل تلـك الاحترامات والانحناءات عندما يُخرج دولاري اليتيم من جيبه وهـو علـى بـاب الغرفة، فأغلقت الباب سريعا، حتى لا يعود مرة أخرى، ليعـرض علـيّ تغـيير الملايات، أو ليعطيني فوطة حمام زيادة، حتى أضع في عيني حصوة ملح وأعطيـه بقشيشا محترمـا، ولكـن يبـدو أن خيـالي قـد كـان يُحلـق في حجـرات بنـسيون «ماجيستك»، الذي اعتدت الإقامـة فيـه أيـام التـشرد الدراسـي، حتـى أوفـق في العثور على سكن طلابي مناسب، أو بالمعنى الأصح رخيص.

وعلى الرغم من أن الفندق لم يكـن مـن نوعيـة «الفـايف سـتارز»، لهـذا توقعت أن يكون فرشه من نوعية فرش بنسيونات «الفـايف باونـدز» في الليلـة، لكن مستوى الفرش في الغرفة كان فايف ستارز بالفعل، على الرغم من أن الفندق كان ثلاث نجمات فقط، وقد أخبروني بأن هذا هو حال معظم فنادق دبـي، قمـة في النظافة والفرش الجيد مهما كان مستوى تصنيفها السياحي؛ فزائـر الدرجـة الثالثة لو لم يجد راحته في مستواه الاقتصادي، لن يضغط على نفسه ليأتي إليـك

مرغما مرة أخرى لينزل في الدرجة الأولى، كما لن يقنع الآخرين بذلك، بل العكس هو الصحيح تماما، ونظافة الفنادق أيا ما كان عدد نجماتها هي واجهة أي بلد يريد الترويج السياحي لنفسه، ناهيك عن الشوارع والمرور، فالمفروض أن السائح يأتي إليك للتمتع بإجازته السنوية، وليس للمشاركة في التعذيب بمشاكل البلد الذي قدم إليه، والذي أحيانا يعامله أهله بمنطق الجودة بالموجود وزبون وراح، ما دام سيدفع في النهاية حتى لو بدون بقشيش محترم.

لم أكد أصحو من أحلامي البانسيونية الفندقية حتى رن جرس التليفون، فتخيلت أنني قد أصبحت معروفا في دبي، لدرجة أن أحدهم قد قرر أن يتصل بي تليفونيا، ورفعت السماعة، فكان الصوت حريريا ناعما، بنعومة قماش الدانتيلا الذي يهفهف في فتارين محلات وسط البلد، فتتهفهف معه القلوب المتسكعة على النواصي، وكان الصوت بلغة إنجليزية غريبة لم أعهدها حتى في نشرات أخبار القناة التانية، ولا حتى من مذيعات قناة «نايل تي في إنجليش»، فقد كان لموظفة الاستقبال الأوكرانية، التي قالت لي:

– مستر «إيخاب!!»، يوجد شخص يريد التحدث معك.

فقلت: الله يخيبك ريسبشن. ثم أتاني من بعد صوتها الدانتيلا الحنين صوت آخر رجالي خشن أجاركم الله، من أحد زملائي يطلب مني النزول حتى أتناول العشاء مع المجموعة، فقلت له جزاك الله خيرا.

ولأنني كنت جائعا فعلا، فقد نزلت تلبية لرغبة الزملاء، الذين ظننت

أنهم لم ينسوني في أول يوم من أيام رحلتي ومعـرفتي بهـم، خـصوصا أن لقـائي بهم سيكون في صالون استقبال الفندق؛ حيث فاترينة الـدانتيلا المـسهوكة الـتي تـهفهف من خلف الريسبشن، والتي لا يزال صوتها يرن صداه في طبلة أذني.

وصلت إلى ردهة الفنـدق فوجـدت الجمـع مجتمعـا، ويكـسو وجـوههم جميعًا الوجوم، وكأنهم في يوم عزاء، فقلت لهم الدوام لله، فقـالوا لـي البقيـة في حياتك في العشا، قلت لهم خير إن شاء الله أكلتوه بالهنا والشفا؟ فقالوا لي «مـش إحنا»، فقد أخبرتهم الأوكرانية – والابتسامة تعلو وجهها الأبـيض مـن اللـبن الحليب – بأن «نأبهم طلع على شونة»، فـلا يوجـد لكـل مجموعتنـا أي عـشاء، وكانت هذه هي الابتسامة التي نهشت من لحومهم نهشا.

وخرج الجميع بعد أن علموا أن الإقامة في الفندق ليـست «فـول بـورد»، وأنهم لن يحظوا فيـه إلا بالـ«بـورد» فقـط، أمـا «الفـول» فقـد وجـدوه في المطعـم اللبناني المواجه للفندق، ويبـدو أن الفـول وراء المـصريين في كـل مكـان، بعـد أن أيقنوا أنه لا يوجد عشاء ولا يحزنون، وهذا من حسن حظ مطعم الفنـدق، الـذي كان سيشحت حتما على باب «السيدة» إحدى زوجات الشيخ «محمد بـن راشـد» طبعا، بعد أن يأتي هؤلاء المناكيد على كل خزين المطبخ؛ فهم من محـترفي مـسح أطباق «الأوبن بوفيه»، ولا يعترفون بشيء اسمه سرفيس واحد.

أما العبد لله، وبعد خيبة أمله كذلك، ليس في العشاء فقط، رغـم جـوعي الشديد، وإنما في مفارقتي للريسبشن؛ لهذا فقد قررت النوم على لحم البطن، لا

لشيء إلا لأنني لا أعرف في أحياء المحروسة دبي ولا شارع يوحد ربنا، وحتما سأتوه فيها على آخر الليل، كما أن هذا المطعم اللبناني الذي ذهب إليه الزملاء قد يأتي على بقية المائة دولار اليتيمة التي اقتطفتها في جيبي من شجرة صرافة شارع رمسيس، فقررت، مخيرا لا مسيرا، أن آخذ الدش التمام، وأن أذهب مختارا لا مجبرا لأنام، حتى وجدت المفاجأة التي تُغني عن الكلام، وكانت هذه المفاجأة داخل الحمام!!

تحققت أمنيتي التي تمنيتها كثيرًا، ووجدت أخيرا ذلك البانيو الطويل الذي سيجعلني أستلقي فيه كما خلقني ربنا، وأنا مفرود الرجلين، بعد أن تقزمت ساقاي من كثرة القرفصة في بانيوهات مصر الصغيرة، التي نجهزها خصيصا في الحمامات لاستحمام البطاطين لا البني آدمين، ولتشطيف السجاد والأولاد حتى سن سبع سنوات، والذين يستغلون فرصتهم هذه التي لن تدوم و«هاتك يا بلبطة»، فغطست في المغطس الذي ملأته بالماء الساخن، بعد أن حولت برودة التكييف جو الغرفة لما يشبه كهوف الثلج في بلاد الإسكيمو.

وظللت على حالة الاسترخاء هذه والماء الساخن يداعب جسدي الطافي فوق الماء، مثل أحسن «جاكوزي» في الشيراتون، حتى أدركني النوم للحظة، وكدت أغرق وسط هذا الشلال المنعش، من الماء الساخن المعطر، فتداركت الأمر وخرجت من بين الماء والصابون، ثم نفضت جسمي مثل ديك البراري، وجففت نفسي بفوطة مشبعة بماء الورد، ثم تلقفني سرير الهناء من بعد حمام العافية،

حتى أدركني الصباح وأنا أحلم بما هو آت في الغد.

صحوت على رنات التليفون، وكان صوت موظف الاستقبال رجلاً هذه المرة، وهو يقول لي بالعربية الفصحى:

– الساعة الثامنة صباحا، أخبرنا وكيل مجموعتكم، أن عليكم الوجود في الثامنة والنصف في ردهة الفندق.

فصحوت وغيرت ملابسي وجمعت أشيائي من الغرفة، وراجعت كل الأدراج عساي قد نسيت شيئا فيها، حتى عثرت على باب مغلق ففتحته، فوجدت خلفه ثلاجة صغيرة (ميني بار)، ففتحتها لأجد بها سوبر ماركت صغيرا، ما بين شيكولاتة وزجاجات مياه غازية ومعدنية وأكياس شيبسي وتمر وزجاجات خمر صغيرة، فقلت أعوذ بالله من غضب الله، فأخذت كيس شيبسي وزجاجة مياه، لأشق بهما ريقي على الصباح؛ فبعد حركة العشاء بالأمس قد يكون الإفطار كذلك غير مضمون، على الرغم مما هو متعارف عليه في معظم الفنادق المحترمة منها والنص نص.

ولكن بعد أن نزلت لردهة الفندق فوجئت بالمذبحة التي سيذكرها التاريخ ربما أكثر من مذبحة القلعة، فقد كان الإخوة الزملاء يعملون «شيك أوت»، ويبدو أنهم قد شطبوا على كل محتويات الثلاجات في الغرف، خصوصا الغالي منها والعياذ بالله، وصار عليهم أن يدفعوا ثمن كل شيء قبل الحصول على الجوازات من موظف استقبال الفندق، وقد رفض وكيل صاحب العمل، الذي كان

يستضيفنا في الفندق، دفع أي تكلفة إضافية، تزيد علـى فـاتورة قـضاء الليلـة في الفندق، ووقـع الأبطـال علـى إيـصالات خـصم مـن رواتـبهم، ثمنـا للـشيكولاتة والشيبسي التي أكلوها كما قالوا، أما زجاجات المنكر فالكل أنكرها والحمـد لله، وإن بدا ذلك واضحا في مبلغ إيصال الخصم، لكن الله حليم ستار حتى على عبـاده السُكرية، لكن الفضيحة بقيت ملتصقة بالجميع، وعـزاء كـل واحـد مـنهم أنـه الوحيد الذي يؤكد أنه لم يفعل ذلك! !

ثم حان الدور عليّ في التوقيع على إيصال الخصم، وكان سـتة دولارات: أربعة منها لكيس الشيبسي الذي لم أكمله، واثنان لزجاجة المياه، التي تناولـت منها رشفة واحدة، فظهرت فائدة أخرى للدولارات الفكة، فدفعت نصيبي كاش وأمام الجميع، معلنًا بذلك براءتي من التهمة، التي ربمـا كنـت أظنهـا وحـدي أنهـا مـشينة، ولم تتلـوث بـدلتي البيـضاء بـأي إيـصالات خـصم أو مرتجعـات مشبوهة، ثم حرمت على نفسي أكل أي شيبسي في فنادق دبي أو في فنادق أي بلد أخرى، وقلت عمار يا شيبسي مصر، الكيس بجنيه واحد وتأكل وتكـسب أيـضًا جوائز! !

(6) ليلة واحدة في دبي لا تكفي

وكأننا كنا في مدينة أخرى بالأمس؛ فالفرق كان كبيرا جدا، ما بين رؤية دبي وشوارعها في الليل، والتجول فيها هي ذاتها في النهار؛ فمن شوارع صاخبة تكسوها الأنوار الملونة ولافتات المحلات المضيئة، إلى شوارع شبه ميتة وصامتة إلا من أصوات كلاكسات السيارات، ويكسوها طغيان مبهر للعيون ولكن ليس من أضواء المحلات والمولات هذه المرة، ولكن من قوة ضوء شمس النهار، حتى إنك لا تستطيع رؤية أي شيء؛ فسماء الخليج في الصيف لا تظللها أي غمامة توحد ربنا، وتكاد تظن أنهم بشر ليس دونهم ودون الشمس سِتر، إلا ما يتخفون فيه من مبانٍ مكيفة، أشبه بالكهوف التي لا يخرجون منها إلا فقط في الليل!!

أما إذا اضطروا للخروج نهارا، فهذا يجب أن يكون في الصباح المبكر جدا، مع الأجانب الذين يعملون هناك، أو أن يكون ذلك الخروج في سيارات مكيفة، يُصبح الوصول إليها هو قمة المعاناة تحت لهيب الشمس، التي تجدها أيضًا تحتضن الهنود والبنغاليين وباقي العمالة الآسيوية بحنان، وهم يسيرون في الشوارع في أي وقت، وكأنهم قد قدموا من وراء الشمس ليحملوها تاجا فوق رؤوسهم، وهكذا كنا نراهم يسيرون حولنا عندما انطلق بنا الباص المكيف، بعد أن وردنا الخبر المؤلم بأن علينا أن نغادر دبي في نفس هذا اليوم، إلى جهة سوف يُفصحون عنها لنا فيما بعد.

وعلى الرغم من أننا كنا نعلق آمالا في البقاء في دبي ولو لليلة واحدة أخرى، بل لليالٍ؛ لأنها تحتاج أكثر من ألف ليلة لا ليلة واحدة، حتى نتجول بين شوارعها ومولاتها الكثيرة الأنيقة، على الرغم من كوننا قد أفلسنا جميعا، سواء في المطعم اللبناني أو في حساب ثلاجة الفندق صباحا، لكنه طبع ومتأصل في المصريين، تنتهي جولاتهم دائما بالشراء، وكأن البضائع سوف تنتهي من الأسواق، ثم تجدهم بعد ذلك يبكون في طوابير كاونترات وزن الحقائب في المطارات، بعد أن تعدت أوزان حقائبهم حدود المسموح به مجانا على التذكرة، ودخلت في حدود غير المسموح به أساسا على الطائرات، وصار عليهم الدفع «كاش» لكل كيلوجرام زيادة، وربما تكون قيمة الوزن الزائد للحقيبة أغلى من قيمة الحقيبة ذاتها وما فيها.

ولكن رب ضارة نافعة، ورُب مغادرة خير من ألف بقاء، ما دامت الجيوب قد أصبحت خاوية، وهذا ما كنا نفكر فيه جميعا، ونحن نودع أبراج دبي الشاهقة، وهي تتوالى علينا كالعادة مخرجة لنا ألسنة نوافذها الزجاجية «الفيميه»، لنراها نحن من نوافذ لا نجرؤ على فتحها، هي نوافذ الباص الذي كان يسير سريعًا على غير العادة، في شوارع شبه خالية من السيارات؛ فقد كنا في الساعة العاشرة والنصف صباحا، وهذا هو الوقت الأفضل للمرور في دبي، فالكل قد استقر في مكاتبه، ولم يحن موعد انتهاء الدوام بعد، كما أن حرارة الجو قد بدأت في الارتفاع، وكل شيء يدعو للبقاء في الكهوف.. عفوا، البنايات المكيفة.

ولكن الأمر كان يستدعي، أحيانا، أن يقف الباص بعض الوقت في إشارة كبيرة، والحقيقة أن أفضل شيء في هذا البلد هو الالتزام بقواعد المرور، التزام قد يظنه البعض سلوكا فرديا من الأشخاص، لكن الحقيقة أنه إجبار قانوني؛ فالمخالفات هنا قاسية جدًّا ويتم تطبيقها بمنتهى الصرامة، وإن كنت لا أعلم هل تُطبق كذلك على المواطنين أم لا، فأنا لم أرَ أي مواطن حتى الآن في هذا البلد، اللهم إلا بعض موظفي المطار، ويبدو أن لهم أماكن سكن خاصة بهم، ومواعيد خروج من البيوت أيضًا خاصة بهم، ولكن على كل حال، كان توافر إمكانات المرور والإشارات والعلامات والكاميرات المنتشرة في كل مكان، يجبر أي قائد سيارة على الالتزام بقواعد المرور، وفي بلد مثل دبي، ومع هذا الزخم الرهيب من السيارات التي تسير في شوارعها، يصبح أي انفلات مروري بمثابة كارثة حقيقية، خصوصا أنك لن تجد أي واحد «مفتح»، تنشق عنه الأرض ليقول لك «عجلة قدام يا أسطى»، فتنحل الأزمة العويصة التي كانت تعطل المرور في الشارع!!

والحقيقة أن الحديث عن المرور في دبي يطول، ولكن يكفي أن تقول عنها شيئا واحدا، أن هذه بلاد بلا مواصلات عامة (لم يكن مترو دبي قد أنشئ في تلك الفترة)، بمعنى أنه على الرغم من وجود باصات غير قليلة في الشوارع، لكن السيارات الخاصة هي الغالب الأعم في الشوارع، وعلى الرغم من وجود سيارات تاكسي كثيرة، لكن معظمها خالٍ بلا زبائن، كما أنها تبدو عليها الفخامة وأشبه بالليموزين، ويبدو أن أجرتها غالية جدًّا فلا يقبل عليها أحد،

وقد سمعنا كثيرًا عن انخفاض أسعار السيارات الجديدة في الخليج، لعدم وجـود جمارك عليها، فما بالك بأسعار السيارات المستعملة! ويبدو أن شـراء سـيارة في هذا البلد ربما يكون أرخص من شراء بدلة من ماركة إيطالية محترمة!!

ووصلنا أخيرا والحمد لله، ولكن ليس للمطار هذه المرة، بل لأحد الموانئ البحرية، حيث محطـة الركـاب، فقـد كانـت تنتظرنـا عبَّـارة صـغيرة، سـوف تحملنا مرة أخرى إلى الباخرة الكـبرى، الـتي كانـت تنتظرنـا في ميـاه الخلـيج العربي أمام هذه الإمارة، التي عرفت أخيرا أنها سوف تُقلني إلى حيـث لم أكـن أتوقع ولم يخطر لي على بال، كبداية لرحلتي الطويلة حول العالم، رحلـة كـان الكثير منها بغرض العمل، والقليـل منهـا للـسياحة والـذكريات، ولكـن هـاهي الذكريات تعود لتلح عليَّ لكتابتها، حتى لا تغـادرني كمـا غـادرت دبـي هكـذا بمنتهى السرعة، ولكن ما قلل من حزني على فراق دبي أننـا كنـا في الطريـق إلى المثل الأعلى لدبي، أي أننا سنغادر إلى الأصل بعد أن تركنا الصورة، والأصل هنا هي «سنغافورة»، وقد كانت هذه هي رحلتي الأولى لدبي في عام **2000**، مجرد رحلة ترانزيت لليلة واحدة فقط، وليلة واحدة في دبـي لا تكفـي، وإن تركـت في ذاكرتي لمسات لم تمحها زياراتي المتعددة لدبي بعد ذلك، ففي دبي أنت لا تشبع أبدا، وفي كل زيارة لـك إليهـا سـوف تجـدها تلـبس ثوبـا جديـدا، تمامـا مثـل سنغافورة التي كنت فيها على موعدٍ وليالٍ كثيرة.

(7) جنة الحرامية

مغادرة دبي أصعب على زائريها من الدخول إليها، لمن أتاها للسياحة طبعا، سواء كانت تلك المغادرة في طائرة أو في سفينة، أو حتى في سيارة أجرة، فكما تصر دبي دوما على استقبال زوارها، بأبراجها العالية وأنوارها الملونة المبهجة، ثم بطوابير الجوازات التي تطول جدًّا على صنف الأجانب بلسان عربي مبين، بينما الأجانب من صنف الأنجلوساكسون والفرانكوفون يمرون بمنتهى اليسر والسهولة، خصوصا لو كانوا من ذوي الشعر الأشقر المنسدل والعيون الملونة، وربما حتى من دون مراجعة الجوازات، فتكفي عيونهم وعيونهن الزرقاء، عوضا عن زرقة أختام التأشيرات!!

كذلك لا تنسى دبي أن تودع مغادريها بابتسامة أبراجها التي تناطح السحاب، بصورتها التي تتراقص فوق صفحة الماء، الذي يتلألأ كذلك ببريق الأبراج وأنوارها المبهرة، فيكتفي المغادر لدبي بالوداع، كما اكتفى كذلك في إقامته بالفرجة، بينما صورة الأبراج تحتضن أنوارها بين أمواج البحر، بينما المغادر لا يجرؤ حتى على سؤالها: لمن بنيت كل تلك الأبراج؟!

صارت كل البنايات تبتعد عنا، وكأنها هي التي تغادرنا لا نحن، وتتضاءل رويدًا رويدًا ثم تتوارى وهي تحتضن الأفق البعيد، لتبدو وكأنها تغرق

في ماء البحر، حتى صارت دبي كلها وكأنها قارة أتلانتس، التي غرقت قبل آلاف السنين تحت مياه المحيط، وهي بكامل بُهرجها الذي قرأنا عنه، قبل أن يُولد التاريخ ذاته بزمان، وهكذا حال كل ما يعلو شأنه بسرعة، تكون نهايته كذلك بنفس السرعة!!

صرنا تماما في عرض البحر، وصارت دبي كلها وكأنها في خبر كان، وعلى الرغم من أننا كنا لا نزال نُبحر في مياه الخليج، فإن صورة سنغافورة قد بدأت تُستحضر في الأذهان، فهي مَثَلُ دبي الأعلى ورائدتها على سبيل التحول الكبير، لمركز مالي وتجاري عالمي يرتكز على تجارة الترانزيت، ليستقطب الشركات العالمية للحصول على فرص استثمارية في بيئة معدة للربح فقط، على أرض المدينة الدولة، التي حولت نفسها لمول كبير يعج بالباعة والمشترين وكل من ينشد العمل بحرية، بعيدا عن القوانين والتعقيدات التي تفرضها كثير من الدول، عندما تصر على سؤال أصحاب الأموال: من أين لكم كل هذا؟!

لم يكن الطريق طويلا، ولا حتى كان رتيبا، على الرغم من أن السفينة كانت بطيئة، أو ربما اعتدت أنا على سرعة الطائرات، ولكن هكذا الملاحة في الخليج العربي المزدحم بالسفن، والذي نسميه نحن العرب فقط «الخليج العربي»؛ ففي كل الخرائط الملاحية الدولية يسمى «الخليج الفارسي»، ولا أدري إن كان هذا مقصودا أم لا! ويبدو أن أهل تلك البلاد يحبون المظاهر العربية أكثر من لب العربية الحقيقي، ولكن على كل حال فقد كان العرب في دبي أقلية،

وحتى العرب الوافدون من غير صنف أهل الخليج يسمونهم هناك أجانب! !

كانت مياه الخليج هادئة تماما، ولكن لم يكن الأمر يخلو من إثارة بسيطة، مع تدافع حركة الأمواج بجانبي السفينة، التي كانت تهتز كثيرًا كلما مرت بجوارها سفينة أكبر وأسرع، من نوع الكونتينر (الحاويات)، ثم تعود الأمواج للهدوء مرة أخرى، مع مرور ناقلة بترول عملاقة، تتهادى كما إوزة عراقية كبيرة، تجعل غيرها من السفن الأخرى تبدو كسرب من البط البلدي، حتى يقطع الطريق عليها قارب إيراني سريع، يريد العبور إلى الضفة الأخرى، فيفاجَأ هو الآخر ببارجة حربية أمريكية، تقف له بالمرصاد فيعود سريعًا من حيث أتى، تاركا زخات من أمواجه تدخل في عيون سفينتنا الصغيرة.. وهكذا هي الملاحة في الخليج، الذي يظنه الفرس «فارسيا» والعرب «عربيا»، بينما الأمريكان قد اعتبروه «أمريكيا» وانتهى الأمر، حتى خرجنا نهائيًّا من هذا الخليج، وبدأ البحر يلعب بنا فعلا.

الملاحة في المحيط تختلف تماما عن الخليج؛ فأمواجه بدت متلاطمة وتتوعدنا برحلة عاصفة، وعلى الرغم من أننا كنا في الصيف، لكن السماء كانت ملبدة بالغيوم، حتى بدأ المطر يتساقط فعلا على الرغم من درجة الحرارة العالية، فقد كنا نقترب رويدًا رويدًا من خط الاستواء، حتى اشتدت الأمطار وصارت السفينة وكأنها تشق طريقها ما بين بحرين كبيرين، الأول يتلاعب بها من أسفلها، والثاني يغمرها من أعلاها بماء المطر الذي يهبط عليها من السماء، وأبحرنا على هذه الحالة ليومين متصلين، لم نفتح فيهما بابا ولا حتى شباكا،

حتى انقشعت عنا الغمامة الثقيلة، وصحونا على يوم صحو جميـل، رأيـت فيـه، ولأول مرة، أجمل منظر شاهدته في حياتي.

كنا نبحر وسط مجموعة مـن الجـزر الخـضراء الـصغيرة، الـتي تمتلـئ تلالها بالأشجار والنباتات الاستوائية، وبدت وهـي تلمـع تحـت أشـعة شمـس الصباح مثل حبات اللؤلؤ المنثورة على عباءات خضراء، تخفي من جمالهـا أكثـر مما تبديه، وقد تحلل الضوء لألوان طيفه السبعة، مكونا لوحة فنية لم أرَ مثلها في حياتي، وكأنها عصافير الجنة وقد خرجت لتوهـا مـن مـاء البحـر، لتـنفض عنها الماء، لتحلق فوق تلال تلك الجزر المرتفعة والمتدرجة، حتى تسرح بخيالك أكثر، لتظن أن خلف تلك اللوحـة الرائعـة لا بـد أن هنـاك عـذراوات جمـيلات ينتظرن فرسان الأحلام، بشفاههن البكر الرطبة الشهية، الـتي تحـن إلى القبـل تحت ظلال الزيزفون وسقسقة العـصافير، وظننـت أن هـذه هـي جنـة الله علـى أرضه، لكنني تساءلت: من الشعراء والفنانون الذين يعيشون وسـط هـذا الجمـال كله؟! وقد اتضح في النهاية أن بعض سكان تلك الجزر ليسوا شعراء ولا فنانين، لكنهم كانوا مجرد «حرامية»!!

فقد أخبروني أن هذا هـو ممـر «ملكـا ستريت» الـضيق، الـذي يقـع بـين ماليزيا وإندونيسيا (جزيرة سومطرة)، والذي يعـج بالقراصـنة البحـريين، الـذين يهاجمون البـواخر ليـسرقوها، وتعجبـت لما ظننـت أن هـذه الجـزر هـي الجنـة بعينها، فقد اتضح لي أنه بجانب الـشعراء والفنـانين والـسياح والمغـامرين، ظهـر كذلك أن بعض سكان هذه الجنة هم مجرد «حرامية» بواخر، ولله في خلقه شئون.

الرحلة الثانية

سنغافورة.. الأسطورة تحت المطر

(1) الأسطورة الإنجليزية تحت المطر

وكأن السماء قد بدأت تنتشلها من تحت الأمواج، فقد بدت ناطحات السحاب تطالعنا مرة أخرى وترتفع رويدًا رويدًا، بعد أن كانت غارقة في عيوننا تحت سطح البحر، لتبدو شامخة من خلف الأفق البعيد، وكلما ارتفعت وتضخمت أمامنا ازددنا نحن تقزما بجانبها، فتشرئب أعناقنا من النظر لأعلى، فنبدو بسفينتنا، التي صارت أصغر وأصغر، كما غزال صغير يتلمس طريقه بين المرتفعات الشاهقة، حتى أدركنا أخيرا أننا قد وصلنا بسلامة الله إلى تلك الأسطورة المغسولة بمياه الأمطار، طوال أيام السنة؛ فخط الاستواء يمر بجوار أرض سنغافورة تماما.

وفي سنغافورة لا تبدو الأشياء غريبة بقدر ما تبدو مدهشة وكثيرة، لكنها منظمة على أحسن ما يكون، فمنذ بداية خروجنا للشارع، وقد وجدنا اللافتات تملأ المكان، في ساحة إصلاح السفن (الترسانة) التي كنا نرسو فيها، وعلى بوابة الميناء المخصص لها، الذي تجد أمامه مباشرة محطة الأتوبيس الأحمر ذي الدورين، تماما كما يمكن أن تراه في لندن؛ فكل شيء هنا أساسه إنجليزي، وسنغافورة نفسها صناعة إنجليزية صرفة، من منتجات إنجليزية كثيرة تركتها بريطانيا في تلك المنطقة، قبل أن تغادرها بلا رجعة، لتترك خلفها هونج كونج وتايوان، التي انتزعتهما نزعا من الصين، وسنغافورة التي

انتزعتها كذلك من ماليزيا، ولا أدري إن كان هذا خيرا لتلك البلاد، أم أن الاستعمار كله شر.. عموما بدا لي أن سادة تلك البلاد والمسيطرين على معظم الأعمال فيها أوروبيون، وظل الآسيويون يعملون لديهم، أو على أحسن تقدير معهم؛ ولهذا ترى اللمسة الأوروبية أو الإنجليزية في سنغافورة وفي كل مظاهر الحياة، حتى في وضع عجلة القيادة للسيارات، التي وضعوها أيضًا على اليمين، ما كان سيعرضنا لحادث سير مؤكد، ونحن نعبر الشارع أمام بوابة الميناء، والغريب دائما أعمى حتى لو كان بصيرا، ولكن لمن ينظر فقط على القادم من اليسار، وليس على القادم من اليمين، مثل السائق الذي صرخ فينا، وكأننا هنود قادمون حديثا إلى سنغافورة، وإن كانت الهند ذاتها تضع عجلة قيادتها على اليمين، وتعسا لهؤلاء الإنجليز الذين أفسدوا العالم، إلا نحن في مصر بالطبع، فلم يفلحوا معنا في ذلك؛ فقد تشبثنا بأن تظل البلد كلها بعد رحيلهم شمالا!!

وصل الأتوبيس في موعده بالتمام، كما كان مدونًا في الجدول المعلق على لوحة المحطة، فدخلت مع باقي الركاب الذين وقفوا أمام ماكينة صرف التذاكر الموجودة داخل الأتوبيس نفسه، وأمام باب الدخول مباشرة، ووضع كل منهم دولارا معدنيا واحدا في الماكينة، فخرجت له ورقة صغيرة مطبوعة، وكانت هذه هي التذكرة، من دون محصل يدعى دائما أنه لا توجد فكة، ويكتب لك الباقي على ظهر التذكرة، ثم يصرخ في الركاب: «حد لسه ما دفعش يا أفندية؟!»، ولكن في خضم ذكرياتي مع «ترام الرمل» في الإسكندرية، كانت تنتظرني مفاجأة غير سارة وأنا واقف أمام ماكينة التذاكر.

اكتشفت أنني لا أحمل إلا دولارات أمريكيـة، ناهيـك عـن عـدم حملـي لأيـة عمـلات معدنيـة، ولا يوجـد محـصل ولا يحزنـون، حتـى أعطيـه دولارا أمريكيا ثم أسامحه في الباقي، وهو الكسبان بالطبع، ولم أدر ماذا سأفعل، وهـل أصعد من دون تذكرة، فالواضح أنه لا أحـد يفـتش علـى التـذاكر هنـا، والنـاس مسلمة أمرها لله ويعتمدون علـى ضـمير الركـاب، ولكـني لم أكـن أرغـب في أول معرفة لي بالجميلة سنغافورة أن يكون مصيري هو «التطويـق» في باصـاتها ذات الدورين.

لكن جاء الحل من أحد الزملاء، من محـترفي الـسفر؛ إذ كـان يحمـل في جيبه دولارات سنغافورية، ومن المعدن كذلك، وقرر أن يقرضنا وينقذنا بمنتهى الكرم الحاتمي، لكن سرعان ما تحول كرمه هذا «الحاتمي» لبرود «إنجليـزي»، عندما جمعها منا دولارا دولارا في الباص، ولكن دولارات أمريكية من جيوبنا، عوضا عن الدولار السنغافوري الأقل في القيمة، ليحصل هو علـى فـرق مناسـب، بين الكرم السنغافوري والكرامة الأمريكية.

صعدت إلى الدور العلوي في الأتوبيس، حتى أشاهد كل صـغيرة وكـبيرة في البلد، تماما كما كنت أفعل في ترام الرمل بالإسكندرية، مع اخـتلاف نوعيـة المَشاهد بالطبع، ما بين الشوارع المليئة بالحدائق والأشجار، وشـوارع كليوبـاترا وسيدي جابر، المليئة بعربات بائعي الخضار، ولكني لم أكن أشاهد أي ناطحات سحاب حتى الآن، فقد كنا لا نزال في المنطقة الصناعية المحيطة بالمينـاء، الـتي

تبدو شوارعها أكثر نظافة من شوارع «حديقة المنتزه»، حتى أيقظني من بحر أفكاري الإسكندرانية صوت أجش يسألني عن التذكرة.

كان الصوت لعملاق هندي مفتول العضلات، أشبه بـ«جبار سنج» – خصم أميتاب باتشان اللدود في أكثر من فيلم هندي – ويبدو أن كثيرًا من الهنود بنفس هذه القطعية «السنجية الباتشانية»، وتحت ضغط هذا العملاق اكتشفت الحقيقة المرة، وهي أنني في غمرة مشاهداتي للشوارع والمصانع، كنت قد طبقت التذكرة التي كانت مثل ورقة البفرة، ولم أكتفِ بذلك بل وألقيتها من الشباك أيضا، وكان الحل أن أقول الحقيقة وبكل صراحة لهذا الهندي، وليكن بعد ذلك ما يكون، وإذا لم يكن من «التطويق» بدٌّ، فمن العار أن «يطوقنا» الهنود ونحن جبناء.

ابتسم الرجل ابتسامة مطمئنة، على الرغم من أنه عرف أنني لا أحمل تذكرة وقال لي:

– ألم تأخذ تذكرة من على باب الباص؟

فقلت له:

– بالفعل أخذتها ولكني ألقيتها من النافذة.

وكنت على وشك أن أحلف له برحمة المرحوم المهاتما «غاندي» بذلك.

قال لي:

– عدم قطعك لتذكرة مخالفة، وإلقاؤك للتذكرة من النافذة يعتبر مخالفة

أخرى، وعليك أن تختار بينهما.

فوقعت في حيص بيص!!

فقلت له:

– إذا قلت لك إنها طارت من النافذة، فهذا يعني أنني قطعتها.

قال لي:

– نعم.

فقلت له:

– وطيرانها من النافذة كان بسبب الهواء، وليس بسببي أنا!!

فضحك الرجل بطريقة لطيفة، وطلب مني النزول لأسفل، وقطع تذكرة أخرى من الماكينة.

كنت سعيدا من مرونة هذا الرجل، خصوصا أن غرامة المخالفة الواحدة ربما تتعدى 500 دولار سنغافوري، ولكن كان الأكثر سعادة مني بالطبع هو زميلي حامل الدولارات السنغافورية المعدنية، الذي سميته «شيلوك»، ذلك اليهودي المرابي في مسرحية «تاجر البندقية»، وأنا متأكد بالطبع من عدم معرفته من هو «شيلوك»؛ فقد كان من الواضح أن آخره في القراءة هو روايات مصرية للجيب وروائع «أدهم صبري»، أما «وليم شكسبير» فلا يعني بالنسبة له إلا كونه أحد برامج التليفزيون المملة على القناة الثانية!!

(2) الجن المنتشر في شوارع سنغافورة

يقولون إن الغريب أعمى حتى لو كان بصيرا وعيناه «مفنجلتين»، وهما تتابعان كل لافتة تمر عليهما، وهذا ما كنت أقوم به فعلا، وأنا أجلس في الباص ذي الدورين، بينما الباص يمرق مثل ثعبان استوائي بين أشجار الحدائق المليئة بالزهور الملونة، التي ترسم مع مباني المصانع المعدنية اللامعة التي تحيط بها لوحة تكنولوجية بيئية كأروع ما يكون، تذكرك بلوحات رسومات ألعاب الـ«بلاي ستيشن» والسيارات والدبابات التي تمرح فيها، في بيئة نظيفة نادرة بلا أدخنة وبلا تلوث.

بدأنا ندخل رويدًا رويدًا لقلب المدينة النابض، وبدأت ناطحات السحاب تلوح من بعيد، حتى لفتت انتباهي لافتات غريبة تكررت أمام عيني أكثر من مرة، على رأس كل شارع رئيسي، فقد كان مكتوبا عليها الحرفان «Jn»، فتعجبت من وجود كلمة «جن»، وهل الجن يظهر حقيقة في سنغافورة، وكل شيء في سنغافورة جائز!!

لكن المسألة لم تصل معي لدرجة العمى، لدرجة أنني قد أصبحت أقرأ الحروف اللاتينية بالعربي، ولكن كادت عيناي فقط تُصابان بالحول من كثرة التنقل بين لافتات العلامات التجارية، وكذلك أسماء الشوارع المتتابعة، التي

يبدأونها هنا دائما بالحرفين «Jn»، وهما اختصار لكلمة «Jalan»، التي تعني بلغة الملايو «طريق»، وقد كان أول الجن الذين تشرفت بمعرفتهم في ذلك البلد هو «Jn Ahmed Ibrahim»، أو طريق أحمد إبراهيم، بلسان عربي مبين.

لم أخف دهشتي للاسم بالطبع؛ فقد عرفت أن ما لا يقل عن خُمس سكان سنغافورة من المسلمين، وطبيعي أن تجد شوارع هناك تحمل أسماء شخصيات مسلمة، خصوصا بعد أن سألت عن «أحمد إبراهيم» هذا فوجدت أنه كان أحد الشخصيات السياسية المهمة في تاريخ سنغافورة، وكان وزيرا للقوى العاملة ووزيرا للصحة، حتى وفاته عام 1962، فليس غريبا أن يُوضع اسمه على شارع كبير، يبدأ بالقطع بكلمة «جن»، ولم يعترض أي جني سنغافوري على ذلك!!

والحقيقة أن الجن موجود فعلا في سنغافورة، لكنه جن منظم جدا، استطاع أن يجعل من جزيرة صغيرة، مساحتها أقل من 700 كيلومتر مربع، كانت حتى بداية القرن التاسع عشر تحت حكم سلطان الملايو، ثم تتابعت عليها القوى الاستعمارية الأجنبية طمعا في موقعها المتميز، في قلب طرق التجارة العالمية، فتحولت لرابع أكبر مركز تجاري في العالم، ومتحكم رئيسي في تجارة الترانزيت لجنوب شرقي آسيا، ليصل ناتجها القومي إلى أكثر من 250 مليار دولار، موزعا على أقل من 5 ملايين نسمة.

بتركيبة سكانية غريبة أغلبها من الصينيين، ثم من الملايو والهنود، والباقي من جنسيات مختلفة، وفي وسط كل هذا الزخم الكبير للغاية، من الموانئ والترسانات البحرية والمصانع والمراكز التجارية والمنتجعات السياحية، المسألة بالفعل تحتاج لشخص جن و«ابن جنية كمان»، ليدير هذه المنظومة المتكاملة وبكل هذا الإتقان.

بدأنا نترك المنطقة الصناعية كليا وندخل في أعماق المدينة وزحامها، وبدأت الأبراج العالية تظهر، ولكن من قريب، ونحن ما زلنا في طريق أحمد إبراهيم، حتى تركناه وبدأت ألاحظ أن معظم الشوارع مجهزة بمصافٍ للمياه، ويبدو الماء جاريا فيها طوال الوقت، لتصب في نهر صناعي صغير، تتجمع فيه مياه الأمطار التي تسقط بغزارة من سماء سنغافورة، التي لا يوجد بها نهر واحد طبيعي، فيجمعون ما تجود به السماء عليهم، لتصبح مصدرا وحيدا لمياه الشرب، في نهر هم الذين صنعوه، ولهذا لم أجد على ضفافه أي سنغافوري يشوي ذرة، أو أي عربة لبيع الحلابسة بالشطة.

دخلنا أخيرا إلى وسط البلد؛ حيث محطة الأتوبيس الرئيسية، وكذلك محطة المترو وبداية الخط، الذي تستطيع منه أن تصل لكل جزء من أنحاء سنغافورة، وإذا لم ترغب في الانتقال لأعماق سنغافورة، فهناك مركز تجاري كبير جدا، يكفيك عن الذهاب لأي مكان، وكانت هذه هي محطة « Boon lay» أو «مقر النعمة»، عفوا لم تكن هذه صفة، وإنما اسم المحطة ولكن بلغة الملايو.

(3) السحر المصري أيضًا في سنغافورة

لا أدري لماذا تذكرت زحام محطة رمسيس، عندما طالعت للوهلة الأولى محطة أتوبيس «Boon Lay»، على الرغم من أن الزحام يختلف عن الزحام، والنظام كذلك يختلف عن عدم النظام، والوجوه تختلف بالطبع عن الوجوه؛ فهنا ترى الوجوه معظمها صيني أو ماليزي أو هندي، مع وجوه أخرى كثيرة بيضاء ورؤوسها شقراء، لسائحين وتجار ومستثمرين تجدهم هنا وفي كل أنحاء سنغافورة، لكنها تتفق جميعها في أنها وجوه، لا يغمرها العرق الممزوج بالتراب، الذي كانت تمسحه المناديل المحلاوي قديما، ثم المناديل الورقية (الكلينكس) مؤخرا، على حسب مستوى الجبهة المعروقة، المادي طبعا.

لم تكن المحطة تبدو كبيرة، على الرغم من أنها كانت النقطة المركزية الأولى للتوجه إلى كل أنحاء سنغافورة، سواء بالأتوبيس أو بالمترو أو حتى بالدراجة، فلا يمكن أن تتخيل كمَّ الدراجات التي كانت تنتظر أصحابها في المحطة، حتى تحملهم إلى الأحياء المتاخمة للمحطة، أو إلى المنطقة الصناعية، كما يمكنك من هذه المحطة أن تسافر كذلك لخارج سنغافورة، عن طريق مطار شانجي «Shangi Airport»، الذي يمكنك أن تصل إليه بالمترو وبتذكرة واحدة قيمتها ثلاثة دولارات فقط، وهذا هو سحر النظام في سنغافورة.

لكن يبدو أن السحر المصري كان له نصيب كذلك في سنغافورة، وفي محطة بون لاي بالذات، فقد كانت مفاجأة لي بالفعل أن أطالع صورة رائعة لقناع توت عنخ آمون الذهبي، وتحتها لافتة ضخمة مكتوب عليها « Egypt Magic Festival»، كانت الصورة معلقة على مدخل المول التجاري الضخم الملاصق لمحطتي الأتوبيس والمترو، فقلت: يبدو أن الفراعنة لن يتركونا نضيع حتى لو كنا خارج الحدود.. وقررت أن أكون أحد المشجعين لأحفاد الفراعنة في الخارج، فلم يسعدني الحظ قبل ذلك بالسفر للخارج لتشجيع منتخب الفراعنة لكرة القدم، وأهتف بملء في: «جوهري.. جوهري».

وصلت أخيرا إلى حيث العرض السحري المصري، وكان العرض في ردهة المول الكبيرة، وقد تجمع حول المسرح مئات من المتفرجين، بعضهم يجلس على الكراسي وأكثرهم يقف حولها وفوق السلالم والبلكونات أيضا؛ فقد كانت الفرجة «بلاش»، وكنت أريد أن أخبر الجميع بأنني مصري كذلك وإن لم أكن ساحرا، فقد كان الساحر يقدم عرضا شائقا بالفعل ويحظى بإعجاب جميع المشاهدين، مع مساعدته التي كانت ترتدي ملابس ملكة فرعونية، أشبه ما تكون بالملكة «نفرتاري» جميلة الجميلات، ورأيت بأم عيني كيف رفعها الساحر لأعلى، بإشارة واحدة من يديه وهي تتوارى خلف ستارة، بالطبع يجب أن تكون هناك ستارة!! ثم مرر من حول جسدها طوقا بلاستيكيا وسط انبهار الجميع وانبهاري أنا شخصيا؛ لأن العرض كان على الطبيعة، وليس مسجلا

مثل عروض الساحر الأمريكي العالمي «ديفيد كوبر فيلد»، وأيقنت بأن مصر بهـا عماليق كذلك في الخِدَع، كما عماليق أمريكا في الخديعة، وتكفينا ستارة واحـدة لنختبئ خلفها لينبهر الجميع، ولكن كان علـيَّ الانـصراف مبكـرا قبـل نهايـة العرض، فالوقت كان محدودا جـدا؛ ولأنـني كنـت أعـرف كـذلك بـاقي فقـرات الساحر طبعا، كالنار التي ستتحول لحمام يطير، وربما يشق الملكة نفرتاري إلى نصفين وهي نائمة في التابوت، ثم تعود «صاغ سليم» وفي داهية التابوت.

تركـت المهرجـان الـسحري للـساحر المـصري الـذي أبهـر الجمـاهير السنغافورية والجماهير الأخرى التي قدمت لسنغافورة من كل أنحاء العالم، إلا أنني لم أتبين اسم الساحر؛ فمن الواضح أن لقب توت عنخ آمون قد استهواه، فلم يبلِّغهم باسمه الحقيقي، الذي لا يمت لأسلاف توت عنخ آمون بأية صلة، ولكن على كل حال شكَّل هـذا انطباعًـا جيـدًا لـديَّ في أول أيـامي في سـنغافورة، وأولى خطواتي في محطة مواصلاتها الرئيسية، التي لم يكـن ينقـصها بعـد تـوت عـنخ آمون إلا تمثال رمسيس والفسقية وكوبري اللمون وبعض محـلات عـصير قـصب ومحمصة لب وسوداني، حتى تتحول محطة «بون لاي» إلى العزيزة محطة بـون «باب الحديد».

(4) عملاق سنغافوري من أصل صيني

يبدو أن خيالاتي في محلات عصير القصب ومحـامص اللـب والـسوداني برمسيس قد تحولت لحقيقة بالفعل؛ فالدور الأرضي من المول الكبير ذي الستة أدوار، الذي يُواجه محطة الأتوبيس وكذلك محطة المـترو، كـان يمتلـئ بالفعـل بالكثير من المقاهي ومطاعم الوجبات السريعة، ومحلات بيع العـصائر الفـريش بكل ألوان الطيف، وأحسن من أحسن كوب «فخفخينة»، يمكـن أن تـشتريه مـن عصارة في شارع شبرا، بل تصلح ألوانها لتكون إعلانا محترما لشركات البويـة، التي صارت تملأ شاشات التليفزيون المصري في رمضان، أمـا عـن الأكـشاك الـتي تبيـع البـضائع الـصينية والهنديـة فحـدث ولا حـرج، فهـي تبيـع المقليـات والمقرمشات والمكسرات على كل شكل وكل لون، وبالتركيز على كلمة «لون» هذه؛ فقد كانت هذه هي أول مرة لي أرى فيها «فيـشار» مـن النـوع الأحمـر، أو فـول سوداني أخضر اللـون، أمـا معجـزة المعجـزات فكانـت المقرمـشات المقليـة بكـل النكهات البحرية، مثل الجمبري والكالاماري وفواكـه البحـر، وجميـع مـا لـذ وطاب من منتجات الفوسفور والذي منه، وعلى الرغم من أنـني لـست مـن هـواة البحريات، ولا أطيق حتى رائحتها، لكن كانت مسامير الجوع قـد بـدأت تـدق على أبواب وجدران معدتي الفارغة، إلا من إفطار كونتننتال في الصباح، لا يـسد

رمق فأر يعاني الفقر، فقلت أشتري أي شيء مقرمش لسد الجوع، ولكـن كانـت تنتظرني مفاجأة مفزعة!!

فقد توجهت لأحد الأكشاك، وكان البائع صيني الوجه والسحنة، ولكن بنيانه الجسمي والعضلي لم يكن صينيا علـى الإطـلاق، ويبـدو عملاقـا في وقوفـه داخل الكشك الصغير، الذي يبدو أن النجار الذي صنعه له قد انتظر دخوله أولا إلى داخله، ثم فصَّل خشب هيكل الكشك عليه بعـد ذلـك؛ فمـن المستحيل لهـذا المارد العملاق الخروج من الباب الصغير الذي رأيتـه علـى جانـب الكـشك، بـل وشطحت بخيالي بعيدا وتخيلت أنه ربما ينام فيه هكذا واقفا، أو يحملـه علـى كتفيه وهو بداخله، ثم يمشي به مثل «مـازنجر» حتـى يـصل لمنزلـه، ثـم يقـوم الجيران بمهمة تفكيك الكشك بعد ذلك، والجار الصيني للجـار الـصيني تمامـا مثل عندنا!!

كانت هيئة هذا الصيني غريبة عليَّ بالتأكيد، خـصوصا أننـا قـد اعتـدنا على رؤية الصينيين، بل وكل شعوب الشرق الأقصى، قصار القامة، ومن قطعيـة «بروس لي» و«جاكي شان»، يبـهرون العالم بفنون الكاراتيه والتايكوندو وجميـع هذه الأكروبات، أما بخصوص كمـال الأجـسام وتـضخمها بهـذا الـشكل، فهـذا الشيء حصري لنا نحن المصريين بالتأكيد، من فئة آكلي الفول والكشري وشوربة الكوارع بالخل والثوم، أما هؤلاء فهم أكلة السمك والسبيط والـسوشي والديـدان، وتمنيت أن يكون هذا الصيني استثناءً سنغافوريًّا، حتى لا نفقد أهم ميـزة لـدينا

كسكان للشرق الأوسط لصالح نمور الشرق الأقصى، التي تأكلنا لحما بمنتجاتها الرخيصة، ويمكنها الآن أن تمصمصنا عظما، لو تحول بعض من مواطنيها لمثل هذا العملاق!!

كانت جبهة الصيني العريضة، ووجهه الذي يملأ فتحة الكشك، قد دفعاني للمقارنة بينه وبين صورة «الكابوريا»، المرسومة على أحد أكياس القرمشات وراءه، فلما رآني أركز النظر فيها على الكيس وأبتسم، سارع بحمل الكيس إليَّ ويبدو أنه ظنني أريده، فحمدت الله أنه ظن بي كذلك، فأغلب الظن مع هذا العملاق هو إثم كبير جدا!! وأعطاني الكيس وقال إن ثمنه دولاران كاملان، فأخذته وأعطيته الدولارين بلا أدنى نقاش، على الرغم من أنني لم أحب يوما رائحة الكابوريا، ولا حتى رائحة أي مأكولات بحرية، اللهم إلا السمك البلطي النيلي أو البوري مزارع.

أخذت الكيس وقررت خوض التجربة، وأكلت تلك القراميش بطعم الكابوريا، التي دفعت في صورتها فقط دولارين قسريا، وأنا أتحسر على أكياس الكاراتيه والشيتوس في مصر، فئة الربع جنيه وبالجبنة الفرنسية والدنماركية، وما يستجد من جنسيات للجبنة، ولكن على كل حال كان طعم الكابوريا مقبولا نسبيا، مع معدتي التي ما زالت تكركر، وكأنها حوض سمك وقد امتلأ بأسماك متوحشة!!

(5) كوب من الشاي الإنجليزي الطائر

غريب أمر هؤلاء الإنجليز والله، لم يحتلوا بلدا إلا وتركوا فيه عادة إنجليزية أصيلة، لكن الأغرب أن تلك العادات الإنجليزية الأصيلة قد انتزعها الإنجليز أنفسهم، من شعوب أخرى دون استئذان، ليسوقوها للعالم كله بعد ذلك، دون أدنى اعتبار لحقوق الملكية الفكرية، أو حتى براءات الاختراع، التي اخترعها الإنجليز أيضا، ليكونوا أول من يعتدي عليها؛ فقد خرجت أول جملة لـ«... Made in» أو «صُنع في ...» من الجزر البريطانية، لتضرب الصناعة الألمانية الرديئة في ذلك الحين، وصارت خراف أستراليا المكتنزة تضحي بأصوافها، من أجل تدفئة الإنجليز بالمعاطف الصوف وارد مصانع يوركشاير، وتضحي حقول مصر بأقطانها من أجل كسوة جنود الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس، أما تلال سيلان والهند فتجود بأفضل أوراق الشاي، من أجل عيون جناب اللورد، الذي يحرص على تناول فنجان شاي الساعة الخامسة «5 O'clock Tea» ماركة ليبتون وبروك بوند، في تراس منزله بالريف الإنجليزي، مع قطعة من الكيك الإنجليزي «English Cake»، الذي هو ألماني الأصل والنشأة كذلك!!

إلى هنا وقررتُ أن أعيش حياة اللوردات، وإن كنت من لوردات آخر

زمن طبعا، بلا بدلة من الصوف الإنجليزي، بسديري له جيب صغير للساعة بكاتينة، وقبعة تميل على الجبهة، مع العصا الأبنوس التي تمشي مع الحذاء الأجلاسيه مارشا عسكري، وكأنني «شرلوك هولمز» في عز تألقه، ولكن كل هذا راح حتى من الإنجليز أنفسهم، وإن بقي كوب الشاي الإنجليزي الأحمر مع الكيك عادة أصيلة لن أتنازل أنا شخصيا عنها اليوم، خصوصا بعدما رأيت صالون الشاي الأنيق، الذي تنقلك ديكوراته إلى أبَّهة الماضي العريق، وتكاد تشعر وأنت تجلس فيه أن الملكة فيكتوريا ستنادي عليك، لتنعم عليك بلقب «سير»، فقلت أسير على بركة الله وأدخل المحل وأعيش اللحظة، أو ربما أعيش الدور، لا فرق.

كان المحل، ولا أقول الكافيه طبعا، هو أحد محلات المول الكبير في دوره الأرضي، وعلى الرغم مما يبدو عليه من طراز قديم في الخارج؛ حيث تزينه التماثيل الأبنوس الفالصو طبعا، وكذلك صورة كبيرة للتاج البريطاني وشعارات الإمبراطورية، لكن كان المحل في الداخل حديثا للغاية وعلى الطراز الأمريكي؛ فالكراسي عالية ودائرية تلتف حول «بار» عالٍ، على هيئة نصف دائرة، وتقف خلفه مقدمة الطلبات التي يبدو أنها فلبينية، التي على الرغم من وجودها لكنها لن تتعب نفسها وتمد يدها الفلبينية الصغيرة لتقدم لك الطلب الساخن، فقط عليها أن تحصل على النقود، ثم يأتي إليك الطلب طائرا، ولكن ليس على جناحين، إنما على سير يلف على كل الزبائن، وكل ما عليك هو أن

تسحب صينية الطلب من على السير، لتضعها أمامك على رف منخفض قليلا، والأهم أنه ثابت لا يتحرك، ولا خوف من ضياع طلبك عند زبون آخر عينه فارغة؛ فجميع الطلبات هناك واحدة، فنجان من الشاي وبجانبه قطعة كيك واحدة، والثمن خمسة دولارات كاملة، ولكن أين اللوردات والخدمة الفخمة والانحناءات؟ عفوا لا توجد هذه الأشياء بالداخل، فقط توجد صور على باب المحل.. فترحمت على أيام الإمبراطورية التي غربت عنها الشمس فعلا، ولم يتبق منها إلا الصور على أبواب الكافيهات.

ولكن كان الشاي جيدًا على كل حال، أما الكيك فلم يكن يفرق كثيرًا عن أي كيك رديء الصنع، ومن صنعه قد فتح عليه باب الفرن أكثر من مرة، فقلت: الحمد لله على الشاي، أما الكيك فهذه هي عواقب التشبه بالفرنجة.

(6) لست سنغافوريًّا ولا من العتبة

انتهيت من فنجان الشاي الإنجليزي المزيف، لكن شعرت ببعض النشاط، ويبدو أن هناك لمسة سنغافورية أصلية قد سقطت في الفنجان، فلم أكن أنا وحدي الذي أحس بالنشاط، ولكن كل رواد المول الذي كان أشبه بخلية نحل، وإن لم يسعدني الحظ بدخول خلية نحل قبل ذلك، تجنبا للسع من حضرات الآنسات النحلات طبعا، ولهذا انتهزتها فرصة للتجول قليلا في تلك الخلية البشرية، التي لا تهدأ فيها السلالم الكهربائية صعودا ونزولا، حاملة مرتادي المول بين المحلات وصالات العرض، التي تعج بالبضائع التي لا يتخيلها أي عقل، حتى لو كان هذا العقل من مرتادي أسواق العتبة ودرب البرابرة.

ولأن ثقافة المولات كانت جديدة عليَّ، فلم أكن من روادها في مصر، وكنت أسمع وأقرأ عنها فقط، بل وكانت قراءتي عنها في صفحات الحوادث مع الأسف؛ فقد كانت حادثة قتيل «أركاديا مول» في القاهرة وأخبارها لا تزال مُتداوَلة في الصحف والقتيل لم يبرد دمه بعد، لكن حرماني من مولات دبي التي لم أقضِ فيها إلا ليلة واحدة جعلني أتخذ القرار الشجاع وأدخل في أعماق مول «بون لاي» الكبير، وحتى لو كانت الحكاية فيها قتيل في القاهرة، لكن في سنغافورة المسألة كان فيها شيء مختلف تماما؛ فقد كانت هناك بضائع في كل

مكان وعلى الأرصفة كذلك، حتى بدأت أظن أننا في سوق العتبة الخضراء فعلا.

فبالإضافة للمحلات التي تصطف على الجانبين في الدور الأرضي، الذي يمتد على شكل حرف «L» كبير، ينتهـي بـسوبر ماركـت كـبير جـدا، كانـت توجد محلات صرافة وصيدليات ومطاعم صـغيرة وكـبيرة وكافيهـات وخلافـه، وكان هناك من يفرش بضاعته كذلك على الأرض، أو يقف خلف فاترينة صغيرة لبيع كروت التليفون وكروت البوستال الملونة، وفاترينات أخـرى تبيـع الأفـلام وحجارة البطاريات للكاميرات، باعة هنا وباعة هناك، هنود وصـينيون ووجـوه أخرى لم أتبينـها، ولكن كان المنظر العام في قمة النظام والنظافة؛ فعلى الأقـل لم يكن هناك من يأخذ ركنا ليضع فيه وابـور جـاز لعمـل الـشاي، ويـضع بجـواره جردلا ممتلئـا بميـاه لغـسيل الأكـواب، ثـم يرمـي «التفـل» علـى الأرض عامـدا متعمدا، كنوع من أنواع الدعاية لشايه الحبر، وردا علـى أولئـك الأوغـاد الـذين يتهمونه بغلي التفل أكثر من مرة للزبائن المساكين.

أخذت أول سلم صعد بي لأول محطـة في الطـابق الثـاني، الـذي يمتلـئ بمحلات تبيع الأجهزة الصوتية وأجهزة العرض التليفزيوني وحتى الـسينمائي ولوازمها من الأسطوانات المدمجة لمطربين ومطربات مـن كـل اللغـات والبلـدان، ولك أن تجرب جودة الصوت عن طريق سماعات مخصصة لذلك، أمـا أسـطوانات الفيديو فلها محلات أخرى، تجد فيهـا كـل الأفـلام الأمريكيـة والهنديـة ومـا يستجد من إنتاج سينمائي عالمي، وعلى الرغم من أن كل هذه الأسطوانات أصـلية

وارد بلادها، لكنك تجد في بعض الأركان أحد الصينيين وقد فرش فرشته ليبيع أسطوانات منسوخة، وبدولار واحد يا بلاش وعلى عينك يا تاجر، ولا يبدو عليه أي استعداد لحمل فرشته والجري بها عند ظهور أي تجريده من شرطة المرافق أو المصنفات الفنية، ولا أدري إن كانت توجد في سنغافورة شرطة لحماية الآداب أم لا، لكن الواضح أن مقص الرقيب قد لعب دورا أخلاقيا، وقص المشاهد «المش ولا بد يعني» من الأسطوانات الأصلية، وقد قرأت بنفسي على أسطوانة أصلية للفيلم الشهير «تايتانيك» أن مشاهد الفيلم في الأسطوانة متوافقة تماما مع جميع القوانين المعمول بها في ماليزيا وسنغافورة؛ فهنا في سنغافورة توجد مراعاة للأخلاق العامة على الأقل في الطريق العام، ولا أدري هل يمتد ذلك للفنادق والمنتجعات والنوادي الليلية أم لا، وإن لم أرَ حتى الآن أي مكان يبيع الخمور أو يعرض منتجات مخلة علنا، وللناس أن يفعلوا دون ذلك ما يريدون داخل بيوتهم، وإن كان المواطنون هنا مشغولين معظم الوقت بالعمل، تماما كما أن المواطنين غير مشغولين بأي شيء عندنا!!

تابعت إلى الطابق الثالث؛ حيث محلات الملابس، وكانت للنساء على كل لون وطراز، أما محلات ملابس الرجال فتبدو كالعادة فيما بينها على استحياء، ولم يكن التصنيف على حسب الجنس فقط، ولكن على حسب الثقافة كذلك؛ فعادات الشعوب تبدو واضحة هنا، فمن الساري الهندي الفضفاض الذي يكشف البطن بمنتهى الحياء، إلى الجينز الضيق والبادي «استوماك» الأمريكي، الذي يكشف

كذلك البطن بل والجسم كله بمنتهى قلة الحياء، إلى الملابس الفرنسية والإيطالية المصنوعة من أقمشة الساتان والدانتيلا، الخارجية منها ولا مؤاخذة الداخلية، التي لا تخفي شيئا إلا الحياء نفسه، والحقيقة أن الجولة كانت ممتعة، خصوصا أن الفرجة بلاش، على الملابس وعلى من يشتريها طبعا!!

حتى وصلت لقسم الحقائب والأحذية، التي ضحت حيوانات كثيرة بأعمارها، قبل الأوان، لتمنح جلودها وفراءها وعظامها من أجل أن تتزين نساء بني البشر، وبلا أدنى دمعة واحدة تزرفها عيون هؤلاء الجميلات على روح أي تمساح أو ثعبان أو ثور راح شهيدا للأناقة، هذا غير الثعالب والذئاب والدببة وحتى الأفيال، وكم أنتم مُضحون يا أيتها الحيوانات المفترسة المسكينة، من أجل سعادة النواعم اللاتي يفترسن جيوب الرجال بدموع الفرح بعد المسكنة!!

وكيف تبكي العيون التي تمتلئ بتلال من الماسكارا والريميل؟! وكيف تحتمل الخدود تلك الدمعات وهي تكتسي بطبقات متلتلة من البودرة وكريم الأساس، أو تتوقف عن الابتسام تلك الشفاه، التي تخاف على الروج الفاتح لما قبل الظهر، والغامق عندما يأتي المساء؛ حيث تفوح نسمات البرفانات الفرنسية التي تسبق صاحبتها، مع دقات نحاسة الحذاء التي تُنبئ بمقدم سمو الأميرة، التي حملت نصف بضائع المول واضطرت لأن تترك النصف الثاني على عينها، لا لشيء إلا لأن هذه البضائع لم تعجبها؟

أما سمو الفقير إلى الله، الذي هو أنا، فما زال يشاور عقله ليشتري

محفظة جلد أصلية، لكن عندما رأيت الأسعار التي لا تقل عن ثلاثين دولارا للواحدة، تحسرت على ذلك المسكين بائع المَحافظ في خان الخليلي، الذي أهلكتُه من كثرة الفصال، ليخفض السعر من خمسة عشر جنيها لعشرة جنيهات فقط، ولم أشترِ منه في نهاية الأمر.

تركت هذا الطابق النسائي بامتياز، وأنا أحمد الله على خروجي منه وعقلي لا يزال سليما، فكم هو صعب أن تنتزع نفسك انتزاعا من بين كل تلك العيون والشفاه والقدود والنهود، وصعدت لطابق آخر مشجع جدًّا ورياضي، فهنا تجد كل أنواع الملابس والأجهزة الرياضية من كل الماركات، ولكن كل هذا كوم وقسم الأحذية الرياضية كوم آخر؛ فلكل رياضة حذاء مختلف: أحذية لكرة القدم وأخرى للتنس والجولف، ورياضة المشي لها أحذية، والجري بالطبع له أحذية مختلفة، وأحذية للجمباز والباتيناج والتزحلق على الجليد، ولا أدري هل هناك أحذية تصلح للف طوال النهار على كعوب الرجلين دون أن تشعر بتلك «الفأفأة» و«الكالو» الذي بدأ يداهمني في قدميَّ، حتى تذكرت أفاعيل أحذية «باتا» الكاوتش، التي كنا نُجبَر على ارتدائها في حصص الألعاب بالأمر أيام التلمذة، ويبدو أن «باتا» تأتي على سيرة الكالو، ويا ليتني تذكرت عشرة دولارات سنغافورية وليست أمريكانية، فقد كانت محلات باتا تبدو أمامي رأي العين.

كثيرا ما سمعت عن شركة باتا الإيطالية، وأنها شركة محترمة ولها اسمها في عالم الأحذية، ولكن ما الذي جرى لها في مصر؟ لا أدري، فكم دمرنا

ماركات عالمية شهيرة عندما مصَّرناها، وعلى رأسها شركة فيات الإيطالية للسيارات، التي أخرجنا منها السيارة 128 ثم أتبعناها بالموديل 127، التي ما إن فُتح استيراد السيارات حتى توقف الناس تماما عن شراء سياراتنا الوطنية، التي برطعت في ظل حماية الحواجز الجمركية، فافترت على خلق الله الغلابة ولم تطور نفسها، فانهارت أمام منافساتها الكورية ثم الصينية، ولم تعد تصلح حتى كحذاء يباع في معارض باتا التي لم يعد يزورها أحد، إلا في بلاد بره طبعا؛ فقد كانت نوعية الأحذية في معرض باتا في سنغافورة تماما مثل نوعية البشر في سنغافورة، أمثلة يُحتذى بها في الجودة والنظام والنظافة.

لقد شعرت بالتعب، بالفعل، من هذا المول الكبير جدا، الذي يبدو أن ليس له آخر، لكني وصلت، والحمد لله، للطابق الأخير، فتنفست الصعداء أخيرا، فلم يكن به أي محلات، بل ملاهٍ، نعم ملاهٍ للأطفال وكذلك مطاعم، ثم مجمع سينمات مكون من أربع صالات عرض كبيرة، واحدة تعرض أفلاما باللغة الإنجليزية، وأخرى بالصينية، والثالثة بالهندية، أما الرابعة فبلغة الملايو، فقلت: لقد حان وقت الرحيل عن هذه المتاهة التي أوقعت نفسي فيها، والتي لا تدري وأنت فيها إن كنت في سنغافورة الأصلية أم في سوق من أسواق العتبة، ثم تنتهي الزيارة بـ«كوكي بارك»، ولكن على كل حال، كانت هناك محطة أتوبيس ومترو، وربما توجد كذلك حديقة الأزبكية.

(7) مترو سنغافورة..
وما أدراك ما مترو سنغافورة!!

كان عليَّ أن أستقل المترو لمحطة «Bugis»؛ حيث يوجد أكبر مول متخصص في بيع الأجهزة الإلكترونية والكمبيوتر ومستلزماتها، والمسمى «Simlim»، والحقيقة أن تسميات الأماكن في هذا البلد قد جعلتني أتوقف عن عادتي الأثيرة في البحث عن معاني الأسماء وأصولها اللغوية.

فقد اتضح لي أن تسميات الشوارع والمناطق في سنغافورة هي خليط غير متجانس من اللغات الإنجليزية والصينية والهندية والملايو، وإن كانوا يستخدمون الإنجليزية كلغة رسمية لأهل البلد، الذين يتضح أن معظمهم ما زال يتمسك بأصوله الثقافية، لكن الاقتصاد قد صهر الجميع في بوتقة إنجليزية واحدة، وهذا ما بدا لي عندما قرأت أسماء محطات المترو المكتوبة على شاشة حجز التذاكر، والمكتوب عليها كذلك مواقع وأسماء المحطات بالتفصيل بحروف إنجليزية، وإن كنتَ لن تفهم معظم معاني تلك الأسماء، لكن كل ما عليك هو أن تضغط على اسم المحطة التي تريد الذهاب إليها، حتى تظهر لك على الشاشة قيمة التذكرة المطلوبة لها، فتقوم جنابك بوضع النقود، معدنية كانت أم ورقية، في فتحة مخصصة لذلك، فتخرج لك التذكرة التي تشبه كارت المحمول، مع

باقي النقود ومن دون «حمرقة».

أخذتُ تذكرتي بمنتهى السهولة؛ فقد كانت هناك أكثر من أربع شاشات لبيع التذاكر، دون مناهدة من بائع يرفض منك عملة قديمة أو راكب سمج يريد الدخول من جانب الطابور الطويل المنتظر، بعد أن يستعبط الإخوة البلهاء الذين سمحوا له بذلك، والذين إذا اعترض أحد منهم عليه سيكون الرد المحفوظ من جنابه: «يعني هي جت عليَّ أنا؟»، ولا أدري إن كان هذا يحدث في سنغافورة أم لا، فعلى الأقل أنا لم يستعبطني أحد حتى الآن.

حملت التذكرة البلاستيكية الملونة، التي كنت أتمنى الاحتفاظ بها للذكرى، فلم يكن يوجد على ظهرها خط أسود، مثل تذاكر مترو أنفاق القاهرة الصفراء الورقية، وكأننا في حداد مستمر على روح الفقيد، شيء ما فقدناه هادئ ومنظم وجميل، والأهم أنه غير مزدحم، نفتقده كثيرًا في حياتنا القاهرية والسكندرية وما يستجد من مدن، تتمدد وتتضخم كل يوم بلا رابط! !

اتجهت مباشرة نحو بوابة الدخول، وأنا أحمل علبة مياه غازية من النوع «الكانز»، كنت قد اشتريتها بدولار واحد من ثلاجة بالعملة المعدنية، كانت موجودة بجوار ماكينة التذاكر، وأخذت كذلك بعض المطبوعات الملونة «Brochures» عن المترو ومحطاته وتجهيزاته داخل العربات وخارجها، وانهمكت في تصفحها حتى نبهني موظف الأمن «المدني»، فيبدو أن سنغافورة لم تفتتح معاهد لأمناء الشرطة حتى الآن! ! لكن ما علينا، المهم أن الرجل قد

نبهني – بمنتهى الاحترام للسائحين أمثالي – بأن عليَّ أن أشرب «الكـانز» أولا قبل الدخول، حتى لا أتعرض للغرامـة في الـداخل، فقـد كـان تنـاول المـأكولات والمشروبات ممنوعا على أرصفة المترو، فشكرت الرجل جدًّا على تحـذيري قبـل الدخول، ولأنه لم يتربص بي كعادة رجال الأمن، حتى أقع في المحظور وتقع في الأمور أمور، فيُحصِّل مني الغرامة وهو يرسم على جبهتـه علامـة النـصر علـى خلـق الله الغلابـة الـذين لم يـروا أي علامـة تحـذير، خـصوصا أن الغرامـات في سنغافورة «تقطم» وسط أي غريب، حتى لو ادعى الجهل بالقوانين.

وضعت التذكرة في الماكينة التي فتحت لي بابها بكل ترحاب، ثم دخلت سريعًا حتى لا تغلق عليَّ، متوقعا طبعا ألا يدخل من خلفي أحد الثقلاء مـن دون تذكرة؛ فهذه الحركات مصرية بامتياز، ولا أعتقد أن عبقريتها قد وصلت لعقول مواطني جنوب شرقي آسيا، التي تركز ذكاءها في برمجة الكمبيـوتر، ولـيس في «البرمجة» على خلق الله الغلابة في محطات المترو.

القطار كان ينتظر الركاب، فقد كانت هذه هي المحطة زيرو، التي يبدأ معها الخط الطويل جدا، والذي يغطـي كـل دولـة سـنغافورة، الـتي تتكـون مـن مدينة واحدة فقط، فيبدأ من محطة «Boon lay» حتى ينتهي بمحطة المطـار «Shangi airport»، ولا يختلـف مـترو سـنغافورة عـن مـترو القـاهرة الكبرى، لا سمح الله، في أي شيء، فكل منهما يسير فوق الأرض وتحت الأرض ويطير فوق الكباري كذلك، كما أنـه يـصل بـأمر الله لكـل المحطـات في موعـده،

خصوصا في خطة الثاني، من محطة المؤسسة بشبرا وحتى محطة الجيزة، مرورا بمحطة رمسيس، وهنا كذلك في سنغافورة، مرورا بمحطة «بوجيس»، ولا تبدو الاختلافات إلا في أشياء بسيطة جدا، ونستطيع أن نقول إنها أشياء لا تُذكر!!

فبمجرد دخول القطار على الرصيف، وهو خالٍ تماما من الركاب، حتى بدأ الركاب في الدخول للعربات، لكن ليس للجلوس ولكن للوقوف، فقد تركوا معظم المقاعد خالية لكبار السن والمرضى، تماما كما يحدث عندنا في شبرا؛ حيث يندفع الركاب للوقوف كذلك، لكن بعد أن فقدوا الأمل في العثور على كرسي فاضي، فقد تم شغل كل كراسي العربة في لمح البصر، ليتجه كبار السن أنفسهم للوقوف، وهذا ما دفعني للوقوف مرة أخرى وأنا أشعر بالخجل بعض الشيء، على الرغم من أن أحدا لم ينوه عليَّ بذلك، ولم أكن أجلس على تلك المقاعد المخصصة فعلا لكبار السن والمرضى، في أول وآخر العربة، لكنني رأيت معظم الشباب من سني وأكبر واقفين، وأكثر المقاعد خالية حتى من كبار السن!! كما أن العربات نفسها مجهزة كليا للوقوف وليس للجلوس.

(8) إنهم ينشرون الغسيل ولكن بطريقة غريبة جدًّا

انطلق المترو بعد أن أطلق صافرته، كعادة كل القطارات في العالم، وبعد أن أُغلقت كل أبوابه بمنتهى السهولة، دون أن يعانده طرف جونلة حريمي أو كم قميص رجالي، ليظل معلقا خارج الباب للمحطة التالية، والحقيقة أن اتساع الأثواب في سنغافورة لا يشجع على ذلك؛ فمعظم الركاب كانوا من فئة الشباب؛ حيث السراويل الجينز والقمصان والبلوزات الضيقة، التي يبدو أنها خُلقت خصيصا لتلك الأجسام الآسيوية الرشيقة، فلا يبدو أن ضيقها يفسر معالم الأجسام، بقدر ما يساعدها على التحرك بسهولة ونظام وسط الزحام، لا كما يبدو عندنا حيث تضيق الملابس وتستغيث بما تحتويها من قدود ونهود، لا تعترف أبدا إلا بالدرجة الأقل من المقاس، أما الحد الأقصى فهو دائما للغير، وأحيانا خارج عربات المترو.

لكن على كل حال، كانت كل أجزاء أبدان الركاب تسكن داخل عربات المترو، التي لم تكن تلمع بنوافذها وكراسيها وأرضياتها فقط، ولكن بوجوه البشر الذين يقفون فيها كذلك؛ فقد كانت كلها وجوها شابة تنبض بالأمل في المستقبل، ويبدو كذلك أنهم جميعًا كانوا من ذلك النوع من البشر، الذي يأخذ

حماما ويضع البرفان في كل صباح؛ فقد كانت عربة المترو تفوح بالعطر على غير ما اعتدت عليه في أي مترو مزدحم آخر.

لم تكن المناظر داخل المترو أفضل منها خارجه، لكن انبهاري بما هو داخله قد شغلني عمَّا كان خارجه، فكما يبدأ مترو القاهرة علويا من محطة المؤسسة بشبرا، يبدأ كذلك مترو سنغافورة، لكن المشاهد بالطبع غير المشاهد، وإن كانت كلها لعمارات سكنية، لكن السكان غير السكان والمكان غير المكان، وعلى الرغم من أن معظم نوافذ العمارات كانت تلمع تحت الشمس، التي يعكس أشعتها علينا داخل المترو زجاجها «الفيميه»، لكن كانت هناك بلكونات ومنشور عليها غسيل كذلك!!

كان المشهد مختلفا حتى لأحبال الغسيل.. نعم أحبال الغسيل!! فلم تكن هناك أحبال أساسا كتلك التي نربطها في حديد البلكونات عندنا، لكنها كانت عصيًّا متعامدة على أسوار البلكونات؛ حيث تقوم ست البيت السنغافورية، وربما رجل البيت في الليل، لا أدري، بنشر الملابس عليها وهي موازية للبلكونة، ثم تقوم بتعديل وضعها عموديا مرة أخرى، عن طريق مفصلة مصممة لذلك، ويبدو أن هذا يتم لكي لا تتساقط قطرات ماء الغسيل على بلكونات الجيران، كما أن البلكونة تأخذ أكبر قدر من الملابس كذلك، وعمار يا بلكونات مصر، التي تقع فيها أكثر مشاجرات في العالم، خصوصا عندما لا توجد «تندة» لدى الجيران.

(9) في كل مكان بحيرات..

بحيرات.. بحيرات

«الماء والخضرة والوجه الحسن».. هكذا يقولون عن الطبيعة الساحرة، التي هي هبة من الله يهبها لبعض البلدان؛ فالبعض يعتني بها ويزيدها جمالا على جمال، والبعض لا يشعر بها بل ويدمرها تدميرا متعمدا، أما القليل من البلدان فيصنع هذه الطبيعة حتى لو لم تكن موجودة عندهم من الأساس، وهذا ما كان يبدو من خارج نوافذ المترو؛ حيث مناظر البحيرات الصناعية الموزعة في لوحة بديعة، ومن حولها الخضرة والأشجار المنتشرة في كل مكان.

ولأنه لم يكن هناك اختلاف طبعا، ما بين مناظر أسطح عمارات شبرا المظلات، التي يمرق من بينها مترو القاهرة في مرحلته العلوية، وبين أبراج سنغافورة ببلكوناتها وغسيلها المنشور، لكن مترو القاهرة ما يفتأ أن يترك محطة كلية الزراعة، وحدائق ومتنزهات سرايا محمد علي بشبرا، حتى يدس أنفه في أعماق الأرض، حماية لأعين الركاب من واجهات عمارات الخلفاوي الكالحة وظهورها الناشعة بمياه مواسير الصرف غير الصحي، أما الهواء فلا يسلم من أدخنة شفاطات المطابخ المشبعة بروائح البطاطس المقلية والباذنجان الرومي والبلدي أبو دقة.

لكن مترو سنغافورة لم يتعجل بنا في الاختباء تحت الأرض، فما هو فوق الأرض كان يدعو العيون للنظر، والعقل كذلك للتفكير، في أولئك البشر

الذين حوَّلوا طبيعتهم الاستوائية القاسية، التي لا تكف عن الأمطار طوال أيام السنة.. أما عن الرطوبة التي في الجو فحدث ولا حرج، بالإضافة لمحدودية الأراضي في جزيرة صغيرة، يسكنها أكثر من خمسة ملايين نسمة، لكن هذا كله لا يهم، فيجب أن تكون هناك متنزهات وكذلك بحيرات، تحوم حولها الطيور وتسقسق على فروع أشجارها العصافير، وكم كنا سنخسر كثيرًا لو كان المترو يسير تحت الأرض، ويوجد من فوقها كل هذا الجمال البديع.

ولا أدري إن كان المهندس الذي صمم مسار المترو قد قصد فعلا أن يمر المترو في نصف دائرة كبيرة، أشبه بدورانات كورنيش الإسكندرية من ستانلي وحتى المنتزه، حتى يحيط القطار ومن فيه من الركاب برؤية معظم منطقة البحيرات والحدائق، في بانوراما رائعة ثلاثية الأبعاد، وكأننا في إحدى غابات فيلم «حديقة الديناصورات»، ولكن بلا ديناصورات طبعا ولا حتى نظارة.

بدأت المحطات تتوالى علينا؛ فمن «Boon Lay» إلى « Buena Vista» إلى «China Town»، والإذاعة الداخلية للمترو تعلنها بصوت حريري ناعم، تماما كما كان يحدث عندنا في مترو القاهرة، والصوت الذي كان يعلن أن المحطة المقبلة «مسرة»، حتى تنزل على قلوبنا المسرة، قبل الزحام الذي في محطة رمسيس، على الرغم من أن الصوت كان رجاليا خشنا، حتى توقف الإعلان عن المحطات نهائيا، وكأن الركاب قد حفظوها وتخرجوا في مدرسة المترو، ولا داعي للتكرار؛ لأن ركاب مترو بلدنا دائما شطار، حتى وصلنا في مترو سنغافورة إلى القلب النابض.

(10) الوصول إلى القلب النابض

وصل المترو إلى محطة «Bugis»، التي يمكن أن نسميها قلب سنغافورة النابض، أو وسط البلد، كما نسمي المحطات عندنا، ويمكننا أن نسميها محطة «رمسيس» السنغافورية، وكل مدينة ولها رمسيسها المزدحم بالمواصلات والأسواق والمراكز التجارية؛ ففي بوجيس يوجد أيضًا المركز التجاري الذي كنت أقصده، فكان عليَّ أن أخرج من محطة المترو وأصعد لأعلى؛ فالمحطة تقع تحت الأرض، فسرت في طريق طويل حتى سلم الخروج، وكانت جوانب الطريق تزخر بلوحات الإعلانات، التي كانت أشبه بلوحات فنية تبهر العين، لكني تعجبت حقا فلم يكن هناك إعلان واحد يعبر عن شكر الشعب السنغافوري العظيم لقيادته الحكيمة الأعظم بالتأكيد؛ لأنها أنشأت مترو الأنفاق كهدية من الحاكم الكريم، ذي الأيادي البيضاء الفرطة على شعبه المحظوظ به، والذي لم يألُ جهدا في خدمته، حتى لو كانت هذه الخدمات من جيوب المواطنين المساكين المزنوقين في مواصلات وأتوبيسات سنغافورة طبعا!!

ومحطة بوجيس هي أكبر مثال على روعة الأداء المنظم في سنغافورة؛ ففي بلد مزدحم بالمواطنين وأكثر ازدحاما بالزوار الأجانب، قد تصعب السيطرة على المرور فيه، خصوصا لو كانت هناك أسواق وبضائع خارجة وبضائع داخلة،

وعلى الرغم من أن ميدان المحطة لم يكن بالاتساع المناسب، كما يمكن أن ترى في ميدان رمسيس أو في ميدان التحرير، لكن مع هذا الضيق لا توجد أي اختناقات مرورية لا سمح الله، والإشارات تلمع في التقاطعات بألوانها الخضراء والصفراء والحمراء، مخاطبة زبائنها من السيارات وكذلك من المشاة بالمرور والتوقف حسب الطلب، لكن الأهم هناك هو الأرصفة المتسعة جدا، والمخصصة للمشاة فقط، ولم ينهبها حتى الآن أي كشك سجائر أو عربة لبيع الكبدة والسجق، تتخذ من الرصيف مكانا لفرش الكراسي والترابيزات، ومن عمود النور مصدرا للكهرباء، ومن الشجر في الجنينة المجاورة ضليلة، أما عن الماء فقد سقى رب «المصلحة» زبائنه شرابا طهورا، من أقرب نافورة في الجنينة!!

أما الأرصفة فكانت مجهزة بمنازل مائلة منزلقة على مسافات محسوبة، من أجل الكراسي المتحركة للإخوة ربنا يعفو عنهم (المعاقين)، أو كما أصبحنا نسميهم في بلدنا (ذوي الاحتياجات الخاصة)، على الرغم من أنهم لم يحصلوا حتى الآن على احتياجاتهم العامة!! ولن تحتاج وأنت تسير على الرصيف في سنغافورة أن تسأل أحدا عن عنوان أو اسم شارع؛ فعلى رأس رصيف كل شارع رئيسي أو محطة أتوبيس أو تقاطع سوف تجد خريطة واضحة جدا، تدلك على الأماكن والشوارع بأسمائها، لتعرف أقصر الطرق التي تؤدي بك إليها، وهي كذلك التي دلتني على مكان المركز التجاري الإلكتروني الذي كنت أقصده.

(11) هنا تجد المستقبل فعلاً

وصلت أخـيرا إلى المبنــى التجـاري الكـبير، أو المـول المتخـصص فقـط في الإلكترونيات والكمبيوتر، المسمى «Sim Lim Square» الـذي تم إنـشاؤه عام 1987، لكنه كما يقولون يُطور نفسه في كل يوم، وربما في كـل سـاعة كلمـا ظهرت تكنولوجيا جديدة، فبمجرد أن تدخل إليه ستفاجَأ بأنك قد فتحـت بابـا للمستقبل ودخلت فيه؛ ففي هذا المكان يتوافر كل جهاز جديد يخطر على بالك، وستكتشف فيه كذلك كل ما لا يخطر على بالك، من أجهزة كمبيوتر وكـاميرات وتليفونات محمولة وأجهزة إنذار وتحكـم ومراقبـة، بالإضـافة إلى الأسـطوانات المدمجة وألعاب الفيديو جيم، التي تملأ المكان من سطح الأرض، وحتـى ارتفـاع ستة أدوار كاملة، تربطها السلالم والأسانسيرات والبالونات كذلك، ولكن للزينة فقط طبعا، ولما سألت عن أجهزة التليفزيون والريسيفرات والدش، قالوا لي إنهم قد أنشأوا لها مولا كاملا مجاورا لهذا المول سموه «Sim Lim 2»، ليتخصص فقط في بيع أجهزة التليفزيون والفيديو سي دي والدي في دي وأجهزة الاسـتقبال والإضاءة والصوت.

مر الوقت سريعًا جدا، ما بين تجولي مـن محـل إلى محـل داخـل ذلـك المول، أو ما يمكن أن نطلق عليه بوابة المستقبل، ولو كان المرحوم «أينـشتين» قـد

امتد به العمر لأثبت معظم نظرياته الزمنية بالدليل العملي، فليس عليـك إلا أن تنظر حولـك، لا لتقـوم بتنظـيم الأسـرة طبعـا، فهـذا فقـط عنـدنا نحـن الـدول «التائهـة»، عفوا النامية، فقط تنظر حولك لتكتشف أن كل الأشياء تجري وترمح من حولك فعلا بسرعة الضوء، وعلى رأس هذه الأشياء طبعا النقود التي وضعتها في محفظتك، إذا استسلمت لكل تلك الإغراءات بالشراء، والتي تجذبك من عقلك قبل ثيابك، حتى بـدأت أتخيـل بـأن الخواجـة «بيـل جيـتس» صـاحب شـركة «مايكروسوفت» نفسه لن تستطيع محفظته المكتظة بالدولارات أن تسعفه لتحقيق كل أحلامه، لكي يقوم بشراء نـصف أصـناف هـذه الأجهـزة ذات التكنولوجيـا الحديثة جدا، ذات الأسعار المستفزة جدًّا حتى للمليارديرات من أمثاله، ناهيك عن استفزازها بالطبع للمليميرات من أمثالي، والذي انتهت زيارته لهـذا المـول الكبير جدا بشراء كارت تليفـون بعـشرة دولارات، حتـى أشـعر ولـو في مكالمـة دولية لمدة عشر دقـائق أنـني اسـتخدمت شيئا مـن هـذه التكنولوجيـا بـدلا مـن الخروج هكذا بعقل ورا ورجل قدام، بعد أن اكتفيت بالفرجة البلاش.

وبعد خروجي من تلك الفجوة الزمنية، عفوا المول، وقد بدا أنني تركت المستقبل فعلا بداخله، وكنت كمن كان يركب آلة الزمـان، في قـصة «إتـش جـي ويلز» الشهيرة، إلا أنني كنت سعيدا حقا بهذا الخـروج الآمـن مـن هـذا المكـان الزاخر بكل هذه البضائع المستفزة، التي تـداعب خيـال كـل طـامح إلى الإمـساك بها، وهي سراب صنعوه لنا حتى نجري خلفه، وما نحن ببالغيه ولو حرصـنا،

ما دمنا نشتريه فقط ولا نصنعه، خصوصا عندما نُصاب بالإحباط عندما نخرج منه بمجرد كارت تليفون، نكلم به الماضي البعيد في بلادنا، لنؤكد لسكانها المساكين أننا نكلمهم من المستقبل، وكما يقول المثل «على قد لحافك مد رجليك»، ويبدو أنه للدخول للمستقبل كان يجب عليَّ أن أشتري لحافا طويلا، أو أن أكتفي بالحياة مقرفصا هكذا والأمر لله!!

(12) البحث عن مسجد وسط معابد بوذا

العثور على مسجد في سنغافورة ليس بالمهمة الصعبة على الإطلاق؛ ففي بلد يقطن فيه أكثر من مليون مسلم، من السهل جدًّا أن تجد مسجدًا، وكنت قد علمت بوجود مساجد كبيرة، على رأسها مسجد أحمد إبراهيم ومسجد سلطان، إلا أنه لم يسعفني الحظ للصلاة في أي منهما، فكنت وما زلت أصر على عادتي السيئة في التجول في الشوارع بلا مرشد يهديني؛ حيث لا أجد أي متعة في الوصول لأي مكان برفقة أحد قد عرفه قبلي، ليقودني وأنا أمشي خلفه كما الأبله، لكن الغريب أعمى حتى لو أقنع نفسه بأنه مفتّح، ولهذا وفي غمرة بحثي عن مسجد لأصلي فيه الظهر، قبل موعد العصر الذي أوشك على الدخول، إذا بي أجد نفسي قد وصلت فعلا، ولكن لمعبد من معابد بوذا!!

ولأنها كانت المرة الأولى في حياتي، التي أشاهد فيها على الطبيعة ذلك النوع من المعابد، التي يعبدون فيها أشخاصا من دون الله – عز وجل – فقد قررت أن أنتهي من صلاتي لله في أي مسجد قريب، والذي رأيته في آخر الشارع، لأعود مرة أخرى لأتفرغ لمشاهدة هذا البوذا ومعبده، الذي تجمع حوله رجال ونساء وأطفال، وكانوا يتصرفون بصورة غريبة حقا.

اقتربت رويدًا رويدًا من المعبد الكبير ذي القباب الذهبية والرايات

الحمراء الحريرية، الذي رأيت تمثال بوذا يقف على بابه وهو يفتح فمه ويضحك، لكن على ماذا؟ لا أدري! المهم أنه لم يكن يضحك للعبد لله على كل حال، فلست من أتباعه ولله الحمد، هؤلاء الأتباع الذين كانوا يتجمعون حول التمثال، ويتمسحون فيه ويشعلون له الشموع، ثم يضعونها أمام التمثال في إناء كبير من الفخار، مملوء بكمية كبيرة من الرمل أبيض اللون، وإن كنت لا أدري هل هذا الرمل الأبيض من طقوس البوذيين، أم أنه مجرد رمل والسلام، ولكن كان يبدو أنه لغرس الشمع الذي يشعله المريدون حول التمثال، وكان الشمع أكثر بمراحل من «دست» الشمع التي يشعلها زائرو مقام السيد البدوي، أو أي مقام أو ضريح من تلك المنتشرة في طول مصر وعرضها، لكن الأغرب كان في المنظر الذي رأيته من حركات جميع الواقفين، الذين كانوا يحرصون على وضع أصابعهم وربما أياديهم كاملة في فم بوذا المفتوح عن آخره، والذي ظل يضحك ويضحك، وأنا أضحك وأضحك كذلك.

ولا أدري إن كان هذا طقسا بوذيا حقا أم أن هؤلاء يظنون أن في ريق تمثال بوذا نوعا من البركة، وإن كنت لا أفرق بين هذه التصرفات وتعلق البعض لدينا بأبواب وحديد المقامات والأضرحة وإشعالهم للشموع على شبابيكها، وسبحان الله الذي جعل التقرب إليه بمجرد دعاء بصوت غير مسموع بجوف الليل، فيسمعه ويستجيب له من فوق سبع سماوات، بلا شموع ولا قباب ذهبية أو خضراء أو أضرحة تظللها أشجار التوت.

وعلى الرغم من أن البوذية هي الأكثر انتشارا في سنغافورة، ويدين بها أكثر من ثلث عدد السكان، نظرا لانحدار معظمهم من أصول صينية، فإن الديانات السماوية لها كثير من الأتباع في ذلك البلد، فتأتي المسيحية في المرتبة الثانية، ثم الإسلام في المرتبة الثالثة؛ فسنغافورة في الأصل جزء من ماليزيا، وفصلها الاستعمار البريطاني، ويوجد كذلك عدد قليل من اليهود، أما الهندوس فكثيرون لكثرة الهنود في سنغافورة، كما أنهم يعترفون كذلك بالبهائية كديانة من ديانات الدولة، وتوجد ديانة أخرى تسمى الطاوية، وهي أقرب للبوذية وإن كانت مختلفة بعض الشيء.

وتكثر التماثيل المعبودة في الشوارع وأمام المحلات، وبعض تلك التماثيل برأس واحد ولكن بثلاثة أوجه، حتى ينظر لكل من يحيط به عدا الخلف طبعا، وهل يستطيع أحد أن يقف خلف الإله إلا الحائط؟! والحقيقة أنني لم أميز، ربما حتى الآن، الفرق بين هذه التماثيل، وإن كنت أعرف منها بوذا فقط لأنه يضحك طبعا، لكن يبدو أن هناك تماثيل أخرى لديانات أخرى كثيرة؛ فدول شرق آسيا تعج بتلك الآلهة التي يعبدونها من دون الله – عز وجل – ولله في خلقه شئون!!

وعلى الرغم من وجود كل هذه الديانات، السماوية منها وغير السماوية، فإن أكثر من خُمس سكان سنغافورة لا دينيون، أي ملحدون لا يعتقدون في أي دين سماوي، أو حتى من وضع البشر على الأرض، ومن المفارقات

في سنغافورة أنهم قد أنشأوا معبدا مجمعا لمجموعة من الديانات، كدليل على التسامح الديني، ويسمى «هونج بيك»، لممارسة شعائر الديانات الإسلامية والهندوسية والطاوية، ولا أدري كيف تُمارَس ديانة سماوية نزلت بوحي على نبي مرسل بجوار ديانة أخرى وثنية وضعها بشر على هواهم، لكن هذا هو طابع المجتمع السنغافوري، الذي تحرص حكومته على ضمان التعايش السلمي بين كل الأعراق والديانات؛ فالبلد اقتصادي من الطراز الأول، ولا وقت لديهم للدخول في خلافات عرقية أو طائفية، لم يدخل أي بلد فيها إلا ونال من الخراب والدمار وربما التقسيم ما نال؛ فواقع الحال يقول إنه لا يمكن إخراج إنسان من دينه وإدخاله لأي دين آخر إلا إذا اقتنع بذلك، ومن لا يحترم دين غيره يجب ألا ينتظر من غيره أن يحترم دينه هو! !

وكما ورد من أمر في كتاب الله تعالى للمسلمين بألا يسبوا آلهة غيرهم، حتى لا يسب الآخرون الله – تعالى الله سبحانه عما يصفون – عَدْوا وجهلا، وقد قال تعالى في كتابه الكريم:

«وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ» صدق الله العظيم.

(13) ماليزي يحلم بالسفر لمصر ليحج

يبدو الماليزيون في سنغافورة أشبه بالمصريين في السعودية، مع بعض اختلافات بسيطة بالطبع، منها أن المصري يدخل السعودية بـ«العافية»، بعد إجراءات طويلة للتأشيرات والكفالات، أما الماليزي فيدخل سنغافورة بـ«الفسبة»، أي بالدراجة النارية، ويوميا، ويكفيه مجرد عبور جسر ما بين البلدين، ليجد نفسه في نصف ساعة أو أقل في سنغافورة، ليلتحق بعمله بعد ذلك في المصنع أو الشركة التي يعمل بها، ثم يرجع بفسبته في آخر النهار ليبيت في بيته في ماليزيا، وهذا ما بدا لي عندما شاهدت ذلك الطوفان الهادر من الفسب أو الموتوسيكلات، بعد انتهاء وقت العمل ساعة المغرب، وهم يندفعون بأصواتهم العالية في أحد الشوارع، نحو الجسر الذي يفصل بين البلدين، وتستطيع أن تقول إنه لا يوجد بيت في مناطق ماليزيا المتاخمة لسنغافورة إلا ويوجد به شخص يعمل في سنغافورة، وهكذا يتعامل الأصدقاء السنغافوريون والماليزيون سويا، وندعو الله لهم أن يظلوا أصدقاء وجيرانا، وألا يتحولوا إلى أشقاء مثلنا كعرب!!

نظر العامل إليَّ بنظرة غريبة لم أعهدها من قبلُ، بعينيه الضيقتين ووجهه منغولي الطابع، ثم اقترب مني حتى بدأت أشعر بالقلق، فقد ظننت أنه

أحد أحفاد «جنكيز خان»، وأنه حتما قد أتى إليّ يريد الانتقام لجده «هولاكو»، بعدما انكسرت جيوشه التي اجتاحت العالم أمام الجيش المصري بقيادة الملك المظفر «سيف الدين قطز» في معركة «عين جالوت»، إلا أنني هدأت قليلا، ليس لأنني لست من أحفاد «قطز» طبعا، ولكن لأن الرجل بدا ودودا بصورة واضحة، عندما علم أنني مسلم.

سألني الرجل، الذي عرفت أنه ماليزي مسلم ويعمل في حوض إصلاح السفن بترسانة «كيبيل»، عن جنسيتي بعد أن خمن أنني عربي، فقلت له بأنني مصري، فانفرجت أساريره بصورة واضحة، فقلت: الحمد لله، فيبدو أن أحفاد جنكيز خان وهولاكو وتيمور لنك قد نسوا ثأرهم القديم من الجيش المصري، الذي كان حامي حمى المشرق العربي قديما من الصليبيين والمغول وما يستجد من أعداء.

قال لي الرجل: «إيجيبت، سادات، ناصر»، فقلت له بكل فخر: «Yes»، ثم قلت في نفسي: يبدو أن تاريخ مصر قد توقف برحيل الرئيس السادات، خصوصا أن الرجل لم يعرف لنا رئيسا بعده، ويبدو أنه لم يقرأ الجريدة الصينية إياها، التي كانت تختار الرئيس مبارك رجل العام في كل عام، ولكن على كل حال قال لي الرجل: «رمضان مبارك»، على الرغم من أننا لم نكن في شهر رمضان، فقلت الحمد لله أنه يعرف أي «مبارك» في مصر والسلام، حتى ولو كان الشهر الكريم المبارك!!

وسألني الرجل: هل زرت الكعبة المشرفة ومكة المكرمة؟ فقلت له: مع الأسف أنا لم أزر مكة المكرمة من قبل. فقال لي: هل هي بعيدة عن منزلك؟ فقلت له: هي بعيدة جدًّا عن منزلي بالطبع. فقال لي: كم من الوقت يستغرق وصولك إليها؟ قلت له: بالطائرة ساعتين وبالسفينة يومين، فتعجب وقال لي: ألا يمكن أن تذهب إلى هناك بالأتوبيس؟ قلت له: يمكن، ولكن يأخذ هذا وقتا أطول. فقال لي: يبدو أن بلدكم كبير جدا. وقد كان الرجل يظن أن الكعبة المشرفة ومكة المكرمة وأرض الحجاز كلها ما زالت تتبع مصر، فقلت له: كانت كذلك في الماضي، ولكن الآن هي في بلد آخر مستقل بذاته، ويجب أن نحصل على تأشيرة دخول له، حتى نقوم بالحج والعمرة.

لمحت في عيني الرجل البسيط نظرة حزن وهو يقول لي: لقد كنت أجمع المال حتى أقوم بزيارة مصر وأزور الجامع الأزهر، الذي تخرج فيه الشيخ الذي تعلمت على يديه في ماليزيا، ثم أقوم بالحج بعد ذلك للكعبة المشرفة، ولكن سيرا على الأقدام، وكان هذا أقصى ما أحلم به. فقلت له: عسى الله أن يحقق أملك في الحج لبيته الحرام، وأنا شخصيا أضمن لك زيارة مصر ورؤية الجامع الأزهر، فيكفيك أن تأتي لمطار القاهرة، لتحصل على تأشيرة دخول!! أما دخول السعودية وزيارة مكة والمدينة فأمر يتطلب منك معرفة إجراءات التقدم للحصول على تلك التأشيرة.

كان الرجل بسيطا لأقصى حد، ويبدو أن انتقاله بين ماليزيا وسنغافورة

يوميا قد جعله لا يعترف بالحدود وتأشيرات الدخول بـين البلـدان، وانـصرف الرجل ليركب فسبته عائدا لبيته في ماليزيا، وقد بـدت علامـات الإحبـاط علـى وجهه، لكنه ودون أن يدري قد رسم علامات الاستفهام كذلك على وجهي! !

(14) منطقة ألعاب وإنترنت داخل سينما

السير في شوارع سنغافورة له مذاق خاص، حتى لو كان في عز الصيف في شهر يوليو؛ حيث ترتفع درجة الحرارة ويرفعها أكثر ارتفاع نسبة الرطوبة، أما السماء فتبدو خالية من أي سحابة توحد ربنا، وتبدو كذلك أبعد كثيرًا من السماء في مصر، حتى إنني ظننت أن ناطحات السحاب المرتفعة جدا قد رفعت معها السماء كذلك لأعلى! ! وقادر ربنا يرفع سماوات مدن مصر، بقدر ارتفاع الشيراتون والهيلتون في القاهرة وسان ستيفانو في الإسكندرية.

وعلى الرغم من أنني كنت أحرص على الخروج فيما بعد المغرب، لاعتبارات مواعيد العمل أولا طبعا، وعندما تخف درجة الحرارة في المساء، وهذا أهم بالتأكيد، فإنني في ذلك اليوم بالذات قد خرجت قبل منتصف النهار مع وقت الظهر، والشمس تأكل بأشعتها الحارقة قفاي المحلوق الشعر مؤخرا؛ فقد كنت في هذه المرة أريد معرفة أخبار مصر، التي غبت عنها لأكثر من شهر، فكان حتما عليَّ أن أتصفح الإنترنت، فخرجت مبكرا للبحث عن إنترنت كافيه، ولا أدري لماذا قررت ذلك نهارا، وسألت نفسي مستنكرا بعد أن وقعت الفأس في الرأس، وانتشر العرق على قفاي وظهري وما هو أدنى من ذلك، ألم يكن ممكنا العثور على مقهى إنترنت في الليل، أم أن سرعات الشبكة

العنكبوتية كانت ستكون أبطأ ليلا، كما كان يحدث عندنا في مصر قبل عصر الـ«إيه دي إس إل»؟

لم تكن هناك أي لافتة في أي شارع تدل على وجود المقهى الذي أبحث عنه، فترحَّمت على شوارع المنصورة العزيزة، التي اكتظت بمقاهي الإنترنت ربما أكثر من محلات الفول والفلافل، فكان عليَّ أن أذهب لمول «Sim Lim»، فعادة تكون كل شركات الكمبيوتر ومقاهي الإنترنت مجاورة لبعضها البعض، وإن لم ألحظ أي مقهى للإنترنت في زيارتي الأولى للمول، ولكن ربما يأتي السؤال هذه المرة بنتيجة، وكانت النتيجة مبهرة حقا، فقد دلني شاب، يبدو عليه أنه طالب جامعي، على مكان قال عنه إنه مقهى للإنترنت، ولكن كانت مفاجأتي كبيرة حقا عندما دخلت لهذا المكان الغريب.

كان المبنى أشبه بدور السينما الكبيرة في القاهرة والإسكندرية، حتى بأفيشاتها المعلقة في الخارج وفي الداخل، بل أستطيع الجزم بأنه لم يكن ينقصه إلا لافتة «سينما أمير»، ومحل «جاد» للفول والفلافل المواجه لها، لتظن أنك تسير في أحد شوارع محطة الرمل بالإسكندرية، لكن الغريب أن هذه الأفيشات لم تكن لأفلام سينمائية، لكنها كانت لألعاب إلكترونية، وإن كان بعض هذه الألعاب قد تحول لأفلام سينمائية بالفعل؛ فالمهم هو مخاطبة الخيال عند المتلقي، الذي يعيش بكامل كيانه داخل اللعبة أو الفيلم.

وكان هذا ما رأيته في الداخل؛ فدار السينما كانت حقيقية بالفعل، وقد

حولها مالكها لمنطقة ألعاب «Game Zone»، وضع بها مئات من أجهزة الكمبيوتر، وفي نفس صفوف مقاعد السينما، وأُطفئت الأنوار تماما كما يحدث عند عرض الأفلام، واندمج كل لاعب في لعبته التي لا تنتهي مراحلها أبدا، لتحسب عليه ساعة الحساب بدقائقها وثوانيها المسرعة، فظننت بأني لن أجد إنترنت في هذا المكان الذي صار أشبه بالبلاي ستيشن الكبير، فهممت بالخروج من هذا العالم التخيلي، حتى سألني أحدهم عما كنت أريد، فقلت له كنت أريد فقط جهاز كمبيوتر متصل بالإنترنت، فقال لي: تفضل، الدخول من هنا.

كانت هناك قاعة ملحقة بالقاعة الرئيسية، مخصصة كإنترنت كافيه، وسألته: بكم سعر الساعة؟ فقال لي: الساعة بدولارين، وكسر الساعة بساعة كاملة. فقلت مرة أخرى: عمار يا كافيهات المنصورة، الساعة فيها بجنيه واحد، والحسَّابة فيها لا تحسب، كما يقول عادل إمام.

وبدأت أتصفح في المواقع المصرية، وأطالع في بريدي الإلكتروني الممتلئ برسائل قليلة ممن أعرفهم، ورسائل أكثر من الهم على القلب ممن لا أعرفهم، حتى دقت ثواني الساعة الثانية، التي كنت أتابع أرقامها أمامي على الشاشة رقما رقما، فلملمت أشيائي ودفعت الدولارين للمسئول، الذي نظر إليَّ نظرة نارية ذات مغزى، بعد أن فشلت كل محاولاتهم في إغرائي بالبقاء، حتى مع رائحة النسكافيه الرائعة التي تنبعث من الكانتين، حتى أتجاوز الساعة بدقيقة واحدة، لينتزعوا مني دولارين آخرين، على كسر الساعة وكسر قلبي الضعيف،

الذي يشكر الظـروف ومـسئولي الكافيـه كـذلك علـى تزويـد شاشـات الأجهـزة بساعات رقمية، حمته من تجاوز الحسَّابة التي لا تنسى أبدا أن تحسب.

(15) الشمسية الملعونة

الأمطار في سنغافورة شيء عادي جدًّا ومتوقع، حتى لو كنا في فصل الصيف، أو ما نعرفه في مصر بأنه فصل الصيف؛ ففي سنغافورة لا توجد فصول للسنة؛ فالسنة كلها فصل واحد ترتفع فيه درجة الحرارة وكذلك نسبة الرطوبة، وهذا شيء متوقع في منطقة استوائية، فأنت في سنغافورة تقف بالقرب من خط الاستواء، مع هؤلاء الذين يقفون عليه في أفريقيا وأمريكا اللاتينية؛ حيث الأمطار الغزيرة في أي وقت.

والحقيقة أن هذه الأمطار كانت هي عائقي الوحيد في الخروج والسير الحر في الشوارع، خصوصا أنه كان يتحتم عليَّ السير لمسافة طويلة تقترب من الكيلومتر، من مقر إقامتي على السفينة، التي ترسو تحت الإصلاح في ترسانة «كيبيل» لإصلاح السفن، وحتى أصل لمحطة الأتوبيس، الذي سأستقله لأصل لوسط المدينة، ولن أبالغ إذا قلت بأن هذه الأمطار الغزيرة أحيانا كانت تنتظرني في تلك المسافة بالذات، في طريق ذهابي، وكذلك حين عودتي، وكانت تتوقف تماما عندما أستقل الأتوبيس، ومهما كنت أغير من مواعيد خروجي، كانت هي على موعد غرامي معي بمنتهى التباتة، على الرغم من أنني لم أجرب أي مواعيد غرامية تحت المطر من قبل، ومن هذا المجنون الذي ينتظر «مبلولا»

هكذا في هذا الجو لكي ينتظر الجو؟ لكن يظل الفقري «فقري»، فلا مفر لي من تلك الأمطار الليلية وحتى النهارية، التي كثيرًا ما كنت أتلقاها على رأسي وشعري الطويل، فاضطررت لقصه كليا، حتى لا أبدو وأنا عائد أمام الزملاء وكأنني كنت أسير تحت بلكونة تلقي بمياه غسيل «طاهرة» على عباد الله السائرين في الشوارع دون «شماسي»، أو أن يتهمني أحد الظرفاء جدا بأنني قد غرقت في شبر ميَّه سنغافوري، وبارك الله فيمن قال ذلك؛ فقد صار الشبر ألف شبر، إلا أنني وبعد قص شعري ظللت أتلقى هذه الأمطار الساقطة أيضا، ولكن على قفاي! !

فلم يكن هناك بدٌّ من شراء شيء لم نعتَده في مصر، وإن كان منتشرا في الماضي البعيد، وكان شيئا عاديا أن تراه في الأفلام القديمة؛ فمن منا لا يتذكر «زكي رستم» في فيلم «الحرام» وهو يركب حماره الذي يمشي تحت حر الشمس، رافعا المظلة (الشمسية) التي كانت تقيه حرها؟ بل إن «نجيب محفوظ» نفسه قد أصدر مجموعة قصصية كاملة سماها «تحت المظلة»، فقررت أنا الآخر شراء مظلة (شمسية)، حتى أقي بها قفاي من زخات المطر، وأقي بها كذلك ملابسي، حتى لا تشرب من ماء المطر حتى الثمالة.

كانت «الشماسي» معروضة في السوق الهندية الممتلئة بالبضائع الصينية طبعا على كل شكل وكل لون، فأخذت واحدة من النوع الطويل، وكانت تبدو أشبه بعصا لورد إنجليزي، ربما نسيها الإنجليز من أيام ما كانوا يحتلون

سنغافورة، قبل أن يسلموها خالصة للأمريكان، كما سلموا الخليج العربي كله كذلك ببتروله وغازه لهم! ! ودفعت في المظلة الأنيقة جدًّا خمسة عشر دولارا حتة واحدة، لكني قلت بأنها ليست خسارة على كل حال، والشمسية ستبقى معي من رائحة سنغافورة، وربما من رائحة التوابل الهندية التي كانت تملأ السوق، ويكفي أنني قد تحولت معها لصورة سير «فيلياس فوج»، بطل رواية «حول العالم في 80 يوما»، للكاتب الفرنسي الشهير «جول فيرن»، ولكن دون برنيطة ولا حذاء أجلاسيه، والأهم أنني قد حصلت بها على حماية لقفاي من المطر السنغافوري المستمر.

أصبحت أسير في الشوارع، بروح أسد استوائي يمشي ويتهادى بين غابات السافانا، عفوا ناطحات السحاب، ولم يتبق له إلا أن يرفع رأسه للسماء ويزأر، منتظرا سقوط الأمطار التي طالما أغرقت قفاه بزخاتها، فمعي شمسية إنجليزية تتحدى أي مطر مهما كان غزيرا، إلا أن المطر اللعين لم يسقط أبدا هذه المرة، حتى وصلت لمقر إقامتي وأنا جاف تماما إلا من عرق جسدي، في ظل رطوبة لا تُحتمل.

ظللت أنظر للشمسية وكلي حقد عليها، بقماشها الجاف جدًّا وليس عليه نقطة ماء توحد ربنا، ثم وضعتها في ركن غرفتي، ممنيا نفسي بالخروج بها مرة أخرى و«النطرة ترخ ترخ» عليها مثل حنفية الست سنية، حتى أشعر بأن الخمسة عشر دولارا التي دفعتها فيها كانت حلالا بلالا، ولم أشترِها

لمجرد السير في الشوارع، وكأنني أحد أعضاء مجلس العموم لبريطانيا التي كانت عظمى.

وخرجت في يوم آخر حاملا شمسيتي وأنا أنظر لها مرة وللأرض مرتين، ثم أنظر للسماء مرات، لكن المطر لم يحنّ عليَّ ويسقط إرضاءً لخاطري، حتى بدأت أفكر في إقامة صلاة استسقاء في أحد المساجد القريبة، حتى أستمتع ولو لخمس دقائق بنقر حبات المطر على قماش شمسيتي الذي صار أكثر جفافا من الأعشاب التي أحرقها «أحمد مظهر» وهو يصارع الصليبيين في معركة «حطين» في فيلم الناصر صلاح الدين، ولكن يبدو أن سماء سنغافورة ظلت تعاندني أنا بالذات، وحتى عندما رأيتها تمطر وأنا بداخل سوبر ماركت، وأسرعت لأقف في الطابور وأدفع الحساب لأخرج وأمشي تحت المطر في الشارع، كما «جاك ليمون» في فيلم «إيرما لادوس»، إذا بي أخرج لأجد المطر قد انتهى تماما، وحتى المياه التي نزلت على الأرض قد ابتلعتها البلاعات! !

فقدت الأمل تماما في أن أستخدم تلك الشمسية تحت المطر، فتركتها في يوم آخر وخرجت من دونها، وكالعادة استلمني المطر في طريق ذهابي وكذلك في عودتي، ويبدو أن هناك شيئا ما يحول بيني وبين الاستمتاع بشمسيتي الجديدة، فربما كان فيها سحرٌ هندي يحول دون استخدامها، أو تعويذة صينية على طرف لسان تنين ينفث النيران، أو أن هيئة الأرصاد الجوية السنغافورية تتعمد إسقاط المطر فوق رأسي فقط، عندما لا تجد بيدي شمسية تحمي رأسي

وقفاي، وعلى الرغم من أن الشيطان قد وسوس لي بأن أجرب استخدامها تحت الدش في الحمام، لكني لم أخضع لوسوسات هذا اللعين، فربما تنقطع المياه في كل الحمامات، وما ذنب باقي الزملاء في تلك اللعنة حتى يناموا بعرقهم أو مزنوقين؟ فقررت العودة لجذوري المصرية الأصيلة، وتركت هذه الشمسية اللعينة ترقد في مثواها الأخير في ركن غرفتي، ولأكافح المطر الساقط على رأسي وقفاي، بأي ورق جرائد والسلام.

نسيت أمر تلك الشمسية الملعونة تماما، حتى تركت سنغافورة بأكملها، وذهبت إلى بلدان أخرى كثيرة، وكان عليَّ أن أستقل الطائرة من مطار «بانكوك»، عاصمة تايلاند، وكانت السماء ملبدة بالغيوم وتمطر بغزارة، فتذكرت أمر الشمسية التي كانت ترقد في قاع حقيبة سفري الكبيرة، فأخرجتها وفتحتها لأسير بها لمسافة لا تزيد على عشرة أمتار، وأنا في قمة السعادة أمام المطار، ثم وضعتها على الترولي بجوار حقائبي بالعرض وليس بالطول، ثم دخلت مسرعا لصالة السفر؛ فقد كنا متأخرين جدا، فإذا بها تشبك في أحد الحواجز الحديدية في المطار، ثم تنشق إلى نصفين، فأخذتها وألقيتها غير آسف عليها في أقرب صندوق قمامة!!

(16) فري ريفل

لا يمكن أن تزور سنغافورة ولا يحالفك الحظ بزيارة أحد مطاعمها الكثيرة والمتنوعة؛ فالمجتمع السنغافوري متنوع الثقافات، الصينية والماليزية والهندية والإنجليزية والأمريكية بالطبع، بل والعربية الإسلامية كذلك، قد نقل له جميع سكانه كل هذه الثقافات مع اندماجهم فيه، كما أن البلد يستقبل كذلك سائحين من كل أنحاء العالم، ولهذا يجب أن تجد به كل ما يخطر على بالك من أطعمة وكل ما لا يخطر على بالك كذلك؛ فذلك يتوقف على مدى اتساع بال حضرتك.

ولأن سنغافورة قد اشتهرت بمولاتها، حتى إن البعض يتندر عليها ويقول بأن بين كل مولين من مولاتها الكبيرة يوجد مول ثالث أكبر منهما؛ فطبيعي جدًّا أن تجد المطاعم منتشرة فيها وبغزارة؛ فالمطاعم هي مكون أساسي وأصيل من أي مول، وتحتل غالبا دورا كاملا فيه؛ حيث تجد كل أنواع المطاعم التي تقدم مأكولات من شتى بقاع الدنيا، فتجد المطاعم الصينية حيث النودلز والعصي الخشبية، والأطباق التي تغلب عليها المأكولات البحرية والبيض والخضراوات المسلوقة، إلى المأكولات التايلاندية الحارة التي لا تدري ما هي بالضبط، لكنها بحرية أيضا؛ فهم يطبخون كل شيء حتى دود البحر وربما دود الأرض، لا أدري، أما رائحة التوابل الهندية فتشمها حتى قبل أن ترى المطعم

الهندي نفسه، إلى مطاعم البيتزا والمعجنات الإيطالية، التي تغريك بكل شيء من أول أصناف الجبن والخضراوات الطازجة، حتى أصناف ملابس البائعات الملونة بألوان علم إيطاليا المغرية جدا، إلى المطاعم الماليزية التي تقدم لك الأرز وتزينه بالأرز، وحتى أطباق حلوياتها عبارة عن أرز محشو بالأرز!!

إلا أن البحث عن علامة «حلال» قد كان هو شغلي الشاغل، ولم أتعب كثيرًا في العثور عليها، فلم تكن فقط في مطاعم المأكولات الماليزية، ولكن في كل مطاعم سنغافورة؛ ففي هذا البلد يتم الحرص على تقديم الطعام الحلال الخاص بالمسلمين، لكن مشكلة نوعية الطعام هي التي ظلت تراودني، حتى بدأت أُصاب بالحول فعلا من كثرة اللافتات وكثرة قوائم الطعام والتي كنت، والحمد لله، لا أفهم معظمها، حتى انتهى بي الحال كالعادة للبحث عن المضمون والمقارنة ما بين تناول البيتزا أو دجاج كنتاكي المقلي، وانتصر كنتاكي في النهاية بالطبع، بحكم الأسعار المهاودة، وبحكم شيء آخر كان مفاجأة لي بكل المقاييس؛ فقد كانوا يضعون لافتة على باب المحل مكتوبا عليها «Free refill»، ولما سألت عن معنى الجملة، فقالوا لي بأن إعادة ملء المشروب مجانا، فقلت: ذنبهم على جنبهم، ويبدو أن سلسلة مطاعم كنتاكي العالمية سوف تعلن إفلاسها في سنغافورة بإذن الله!!

كان البائع طيب القلب، يعطي الزبون صينية الأكل التي يدفع فيها خمسة دولارات ونصف الدولار لا أكثر، ثمن فنجان شاي إنجليزي مع قطعة كيك مضروبة؛ فكنتاكي معروف عنه أنه من أرخص المطاعم حول العالم، ولا

أدري إن كانت مطاعمه في مصر قد دخلت هـذا العـالم أم لا، المهـم كـان يعطيـك الصينية ومعها كوب كبير جدًّا نصف ممتلئ بقطع الثلج، حتى تقوم أنت بملئـه من ماكينة المشروبات الموجودة في وسط صالة الطعـام، ويـضعونها هكـذا، عـادي جدًّا، بين المقاعد والترابيزات، وكأنهم يسلمون القطط مفتاح الكرار.

انتشر خبر موضوع الفري ريفل بيننـا نحـن المـصريين علـى الـسفينة في سرعة الضوء، وما أدراك إذا علم المصريون بمكان ما يقدم شيئا مجانا، فما أحلى هذه العبارة على أسماعنا كمصريين، على الرغم مـن أن المطعـم نفـسه موجـود في مصر، والمفروض أن خدمته موحدة في كل دول العـالم، لكـن يبـدو أن لكـل مقـام مقالا، ولكل دولة معاملة، وأرى أن نبدأ بأنفسنا، يعـني بفكـرة مجنونـة، بـأن يقوم محل كشري في شارع شبرا بتقديم خدمة فري ريفل من محل عصير القصب المجاور له!!

تحول جميع زملائي، وأنا أولهم بالطبع، لزبائن دائمين على كنتـاكي، في كل مرة كانوا يخرجون فيها، وذلك لـسوء حـظ المطعـم الـذي كـان قريبـا مـن محطة الأتوبيس والمترو، فكان المرور عليـه مـرورا حتميـا، وكنـا نمـلأ الكـوب ونشربه قبل أن نقول «بسم الله الرحمن الـرحيم»، وحتـى نبـدأ في أكـل الفـراخ، نذهب ونملؤه مرة ثانية لنشربه أثناء الأكل، ثم نملؤه مرة ثالثـة لنـشربه بعـد الأكـل لـزوم الهـضم، ثـم نملـؤه مـرة رابعـة حتـى نـشربه ونحـن في طريقنـا للأتوبيس، وقد كان البعض كـذلك يمـلأ كوبـا أو كـوبين، حتـى يأخـذهما معـه ليشربهما قبل أن ينام في سريره، حتى ينعم بأحلام كنتاكية كوكاكولية سعيدة.

(17) إنهم يردمون البحر

سوف نأخذ لمحة سريعة عمَّا تعانيـه دولـة سـنغافورة مـن مـشكلات؛ فالقاعدة أنه لا يوجد مكان علـى ظهـر الأرض توجـد بـه كـل المميـزات، وكأنـه الجنة التي في السماء، ولا يوجد مكان كذلك وبه كل العيوب، وكأنه النار الـتي على الأرض، ونظرات الناس نظرات نسبية تختلف باختلاف الناظر وثقافتـه، وكذلك باختلاف الظروف، وكلمـا تجـول الإنـسان في الـدنيا أكثـر وأكثـر ورأت عيناه بلدانا هنا وهناك، صار حكمه على الأشياء أكثر موضوعية وحيادية.

والحقيقة أن سنغافورة تعـاني مـشكلة كـبرى، تتـضاءل أمامهـا معظـم مشاكل دول العالم، وحتى مشاكلنا العويصة في مصر، تبـدو أنهـا مجـرد تـرف وشيء تافه جدا، قياسا بما تعانيه سنغافورة، فلو كانـت كـل مـشاكلنا في مـصر تتلخص في الزيادة السكانية والزحـام، اللـذين يولـدان كـل مـشاكلنا المستعـصية الحل علينا نحن بالطبع، فيكفي أن ننظر فيما حولنا لنكتشف أننا لا نعـيش إلا على 5٪ فقط من مساحة مصر، وهو ما لا يحلم بـه أهـل سـنغافورة وحكومتهـا طبعا؛ فالمسألة باختصار أن سنغافورة لم يعد بهـا أراضٍ للبنـاء، والأهـم أنـه لم يعد بها أراضٍ للتخلص من النفايات.

وسنغافورة، الدولـة الـتي تتكـون مـن مدينـة واحـدة كـبيرة، وتقـع في

الجزيرة الأم، وتحيط بها أكثر من ستين جزيرة صغيرة، بمساحة لا تتجاوز 710 كيلومترات مربعة، وبطول شواطئ لا يتجاوز 180 كيلومترا، ولهذا تعاني كثافة سكانية من أعلى الكثافات في العالم، وتنتشر بها ناطحات السحاب، لاستيعاب السكان الذين يبلغ تعدادهم حوالي خمسة ملايين نسمة، مضافا إليهم حوالي سبعة ملايين زائر، يقدمون إلى سنغافورة على مدار السنة، للسياحة والبيزنس.

وعلى الرغم من كل هذا الزحام في هذه المدينة، عفوا في هذه الدولة، التي تقل مساحتها كثيرًا عن مساحة مدينة الإسكندرية، لكن هذه الدولة مصرة على إنشاء الحدائق في كل مكان، وذلك للتقليل من انبعاثات الكربون، بعد أن تآكلت معظم مساحات الغابات التي كانت تغطي أرض سنغافورة قديما، وباتت تقل حاليا عن 3٪ من مساحة الدولة، ولكن تبقى مشكلة التخلص من القمامة والنفايات هي المشكلة الكبرى التي لولا أن الحكومة هناك قد وضعت لها نظاما محكما لصارت سنغافورة حاليا مجرد صندوق قمامة كبير جدا!!

ويتم تدوير ما يمكن تدويره من القمامة، مثل الزجاج والبلاستيك والورق والمعادن، وكذلك المخلفات الأخرى من بقايا المباني التي يتم هدمها؛ ففي سنغافورة يتم تحديد العمر الأقصى لأي مبنى، ويجب هدمه بعد ذلك إذا تجاوز ذلك العمر، حتى تظل المباني في البلد في حالة جيدة، ولا تنهار على رأس ساكنيها؛ فلكل مبنى عمره الافتراضي، ولأن سنغافورة تستورد معظم مواد

البناء من الخارج، فمخلفات الهدم هذه مع بقايا القمامة غير الصالحة للتدوير، هي إحدى أهم وسائل زيادة مساحة البلد! !

وحتى لا نتعجب من مسألة زيادة مساحة البلد هذه، فالمسألة بسيطة، هي باختصار أن الموانئ والإنشاءات البحرية تتم في سنغافورة على قدم وساق، ما يتطلب حفرا وتعميقا مستمرين للقنوات ومداخل الموانئ القديمة، وكذلك الأرصفة الجديدة التي يتم إنشاؤها، فيتم استخدام الطين الناتج عن هذا الحفر بعد خلطه بالمخلفات والنفايات والرمل والحجارة التي يستوردونها من ماليزيا وإندونيسيا، ليتم التوسع بها في البحر مرة أخرى، وتسمى هذه العملية «Land reclamation»، أو ما يمكن أن نسميه «استصلاح البحر»، ويتم كذلك دمج الجزر الصغيرة مع بعضها البعض.

ولهذا اشتهرت سنغافورة بأن مساحتها تتزايد باستمرار، فلأن الأرض فيها عملة نادرة، فلا يجب الحفاظ على رقعتها وفقط، ولكن إذا أمكن فلتتم كذلك زيادة مساحتها؛ فالحكام هناك يفكرون دائما في المستقبل، وفيما سيتركونه للأجيال القادمة التي يجب أن تعيش أيضا، لا أن يفكروا فقط في كيفية بيع الأراضي للأجانب، وبأبخس الأثمان وبالقانون! !

(18) دولة دخلها القومي أعلى من بعض دول الخليج

عندما تسير في شوارع سنغافورة وتنظر لناطحات سحابها ومولاتها الكبيرة، قد لا تشعر بأي فارق يُذكر بين شوارعها وشوارع دبي ومولاتها، بل يمكنني أن أقول لك تجاوزا: إن دبي هي النسخة المكررة بالكربون، أو الإصدار العربي، من سنغافورة ولكن بحروف لاتينية أيضا، فلا يبدو أن هناك أي اختلافات واضحة، باستثناء الغترة والعقال والدشداشة طبعا، فلكل بلد زيه الوطني، وحتى في لافتات الشوارع المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية في دبي، تراها مكتوبة بنفس النمط بالإنجليزية فقط في سنغافورة، ولم يكن ينقص دبي إلا الأتوبيس الأحمر بدورين والمترو (وقد أنشأته دبي مؤخرا)، حتى تشعر أنك تمشي في شوارع إمارة سنغافورة، لكن سوف أحمل لكم مفاجأة أخرى غير متوقعة، هي أنه على الرغم من كل هذا التشابه، فإن دبي وغيرها من حواضر الخليج هي النقيض تماما لسنغافورة!!

فسنغافورة الدولة صغيرة المساحة، والجزيرة التي لم تكن تملك إلا مجموعة من الغابات الاستوائية وأرضا فقيرة من كل الموارد المعدنية منها والبترولية، ليس بها بترول أو غاز أو حتى رمل، وكان دخل الفرد فيها في

سبعينات القرن الماضي لا يتجاوز 500 دولار في السنة، ووصل حاليـا إلى أكثـر من 35000 دولار، كما أن الدخل القومي لسنغافورة يتجاوز حاليا 250 مليار دولار وأكثر، في دولة تعتمد كليا على استيراد المـواد الخـام، والأجـزاء نـصف المصنعة، ثم تعيد تصديرها كمنتجات مصنعة بعد ذلك، بفروع لمصانع من أشهر الأسماء والماركات العالمية، التي وجدت في سنغافورة إحدى أفضل بيئـات العمـل الاستثمارية في العالم، حتى إنه قد أُطلق على سنغافورة أنها الدولة الأكثر عولمة في العالم، والمعنى واضح أنها مفتوحة لأي استثمار مـن أي جنـسية، وذلـك هـو معنى العولمة الذي لا يفهمه أهل الشرق الأوسط، ويظنون أنـها نوع مـن الهيمنـة الأمريكية على العالم.

وبـالنظر إلى مفهـوم العولـة الاقتـصادي، نجـد أن المـصطلح الإنجليـزي «Globalization» يختلف تماما عمّا يتم ترويجه لـدينا؛ فأصـحاب الفكـر الاشتراكي الذي فشل في كل دول العالم، حتى في الصين ذاتها التي تنازلت عنـه عمليا، ويمكن أن نسمي الحزب الشيوعي الصيني الآن حزبا رأسماليا، فمفـاهيم الاشتراكية وامتلاك الدولة لوسائل الإنتاج وشـيوعية رأس المـال وفـائض القيمـة وديكتاتورية البروليتاريا أو الطبقة العاملة، في مواجهة البرجوازية التي تمتلك رأس المال، لم تنتج للمجتمعات إلا طبقة جديدة متوحـشة، تـستقوي بمناصـب الدولة والأجهزة الأمنية تحت شعارات عقائديـة، فـلا العمـال امتلكـوا وسـائل الإنتاج، ولا البرجوازية انتهت من تلك الدول، وإنما غيرت جلدها فقط لتأخـذ

حصانة أكبر، بقوانين حمائية تمنع المنافسة، فتضيع العدالة الاجتماعية الحقيقية، وهي قدرة المواطن على شراء سلعة ذات جودة، وبسعر مناسب لدخله الحقيقي لا الافتراضي، أو ما يجب أن يكون عليه، فتضع له الدولة سعر المنتج المناسب لدخله المحدود، ثم يتوه ما بين الأسواق ولا يجده إلا في السوق السوداء، لتنتفخ من عائدها كروش هؤلاء الذين يعيشون على دماء الفقراء.

وهنا يتجلى المعنى الحقيقي للعولمة وهو «العالمية»، والعالمية تعني أن السلعة يتم إنتاجها في أي دولة من دول العالم، طبقا لقدرات كل دولة؛ فالصناعات الأولية في دول، والصناعات التكميلية في دول، والتجميع النهائي في دول؛ فالسيطرة هنا للشركات لا للدول، التي تبحث عن تكلفة أقل وتسهيلات أكثر؛ فالسيارة اليابانية التي تركبها لم تعد يابانية؛ ففيها أجزاء صُنعت في اليابان وأجزاء في الصين وأجزاء في فيتنام، ويتم تجميعها في البلد الذي ستباع فيه؛ فالمهم أن يكون السعر النهائي للمنتج منافسا، في ظل سوق تعج بالمنافسين من كل الدول، عفوا من كل الشركات، لكن المهم أن تضمن لك تلك الدول حرية المنافسة، حتى يفوز المواطن في النهاية بأقل سعر وبأعلى جودة، لا أن تُجبر مواطنيك على شراء منتج رديء وبسعر مبالَغ فيه، لا لشيء إلا لأنه منتج وطني يتمتع بالحماية من المنافسة بقوانين صارمة، جعلته يظل رديئا ولم يطور نفسه لمنافسة منتجات أخرى، لم تستطع أن تدخل معه للسوق المحلية.

وفي سنغافورة، قد وعوا هذا الدرس جيدا، وصاروا محطة مهمة لكل

صناعات اليابان وجنوب شرقي آسيا، ومحطة ترانزيت للتصدير وتغيير شهادات المنشأ كذلك؛ فالكاميرا الرقمية يُكتب عليها «صنع في اليابان»، وتُصَدر لمن يحبون ذلك في الشرق الأوسط، ويُكتب عليها «صنع في الصين»، وتُصَدر لمن يريدونها أرخص في دول أخرى، ولكن أين صُنعت تلك الكاميرا؟ لا أحد يعلم؛ ففي أسواق أوروبا وأمريكا، الذين روجوا للعولمة، أصبح كل ما يهمهم هو أن الكاميرا مكتوب عليها ماركة «سوني» أو «كانون» أو غيرهما، وأن تكون أصلية وغير مقلدة، أما بالنسبة للجودة فلديهم إجراءات لحماية المستهلك وحفظ حقوقه، إذا لم يكن هذا المنتج جيدا، وذلك هو مفهوم العولمة الحقيقي، وهو مصلحة المستهلك أيا ما كان هذا المنتج، وأيا ما كانت دولة إنتاجه، أما بالنسبة للصناعة الوطنية فعليها تطوير إنتاجها، حتى لا تنام المصانع الوطنية في العسل وهي تحصد مكاسب في ظل حماية الدولة لها ولمنتجاتها الرديئة، تلك المكاسب التي ستكون في النهاية من جيوب المواطنين المساكين، إلى جيوب حضرات السادة رؤساء وأعضاء مجالس الإدارات، الذين يعينهم السيد الوزير في موسم العطايا الوزارية، حتى تنهار تلك الصناعة مباشرة، مع أول اتفاقية للتجارة الحرة.

ومن هذا المنطلق، انطلقت سنغافورة في طريق النمو الاقتصادي، الذي انتشلها من دولة من دويلات العالم الرابع في السبعينات إلى دولة متقدمة على أعلى مستوى حاليا، ويزيد دخلها القومي السنوي على دخل بعض دول الخليج النفطية التي تقف خلف نهضتها العمرانية آبار بترول وغاز لا نهاية لها،

ولكن نمو سنغافورة كان من عرق وجهد مواطنيها، خصوصا إذا عرفنا أنها دولة دستورية راقية، تتمتع بقضاء مستقل تماما وبرلمان فاعل، وجيش قوي مدرب على أعلى مستوى، ونظام ديمقراطي يتداول السلطة في مجتمع متعدد الأعراق والأصول والديانات، يحيون سويا في منتهى السلام الاجتماعي، ذلك السلام الذي شجع المستثمرين من كل دول العالم على القدوم إلى سنغافورة والاستثمار فيها بأمان؛ فهناك قانون يعمل في ظله الجميع، لا يميز بين مواطن وأجنبي، وكذلك بين أجنبي ومواطن.

نعم، إن هناك فرقا بين سنغافورة ودبي وأبو ظبي والدوحة، اللاتي يسِرن على نفس النهج العمراني؛ فهناك فرق بين بلد معدوم الموارد، لكنه قد بنى كل هذه النهضة الصناعية والعمرانية، في مجتمع ديمقراطي مدني على أسس سياسية سليمة، وبين بلاد تشتري النهضة بالمال، الآتي لهم من تحت الأرض، ثم ترتفع تلك النهضة على سواعد العمال الأجانب، متغافلة عن أن أي نهضة حقيقية لا يمكن أن تستمر من دون تنمية المواطن نفسه مهنيا وثقافيا وسياسيا للمشاركة فيها؛ فالمواطن هو حجر الأساس لأي نهضة، وإذا لم يحس بأنه جزء بناء في تلك المنظومة، فسوف يكون حتما عنصرا رئيسيا من عناصرها الهدامة.

(19) باعة جائلون في سنغافورة

كان المنظر غريبا أيّما غرابة، علـى الـرغم مـن أنـني لم أكـن أراه للمـرة الأولى؛ فهو مشهدٌ معتادٌ لدينا في مصر، على الأقل، ولكـن في سـنغافورة الوضـع مختلف؛ فقد شعرت بأنني في قلب القاهرة فعـلا، وفي ميـدان العتبـة الخـضراء بالتحديد، فالـ«تي شيرتات» هي نفس الـ«تي شيرتات»، والولاعـات هـي نفـس الولاعات، لكن الباعة لم يكونوا نفس الباعة بالتأكيد، فقد كانوا هنودا يبيعون، أما عندنا في مصر فالهنود هم الذين يشترون.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أخرج فيها في يوم السبت، وفي سنغافورة يوم السبت هذا يعني الكثير؛ فهو اليوم الـذي يعمـل فيـه النـاس نـصف يـوم، ويستعدون كذلك لإجازة يوم الأحد، باختصار يعتبر يوم السبت هنا بمثابة يوم الخميس لدينا في مصر، وإن كانت الأيـام لا تختلـف كـثيرًا عـن بعـضها، إلا في بلاد العمل والإنتاج، ويـوم العطلـة الأسـبوعية يعـني الكـثير لأنـاس لم يجـف عرقهم بعد أيام عمل شاقة طوال الأسبوع.

ولكن يبدو أن هناك أناسا آخرين كانوا يستعدون للعمل في يومي الـسبت والأحد، وكانوا يعملون بمنتهى الجد لنصب أسواق مخصصة للباعـة الجـائلين، أسواق تعمل فقط في يوم السبت بعد الظهر، وفي يوم الأحد طـوال اليـوم، أسـواق

تجد فيها كل ما يخطر على بالك وما لا يخطر على بالك من بضائع صينية وهندية وملابس وأجهزة جديدة ومستعملة من كل الماركات على كل شكل ولون، كانوا يفترشون الأرض في حديقة كبيرة تتوسط ميدانا كبيرا، بالقرب من محطة مترو بوجيس، أي أنه أشبه بأسواق ميدان العتبة الخضراء، والفارق الوحيد أن السوق كانت مؤمنة بالفعل، لكن ليس بالإخوة البلطجية الذين يملأون الأسواق عندنا، إنما بعربات الشرطة التي كانت تمشط المكان باستمرار، فأنت في دولة تحترم البيع والشراء، ولكن تحت مظلة القانون.

تجولت بداخل السوق كنوع من أنواع حب الاستطلاع، لا حبا في الشراء، فأنا من هواة التعرف على الأشياء، ما بين الحديث منها على أحدث طراز، مثل أسطوانات الليزر والكاميرات الرقمية، إلى القديم جدًّا ويدخل في باب الأنتيكات، مثل الجرامافونات وأسطواناتها وكاميرات التصوير عتيقة الطراز، والراديوهات الخشبية الكبيرة منذ عهد ماركوني، وكذلك التماثيل الهندية والورقيات والخزفيات الصينية والتوابل والأعشاب الطبية، وأشياء أخرى لم أتبين ما هي بالضبط، من أقفاص تمتلئ بحيوانات وطيور غريبة الشكل، بل وصناديق زجاجية تحتوي ثعابين على كل شكل ولون، فأيقنت أن الأمر قد بات بالغ الخطورة، فأسرعت على الفور بمغادرة هذه الحديقة، فربما تكون هناك نمورٌ وأسودٌ معروضة للبيع، وأنا لست من سلالة عائلة الحلو.

والحقيقة أنه لا يوجد بلد في العالم يخلو من وجود الباعة الجائلين؛

ففي ظل ارتفاع الأسعار المبالغ فيه، في بضائع المحلات التجارية المثقلة بأعباء الضرائب وأجور العمال وتكاليف الديكورات والإضاءة والفواتير التي لا تنتهي، التي تصب في النهاية على رأس المستهلك النهائي، فيلجأ المسكين لأي بائع على ناصية الشارع، لا يدفع أي شيء لخزينة الدولة، التي رصفت وجملت وأعدت له هذا الشارع، الذي يستغل كل شبر فيه، حتى تغول هؤلاء الباعة في بعض الدول، وصارت إزالتهم من بعض الشوارع أشد وطأة من إزالة الاحتلال الأجنبي قديما، وصارت الأرصفة بل والشوارع كلها ملكا لهم، وتمام التمام أو الموت الزؤام! !

لكن الدول التي وعت التجربة منذ بدايتها علمت بأن الأمر لا يمكن إيقافه بالحملات الأمنية، ولا بمصادرة العربات وتحميلها لترقد أمام مديريات الأمن، بعد الإطاحة بالبضائع على قارعة الطريق، ثم بعد أن يمر أقل من نصف ساعة على تلك التجريدة الأمنية، سوف تجد كل شيء قد عاد لأصله، وكأن شيئا لم يكن وكأنك «يا أبو زيد ما غزيت»، حتى ينتهي الأمر بدفع المعلوم لسيادة الباشا الأمين، وكأنك يا عين ما رأيت شيئا وكل شيء تمام، وقد تغلبت دول متقدمة مثل سنغافورة على تلك المشكلة ولكن بعدم دفن الرؤوس في الرمال، إنما بتخصيص أماكن محددة لهؤلاء الباعة، وفي أيام محددة تحت إشراف الأمن الذي يحرس المكان، ويعرف كذلك ما يُباع وما يُشترى، فلا يمكن أن تمنع شيئا ليس له بديل، فتكون كمن يمنع الزواج ثم يتحسر على ضياع الأخلاق! !

(20) مصطفى سنتر

خرجت من الحديقة بسلامة الله وأنا صاغ سليم، ولم أفقد أي قطعة من أذني الطويلة المغرية بالقرقشة، من تلك الأنياب المفترسة التي لا أدري من الذي يجرؤ على أن يقتنيها في بيته؛ فأنا شخصيا ما زلت أحرص على عدم استخدام البطانيات المرسوم عليها ذلك النمر المفترس، فربما ينفخ الله في صورة هذا النمر ويتحول بقدرة قادر لكائن حي ويفترسني وأنا نائم، على الرغم من أن زمن المعجزات قد ولى وبغير رجعة، وإن كنت أتجول بالفعل في إحدى معجزات البلاد، حتى طالعت لافتة كبيرة مكتوبا عليها «Mustafa Centre» أو سوق مصطفى، وهي إحدى أهم أسواق سنغافورة، على الرغم من أنها ليست بالسوق الكبيرة، مقارنة بباقي مولات سنغافورة الكبيرة جدا.

تعتبر سوق مصطفى هي مقصد الكثير من المسلمين في سنغافورة، خصوصا الهنود منهم؛ فالرجل الذي أسس السوق هندي الأصل، والبعض يقول إنه من بنجلاديش، عموما لا يهم، فالأصل واحد، لكن يبدو أن الرجل كان يتمتع بعقلية تسويقية كبيرة؛ فقد استطاع أن يجمع كل ما يريده الزبائن تحت سقف واحد؛ فكل ما يخطر على بالك تجده في هذا المكان، وبأسعار هي الأقل في سنغافورة، كما يشتهر كذلك بتغيير العملات وبأعلى سعر في سنغافورة،

وبالطبع لا تستطيع التحرك في المركز في يومي السبت والأحد، فيبدو أن كل هنود سنغافورة يتواعدون في هذا المكان، حتى ظننت أنني في مومباي أو مدراس.

تركت مركز مصطفى، على الرغم من كل المغريات السعرية التي به، بل وتركت كذلك الحي الهندي كله؛ فالهنود إذا تكاثروا في مكان فليس على مرتاديه إلا أن يغادروه فورا؛ فلديهم قدرة غريبة على جعلك هنديا مثلهم في لحظات، فمن يستطيع الصمود أمام ذلك الطوفان الهادر من البشر وتلك العواصف العاتية من الروائح المختلطة بتوابل من كل شكل وكل لون وكل طعم، بالإضافة لرائحة زيت جوز الهند، الذي تحرص على وضعه كل نساء الهند تقريبا فوق شعورهن الطويلة المنسدلة؟ فتجد نفسك، بقدرة قادر، قد بدأت تتحدث الإنجليزية وربما العربية كذلك، ولكن بلكنة هندية من أعماق نيودلهي، ويبدو هذا الأمر واضحا في دول الخليج بالطبع، التي يحرص مواطنوها ووافدوها كذلك على مخاطبة الهنود بلكنة غريبة ومضحكة، وهذا ما رأيته كذلك في سنغافورة.

ظللت أعطس طوال طريق رجوعي وأنا بداخل مترو الأنفاق، حتى بدأ الركاب ينظرون إليّ نظرات مريبة، وكأنني مصاب بإنفلونزا جديدة فاقت إنفلونزا الطيور الصيني، ويمكن أن نسميها إنفلونزا الديوك الهندي، ولكن ماذا أفعل بعد هذا الكم من الروائح الهندية التي سكنت في أنفي وعششت في «نخاشيشي»؟!

حتى وصلت أخيرا لمحطة «بون لي»؛ حيث توجد محطة الأتوبيس،

متخيلا أنني قد تخلصت نهائيًّا من الباعة الجائلين الهنود، حتى خرجت فوجدت على باب محطة المترو بائعا صينيا جائلا يبيع بعض الفواكه الاستوائية في علب بلاستيكية شكلها أنيق حقا، فأيقنت بأنني لا مفر لي اليوم من باعة سنغافورة الجائلين، وقررت أن أنفِّع هذا الصيني وأشتري منه شيئًا، فأخذ مني خمسة دولارات حتة واحدة، ثمنا لفاكهة تسمى «رامبوتان»، حمراء اللون من الخارج وبيضاء من الداخل، تذوقتها بعد الشراء فكانت أقرب لطعم الخيار، ومن يهرب من البائع الهندي لا يفلت حتما من البائع الصيني!!

(21) امرأة واحدة بمائة رجل
وعشرة آلاف خروف

نسمع كثيرًا عن المسك المعتق، أو عن اللؤلؤ المكنون، أما عن الرائحة المكنونة، فهذا تعبير غريب وجديد، ومن منشآتي أنا، على رأي عبد الفتاح القصري، ولكني على يقين من أنكم ستقبلونه حقا مني، خصوصا إذا أردت أن أصف به شعوري عندما شممت هذه الرائحة لأول مرة، فلم يكد أنفي المسكين يتخلص من رائحة توابل الهنود ورائحة زيوت شعر نسائهم العجيبة، حتى رزقني الله بتلك الرائحة الإعجازية، التي ما زالت تسكن في جيوبي الأنفية، ربما حتى الآن، منذ زيارتي الأولى لسنغافورة، قبل أكثر من عشر سنوات؛ فقد كانت رائحة شديدة التميز بالفعل، ولا تشمها فقط بأنفك ولكن تسمعها كذلك بأذنيك، رائحة أغنام أسترالية «مأصَّلة» مكنونة ومعتقة و«تُمأمئ» منذ زمن بعيد، تكاد تسمع ثغاءها من رائحتها، حتى لو لم تكن هذه الأغنام موجودة أصلا ! !

كانت هذه هي المرة الأولى التي أشاهد فيها على الطبيعة ذلك النوع من البواخر؛ فقد كنت أقرأ عنها فقط في كتب تصميم السفن، التي تسمى «livestock carrier»، وهي البواخر المخصصة لنقل الرؤوس الحيوانية

الحيـة، مثـل الأبقـار والأغنـام والمـاعز؛ فليـست كـل الـدول تـستورد اللحـوم مذبوحة، فهناك دول تحرص على ذبح المواشي بنفسها، ويتطلـب ذلـك نقلـها على بواخر مصممة لذلك الغرض، وهي عبارة عن حظائر ضخمة متنقلة، وكانت إحدى كبريات هذه الحظائر، أو عفوا البواخر، قد رست بجوار سـفينتنا جنبـا إلى جنب في الحوض الجاف، ما كـان يتطلـب منـا المـرور عليهـا في الـذهاب وفي العودة.

كان أمر السفينة عاديا بالنسبة لنا، وإن كنت أنا أراه للمرة الأولى، لكـن الغريب حقا والذي لم نرَه من قبل، لا أنا ولا باقي أفـراد الطـاقم الأقـدم مـني في المهنة، كان جناب حضرة قبطان تلـك الـسفينة والآمـر النـاهي والمـتحكم في كـل طاقمها وفي كل ركابها من صنف الخراف والماعز والأبقار وحتـى الـثيران، هـي «فراو» ألمانية شقراء الشعر وزرقاء العينين، رأيناها وهي تتجول باستمرار على سطح السفينة لتتابع أعمال الـصيانة واللحـام والقطـع، مـا بـين طاقمهـا وعمـال الحوض الهنود، وتعمل بمائة رجل من نوعيـة قبطـان سـفينتنا، الـذي لم يكـن يغادر مكتبه المكيف إلا للضرورة القصوى، وعلى الرغم من أنهـا كانـت ترتـدي «الشورت» و«السالوبيت»، لكنها كانت تتابع العمل بعيون صقر حادة، ترى كل متكاسل، وبمخالب نسر ينقض على كل مقصر، لكن بيد حنون كذلك تربت على أكتاف كل مجيد، حتـى تحولـت ملابـسها تلـك بقـدرة قـادر في المـساء لفـستان «سواريه» بالدانتيل والترتر، عندما رأيناها وهي خارجة متأبطـة ذراع زوجهـا

عند المغرب.

كان زوجها «الهر» الهمام يقيم معها على السفينة، بلا عمل طبعا، فقد كان مرافقا للمدام؛ فعادة عندما تدخل السفن الكبيرة للحوض الجاف، تمكث تحت الصيانة لفترة طويلة قد تقترب من الشهر، على حسب الأعمال المطلوبة لها، فيقوم البحارة (الأوروبيون بالطبع) باستدعاء زوجاتهم، أو أزواجهن على حسب جنس البحار، أو لنقُل على حسب جنسيته؛ فذلك النوع من الترف والاستمتاع بالحياة لا يقوم به إلا السادة الأوروبيون، لكننا نحن أهل الشرق الأوسط، قد كُتب علينا العذاب والشقاء طوال العمر، تحت مسمى العيب، الذي يجعل كل منا يترك حاله وماله ليشغل باله على الدوام بأحوال الآخرين! !

كان المنظر عجيبا حقا، عندما رأينا حضرة جناب القبطان تتأبط ذراع زوجها «أنجاجيه» وهي تُغادر السفينة، بينما البحار الفلبيني من طاقمها يضرب لهما تعظيم سلام، فقد انتهى وقت العمل الجاد، وبدأ وقت الاستمتاع بالحياة، وما العيب في ذلك؟! ما دمنا في وقت العمل نعمل ونكد، وفي وقت راحتنا نودع هذا الجد، فالمهم ألا نخلط الضد بالضد.

راقني منظر الزوجين بالفعل، فقد كنت أمشي وراءهما حتى البوابة، غير قاصد طبعا؛ فالطريق واحد، وعلى الرغم من روائح الخراف العجيبة، التي تركاها لنا على السفينة، فإن روائح «دولتشي آند جبانا» و«كريستيان ديور»، كانت تسبق خطواتهما في الطريق، تلك الروائح التي وصلت بالفعل لحارس

بوابة الترسانة، الذي سمح لهما بالخروج دون أي اطلاع على الأوراق، على عكس ما كان يحدث معنا تماما، ويبدو أن الشعر الأصفر والعيون الزرقاء في الباسبور كذلك جواز مرور، بعكس الشعور السوداء والعيون شرحها، بجبهاتهم المعروقة دائما، والمكتوب عليها «احترس.. هذا إرهابي»!!

ولكن على كل حال، كان منظر استمتاع الزوجين بالحياة، حتى وهما على مشارف العقد السادس من العمر، شيئا يستحق الإعجاب بالفعل، وأين ذلك الزوج من رجالنا بشواربهم الطويلة وأنفاسهم المقطوعة من الشعبطة في الأتوبيسات، وزهرة أعمارهم الضائعة في البحث عن فرصة عمل وفرصة زواج، ربما تأتي إحداهما بالصدفة قبل سن الأربعين؟ وأين تلك المرأة من نسائنا اللاتي ينهد حيلهن قبل بلوغ الأربعين من كثرة الحمل والولادة، وبعد الأربعين من كثرة المناهدة، وكأن كل وظيفتهن في الحياة هي زيادة عدد الأفواه الجائعة على سطح الكرة الأرضية؟ أو أين تلك القبطانة الألمانية كذلك من سيدات نوادي الروتاري والليونز لدينا، اللاتي يشغلن أنفسهن بقضايا المساواة بين الجنسين في الوظائف المرموقة فقط، مثل القضاء والسلك الدبلوماسي؟ وكأن المساواة غير مطلوبة في وظائف المحاجر والمناجم، فإما أن تتساوى المرأة في كل شيء، وإما أن تقبل بأصول اللعبة منذ البداية.

نعم، هذه المرأة بمائة رجل، من نوعية قيادات أعرفها جيدًا تملأ البلاد العربية، ولا تعرف عن القيادة إلا أنها مغنم قد صار في اليد، وسيادة وتعالٍ على

خلق الله بإصدار الأوامر، التي لا يعرفون كيفية تنفيذها في الواقع، لكن القائد الحق هو من يتوسط مرؤوسيه ويشعر بهم وبآلامهم وأوجاعهم، حتى لو لم يكن يمد يده في العمل معهم؛ فالمهم أن يضع كلا منهم في محل المسئولية، وفي المكان الذي يصلح له، عندها لن يحتاج المرؤوسون لمن يسوقهم مثل القطيع، كما تُساق عشرة آلاف رأس من الخراف، تحملها سفينة تحت قيادة تلك المرأة، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تقوم هي بنفسها بتقديم الطعام والماء والدواء لكل رأس منها في كل صباح!!

(22) غرامات «تقطع الوسط»

إذا أردت أن تتعرف على مدى تحضر بلد ما، فلتنظر على قواعد المرور في شوارعه وطرقاته، ومدى التزام المواطنين بتلك القواعد.. هكذا يقولون في أدبيات تحضر الأمم، والمرور في سنغافورة هو تاج على رؤوس مواطني ذلك البلد؛ فعلى الرغم من أنه بلد مزدحم للغاية، وعلى الرغم من أن المواطنين فيه يحملون ثقافات متباينة للغاية، ويتحدثون بلغات مختلفة كذلك للغاية، فإن الناس في الشوارع يتناغمون معا في سيمفونية راقية من النظام والالتزام بأخلاق وآداب المرور؛ ففي ذلك البلد يُعطَى الطريق حقه فعلا، وليس كلاما نردده في الخطب والسلام!!

وشوارع وطرق سنغافورة ليست واسعة بالقدر الذي تراه في دول الخليج، أو في الولايات المتحدة طبعا، ويمكنك أن تصفها بشوارع أوروبا الضيقة القديمة؛ ففي سنغافورة الأرض لها قيمة وثمن غالٍ جدا؛ فلا توجد أرض هناك أساسا ليتم تبديدها، ولكن مع ذلك تبدو الشوارع أكثر اتساعا وسيولة، ولا أذكر أنني قد رأيت تكدسا في أي شارع مررت فيه، رئيسيا كان أم جانبيا، ولا حتى استمرت إشارة من إشارات المرور بلونها الأحمر الدامي الممل مضيئة إلى ما شاء الله؛ فهنا البنزين كذلك له قيمة، ولا يجب أن يحترق هكذا من دون سير فعلي

في الشوارع، والأهم أن عادم السيارات لا يجب أن ينطلق هكذا في الهواء من دون فائدة حقيقة لحركة السيارات؛ فالاعتبارات البيئية من أولى الأولويات في ذلك البلد، وسماء سنغافورة التي تغطي شوارعها الأكثر ازدحاما هي الأكثر زرقة وشفافية على مدار العام.

وهنا تتجسد الحقيقة التي يجب أن نعلمها، وهي أن الزحام ليس هو المشكلة على الإطلاق، إذا اقترن معه النظام والالتزام بالقواعد والقانون، والالتزام يعني السيولة، والسيولة هي المفقودة في شوارعنا الكارثية، والسبب طبعا هو غياب الالتزام (نظرية جديدة للعبد لله!!)، تلك الشوارع التي تركوا مهمة تنظيم مرورها لضباط وأمناء شرطة، مع أن المرور في الأصل علم وهندسة، وله دراسات وإحصاءات علمية، لن يقدر عليها بالطبع من لم يستطع تنظيم وقته أساسا ليفلح في دراسته، حتى نسند إليه كذلك مهمة تنظيم حياة الناس في الشارع، فتكون النتيجة هي وجود «حاكم بأمره» يجلس على كرسي وترابيزة بشمسية، ليتحكم في خلق الله الغلابة، طبقا لحالته المزاجية، وربما الزواجية!!

وسنغافورة، التي أغلقت مناطق بأكملها في وجه السيارات وجعلتها فقط للسائرين على الأقدام وراكبي الدراجات، تعتمد في الأساس على منظومة كبرى من النقل الجماعي؛ فخطوط المترو والأتوبيس الدورين تغطي كل بقعة من أنحاء سنغافورة، وتستطيع من أي مكان في المدينة أن تصل لأي مكان آخر في وقت

قصير، بل إنك تقطع الجزيرة كلها طولا أو عرضا فيما لا يزيد على ساعة واحدة، وهذا ما حسبته بنفسي في المترو، من محطة «بون لي» وحتى محطة «شانجي إير بورت»، ولهذا صار اقتناء السيارات الخاصة هنا شيئًا نادرًا جدًّا وللأغنياء فقط، كما أن العمال هنا، وما أكثرهم، يستخدمون الدراجات العادية أو النارية، ويمكنك أن ترى عائلة بأكملها مكونة من أب وأم وطفلين وهم يتنقلون على فسبة واحدة، و«الجودة بالموجود» و«بساط المحبة يساع من الحبايب ألف».

لكن الأهم في ضبط المرور في هذا البلد، الذي أنشأ كل هذا الالتزام المدهش، هو القانون الصارم الذي يُطبَّق على الجميع، خصوصا على أهل القانون ذاتهم، فلا يمكنك تطبيق قانون في بلد وأهل الشرطة أو القضاء فيه هم أول من يستثنون أنفسهم من تطبيق هذا القانون، بل ويضعون ملصقات وعلامات على سياراتهم ليجاملوا بها بعضهم على حساب المواطنين العاديين، وما أفلحت أمة جعلت عين القانون فيها عوراء، تُعاقب من تريد وتعفو عمَّن تريد، من حاملي الكروت أو أرقام المحمول الجاهزة للخدمة في كل وقت؛ فعين القانون والعدالة يجب أن تكون عمياء، لا تفرق بين البشر أيا من كانوا، وهذا هو سر نجاح الأمم المتحضرة، ومنها سنغافورة بالطبع.

ومن سبل تطبيق هذا القانون: المراقبة المستمرة للشوارع وإشارات المرور؛ فالكاميرات تراقب المارين والسيارات في كل مكان، والأهم أن الغرامات

في هذا البلد «تقطم الوسط»، السنغافوري منه وكذلك الأجنبي من الصنف السياحي، فلا يوجد أحد على رأسه ريشة، إلا الطواويس التي أوشكت على الانقراض، وحتى لو كان المرتكب للمخالفة من زوار البلد وأتى لينفع أهله ببعض الليالي التي سيبيتها في فنادقه، أو ببعض الوجبات التي سيتناولها في مطاعمه، وببعض الأصابع والركب التي سيطقطقها في جلسات «المساج والاسبا»، لكن على الزوار أن يلتزموا حدودهم، ويا بخت من زار وخفف من مخالفاته، ولك أن تتخيل أن أقل غرامة تتعدى 500 دولار سنغافوري، وتتصاعد بالطبع بحسب نوع المخالفة، أي أن مجرد ارتكابك لمخالفة في سنغافورة قد تضطر فيها جنابك لبيع عفش بيتك في المزاد، لتستطيع سدادها على داير المليم، أو داير السنت طبعا.

ولا تقتصر الغرامات هنا على مخالفات المرور فقط، ولكن على كل شيء يتعلق بالشارع وحرمته؛ فرمي المخلفات في غير المكان المخصص لذلك في الشوارع مخالفة، تغرِّم فاعلها غرامة كبيرة، ولا تطمئن جنابك إذا لم يضبطك أحد بهذا الفعل؛ فهناك كاميرات تسهر ليل نهار لتراقب كل شيء، كما أن التدخين ليس ممنوعا فقط في وسائل المواصلات، ولكنه ممنوع كذلك في كثير من الأماكن العامة، وفي المباني الحكومية، ولهذا الناس هنا يمشون على العجين ولا يلخبطوه أبدا، بل يصنعون منه خبزا «مستوِي» على الآخر، و«قابب» ما شاء الله.

(23) العملاق العربي في الحوض

لا تستطيع أي سفينة مبحرة من الشرق الأقصى إلى جنوب آسيا وشرق وغرب أفريقيا أو الشرق الأوسط، وبالضرورة إلى أوروبا أو بالعكس، إلا أن تمر على محطة رئيسية لكل السفن، في تلك المنطقة التي تعتبر الأكثر ازدحاما بحركة مرور السفن في العالم، وهذه المحطة هي سنغافورة طبعا، التي توفر من جانبها كل الخدمات لتلك السفن المارة عليها، من التموين بالوقود وقطع الغيار اللازمة للمحركات أو تموينات الطعام ومستلزمات الإعاشة لأفراد الطاقم وتغيير أفراد الطاقم الذين يأتون لسنغافورة بالطائرات، ليلتحقوا بسفنهم بعد ذلك في الموعد المحدد، أما الغرض الأهم لتوقف السفن في سنغافورة فهو الصيانة والإصلاح في الترسانات، التي يسميها البحارة «أعمال الحوض»؛ حيث يتم فيها رفع السفن لإجراء أعمال الصيانة للأجزاء الغارقة منها في ماء البحر بصفة دائمة، مثل البدن والقاع والدفة والرفاص وفتحات مرور مياه البحر من وإلى صهاريج اتزان السفينة، بالإضافة إلى أعمال الصيانة لعنابر البضائع والماكينات، التي تتم بالتوازي مع أعمال الحوض، ومن هذه الأعمال تجني سنغافورة ما لا يقل عن عشرة مليارات دولار سنويا.

ويوجد من أحواض السفن نوعان: الأحواض العائمة، وتلك تُستخدم لرفع السفن الأصغر حجما، والأحواض الجافة، وتُستخدم في رفع السفن الكبيرة

وناقلات البترول، وهي الأكثر انتشارا في سنغافورة، التي تركز على صيانة السفن فقط، أما نشاط بناء السفن فبعد التأرجح بين ترسانات اليابان وكوريا الجنوبية، فقد استقر الحال حاليا في ترسانات الصين؛ نظرا لرخص الأسعار وقدرة الصينيين على تقليد أي شيء، حتى مركبات الفضاء، في إطار خطتها لجعل جيوب كل دول العالم فضاء! !

وصناعة السفن انتقلت من دول غرب أوروبا إلى آسيا بعد الحرب العالمية الثانية، ثم تطورت على أيدي اليابانيين، بينما ظلت دول أوروبا الشرقية، التي سارت ترسانات مصر على نهجها، محلك سر، فقد ظلت كلتا المدرستين على التزامها بنشاط بناء السفن الجديدة، بينما ظل نشاط الصيانة والإصلاح غائبا عنهم، وهو الأكثر ربحية بالطبع، فكم من السفن يُبنى في كل عام، مقارنة بعدد السفن التي يتم إجراء صيانات لها، وهذا هو الطريق الذي سارت فيه سنغافورة، التي توجد بها ترسانات من أحدث وأكثر ترسانات العالم تقدما، مثل ترسانة «كيبيل» وترسانة «جيرونج»، فسنغافورة لا تبني أي سفينة توحد ربنا، ولكن أحواض سفنها الجافة لا تخلو نهائيًّا من سفن تحت الصيانة.

ولو افترضنا جدلا أنه يمكن المقارنة بين صناعة السفن في مصر وصناعة السفن في سنغافورة، فسوف نجد العجب العجاب؛ فمصر بدأت في صناعة بناء السفن في عهد محمد علي باشا، بل إن الأسطول البحري المصري الذي أنشأه باني نهضة مصر الحديثة قد تم بناؤه كليا في ترسانة أنشأها محمد علي في

الإسكندرية، ولا تزال موجودة حتى الآن، بل وتوجد في مصر ترسانات كبيرة، في الإسكندرية والسويس وبورسعيد والإسماعيلية، وعلى ضفاف النيل في المعصرة في حلوان، وترسانة الإسكندرية كانت تبني سفن بضائع كبيرة منذ الستينات، ولكن لا يبدو أن كل هذه الإمكانات والخبرات قد أفادت شيئا يضيف للدخل القومي المصري، بل يمكن أن نقول: إن هذه الترسانات تخسر بالفعل حاليا، بينما سنغافورة التي لا تبني أي سفينة تكسب سنويا من صيانة وإصلاح السفن مليارات الدولارات!!

وفي دولة تمتلك قناة تمر بها أكثر من ستة عشر ألف سفينة سنويا، ولا توجد بها أي ترسانة لها القدرة على استقبال أي سفينة للصيانة بمنطق تجاري، وحتى ترسانات هيئة قناة السويس قد أغلقت نفسها على صيانة وحدات الهيئة فقط، على الرغم من وجودها في موقع تتمناه كل ترسانات العالم، فتقع في ممر رئيسي لمرور السفن، وتقترب من موانئ أوروبا ومن الشرق الأقصى، وتتمتع مصر بطقس مناسب جدًّا لنشاط صيانة السفن، لكن قيادات هذا المجال لا توجد لديهم أي رؤية أو تخطيط للمستقبل، في حين أن نشاط صيانة وإصلاح السفن لا يتطلب فقط إنشاء ترسانات، ولكن إنشاء منظومة متكاملة من الصناعات المكملة وتدريب فنيين متخصصين، والأهم توفير الخدمات اللوجيستية التي توفر لك قطعة الغيار التي تريدها السفينة، خلال 24 ساعة أو أقل، على أكثر تقدير؛ فاليوم وربما الساعة تفرق الكثير في دنيا السفن، لكن عندنا صار مجال

بناء وصيانة وإصلاح السفن، بل والنقل البحري كله، الذي صنع أسطولا كان هـو الأعظم في المنطقة والثالث في العالم، بعد إنجلترا وفرنسا في عهد محمد علي، ولم ينـهزم إلا بعد أن تواطأت عليه كل أوروبا وتركيا وروسيا، ليصير مرقدا ومـلاذا أخيرا يلوذ به ضباط البحرية المتقاعدون، ليضعوا علـى بابـه لافتـة: هنـا يرقـد المرحوم! !

دخلت سفينتنا هادئة إلى الحوض الجاف، الذي كان ممتلئا بماء البحـر، ثم تم إفراغه في أربـع سـاعات تقريبـا، لتـستقر الـسفينة علـى مخـدات (تكـاوي) خشبية، انطلق بعدها جيوش من العمـال الآسـيويين، في منظومـة عمـل متكاملـة ومنظمة، وقد علم كل أناس أشغالهم فيها، وعلى الـرغم مـن أن الـسفينة قـد بـدت مثل العملاق الذي خلع ملابسه، فبدت عارية من المياه التي كانـت تحـيط ببـدنها من كل جانب، فإن هذا العملاق قد تقزّم تماما، بعـد قـدوم عمـلاق حقيقـي ليقـف بجانبنا، ليحجب عنا رؤية أي شيء، ويمنع عنا حتـى إرسـال التليفزيـون، فقـد كان هذا العملاق ناقلة نفـط مـن النـوع الـسوبر « Very Large Crude oil Carrier VLCC»، وعرفنا أنها مملوكة للشركة الكويتية لناقلات البترول، وكان طولها وارتفاعها يزيد أكثر من مرة ونصف المرة على سفينتنا، أمـا حمولتهـا فحدث ولا حرج، فتقترب من خمسة أضعاف حمولـة سـفينتنا البطـة الـصغيرة، التي وقفت خاضعة بجوار تلك الإوزة الكبيرة السمينة.

لم تكن هناك فرصة للتعرف على الإخـوة الأشـقاء الكـويتيين مـن طـاقم

الناقلة الجارة لنا؛ فقد نقلتهم شركتهم للإقامة في فندق خمس نجوم، ولا يحضر معظمهم إلى الناقلة إلا نادرا، وكنا قد عرفنا أنهم ليسوا من الطاقم الأساسي للناقلة؛ فقد عينتهم الشركة الكويتية فقط أثناء أعمال الحوض لاكتساب الخبرة، ثم يتم تسليم الناقلة بعد ذلك للأجانب من الفلبينيين والهنود لتشغيلها، وكان هذا من سوء حظنا بالطبع، فقد فاتتنا فرصة الاستفادة من خبرتهم التي اكتسبوها من الإقامة في فنادق الخمس نجوم! !

والحقيقة أن الخمس نجوم هذه لم تكن فقط في الفنادق خارج الترسانة، ولكن في داخلها كذلك؛ فقد كانت جميع الورش التي أمرُّ عليها في طريق ذهابي وعودتي بالفعل ورش خمس نجوم؛ فالورش كانت توقف ماكيناتها في السادسة مساءً تمامًا، بينما لا تغلق أي باب، بل تُترك الأبواب مفتوحة وعلى عينك يا تاجر، وتبدو الورش أنظف من الصيني بعد غسيله، فكل شيء مرصوص في مكانه، والأرضيات في غاية النظافة، ولا يبدو أن هناك عمالا كانوا يعملون فيها على قدم وساق نهارا، لتعود الماكينات لتعمل مرة أخرى في السابعة من صباح اليوم التالي، كخلية نحل يظل النحل فيها يطنُّ حتى المساء، ولكن هذا النحل لا يترك خليته أبدا إلا وهي قمة في النظافة.

وعلى الرغم من أنني قد تمنيت، بعد رؤية نظافة ونظام تلك الورش، أن أرى أي «مستشفى» في مصر على هذا المستوى، أما الورش عندنا فلها رب يحميها، وربك قادر على كل شيء.. قولوا آمين! !

(24) حكاية «ديفيد».. الرجل الأسطوري

دولة كاملة قائمة بذاتها كانت في هذا المكان الذي يعج بالحركة والعمل؛ فكل شيء محسوب وله وقت محدد، ولا ينبغي بأي حال من الأحوال تجاوز هذا الوقت؛ فالتأخير يعني غرامات قاسية على المسئول عن ذلك التأخير، ويوجد خبراء محايدون يقدرون الخسائر وعلى أي طرف تكون، وكله بالورقة والقلم والساعة، والحسابة تحسب طبعا؛ فأعمال صيانة وإصلاح السفن في الأحواض الجافة يتم حسابها بدقة متناهية؛ فهي مكلفة بطبيعتها، وليس باليوم فقط، بل بالساعة أيضا، التي ستفرق في فاتورة الحساب الكثير، وفي سنغافورة الحساب لن يكون في يوم الحساب، كما نقول نحن؛ فهناك ألف عين تراقبك أنت وسفينتك، وألف حبل يربطها في الرصيف، حتى لا تغادر مكانها قبل الدفع، فلا أحد في سنغافورة يبكي على اللبن المسكوب؛ فالبكاء هناك يكون دائما «على راس الميت»، ذلك الميت الذي سيكون سفينتك، بعد حجزها لحين استيفاء فواتير الحوض.

وفي الوقت الذي تفخر فيه أي ترسانة في العالم بأن لديها حوضا جافا كبيرا يستوعب أي سفينة حتى ناقلات البترول الكبيرة، يوجد في ترسانة «كيبيل» أكثر من عشرة أحواض جافة، وكنت عندما أسير ما بين تلك الأحواض

أتخيلها أحواضا لغسيل «الوش» لا للسفن، من كثرتها وكثرة السفن فيها، فالحوض الواحد يمكنه أن يستوعب ثلاث سفن متوسطة الحجم، أو سفينة واحدة من الحجم السوبر، مثل ناقلة النفط الكويتية المجاورة لنا.

وعمل الأحواض الجافة هو عمل كثيف ومتشعب ويحتاج لتخطيط بالورقة والقلم وبرنامج باليوم والساعة، فلا يمكن تعويم سفينة وهي مفتوحة البدن من أسفل، حتى تدخل سفينة أخرى أمامها أو خلفها في الحوض، وكذلك لا يمكن تأخير موعد دخول السفينة الأخرى، باختصار نحن أمام عمل محسوب ومخطط له على أعلى مستوى من التناغم؛ فالخامات يتم توريدها في أوقاتها، والأعمال يتم إنجازها في الوقت المحدد لذلك، والفواتير كذلك يتم تحريرها لتتراكم على المكاتب أولا بأول، وكل هذا كان يتابعه شخص واحد أسطوري، ومخه كما كنا نطلق عليه «ذري»، وهذا الشخص يُدعى «ديفيد»، ولم نكن نعرف عنه أكثر من هذا الاسم، المكتوب على البادج «الملصق» المعلق على جيب أفروله.

لم يكن يبدو على «ديفيد» أي علامة من علامات التميز؛ فقد كان يبدو مثل شخص هندي عادي، قصير القامة ووجهه معروق ومجهد، أشبه بوجوه عمال التراحيل المنتظرين تحت كوبري إمبابة، الذين ظننا أن أحدهم قد ركب جناح السحاب، ليهبط علينا في سنغافورة مباشرة من تحت الكوبري، وهو يحمل الأجنة والشاكوش ودون ترانزيت، وذلك عندما دخل علينا «ديفيد» ليسأل عن بعض الأشياء، فلم نهتم به بعد أن خُدعنا في هيئته الملخبطة، حتى

عرّفنا بنفسه مشكورا بأنه مدير أعمال الحوض، وتلك وظيفة لا يقوم صاحبها أبدا بالخروج من مكتبه المكيف، ولكن ليس في سنغافورة، بل لدينا في الترسانات المصرية الخالية من السفن، أما في سنغافورة فربما صُنعت المكاتب لحفظ أوراق العمل فقط.

لكن «ديفيد» كان من بلدة تقع في شمال الهند، كما قال لنا عندما سألناه عن جنسيته، فقد كنا نعتقد أن اسم ديفيد هذا لا يمكن أن يكون هنديا بأي حال من الأحوال، فعلى الأقل يجب أن ينتهي اسمه بـ«شان» أو «خان» أو «سنج» كما علمتنا سينما «بوليوود» الهندية، والتي كان يتابعها كثيرون معنا على السفينة، ويظنون أن كل ما يرد في الأفلام الهندية هو تماما ما يحدث في الهند، كما يظن أهل الخليج في المجتمع المصري، الذي عرفه بعضهم من الأفلام المصرية، حتى إذا قابلك خليجي في بلاد الغربة، بادرك بالسؤال باعتبارك مصريا عن آخر أخبار كازينوهات شارع الهرم! ! ولكن «ديفيد» قد أكد لنا أن الهند بها مناطق بها «ديفيد» و«فيليب» و«جون»، تماما كما يوجد بها «قمر» و«أكبر» و«أنتوني»، كما كان يغني أميتاب باتشان في أحد أفلامه، التي شاهدها أحد الزملاء ليثبت أنه مصري هندي مشترك! !

لم يكن «ديفيد» يتابع سفينتنا فقط، لكن كان يتابع عدة سفن أخرى في الحوض، بل ويتابع حوضا آخر كذلك، ويحمل في جيبه نوتة صغيرة، يدون فيها ملاحظاته من هنا وهناك، ويلاحظ مئات العمال على مدار يوم عمله، الذي

يتنقل فيه من سفينة لأخرى مثل النحلة، حتى بدأ بعضنا يتابع الرجل باهتمام؛ ففي الوقت الذي ينشغل فيه كل منا في عمله الصغير على السفينة، وينوء بكم الأعمال الموكلة إليه، نجد هذا الـ«ديفيد» يتابع كل هذه السفن، ودون أي خطأ واحد، بل إنه يتذكر كل شخص تحدث معه في كل مرة!!

لم نكن ندري كم يوجد من نوعية «ديفيد» هذا في كل أحواض الترسانة، ولكن من الواضح أن العمل في سنغافورة يحتاج لأشخاص من نوعية خاصة، أشخاص يعتبرون العمل مهام محددة، ويجب إنجازها بخطط مدروسة، لا مجرد مواعيد دوام يجب قضاؤها والسلام، ولهذا كان «ديفيد» هو صورة ملخصة، للوجه الآخر لسنغافورة الذي كنا نراه للمرة الأولى، وجه رأسمالي قاسٍ قُح، يطلب منك أن تعمل بطاقة عشرة أشخاص، ولو نقصت منك طاقة شخص واحد وصرت تسعة، فعليك أن تسعى على رزقك في مكان آخر، يقبل بعمل تسعة أشخاص ويعطيك راتب شخص واحد.

(25) صيني اسمه «آي»..
و«آي» تعني «فرخة»

نـادرا مـا تجـد مـساعدا مـن دون اختـصاصات لأي موظـف في ترسـانة «كيبيل»؛ فوظيفة المساعد وفقط هذه لم تتجاوز دول العالم الثالث، فما معنـى أن توظف شخصا ما دون أن تعطيه أي تكليفـات محـددة بالعمـل؟ فقط هـو مجـرد «مساعد» يتحرك مع الخبير كظله، وربما يحمل له الحقيبة كنوع مـن المـساعدة بمسح «الجوخ»، وفي أغلب الأحيان يكون هذا المساعد هو عين الإدارة، التي تشك في أغلـب الأوقـات في موظفيهـا، فيـصبح المـساعد أو حتـى المستـشار مجـرد «عصفورة»، والحقيقة أن آخر ما يلتفـت إليـه المـسئولون عنـدنا هـو استـشارات المستشارين ومساعدات المساعدين، الذين وضعوهم فقط كـ«ضـالين» ليقولـوا لهـم دائما: «آمين»!!

ولأن الناس في الغرب، على الرغم من أن سنغافورة في الشرق لكن العقـل والفكر غربي، قد فهموا هذه الحقيقة جيدا، وفهموا كذلك أن العـبرة ليـست في كثرة الموظفين وتعدد المساعدين والمستشارين، إنما في سرعة إنجاز الأعمال بأقـل قدر من الخسائر، وإذا حدثت خسائر لا قدر الله فيجب أن يكون المتـسبب فيهـا معلوما جيدا، وهذا لن يتأتى بالطبع إلا بتحديد المسئوليات، بمعنـى أن يعـرف

كـل عامـل مـا عملـه، وأيـن، وكيـف، ومـاذا، ومتـى، وهـذه الخمـسة أسمـاء للاستفهام: «ما، أين، كيف، مـاذا، متـى» هـي سـر نجـاح أي مـشروع؛ فهـذه الأشياء هي ما يجب أن يعرفه من سيؤدي العمل؛ فـ«ما» هي ماهية وطبيعة هذا العمل، و«أين» هي المكان الذي سيتم فيه أداء ذلك العمـل، و«كيـف» هـي كيـف سيؤدي هذا العمل، و«ماذا» هي ماذا يلزم لأداء هذا العمل من معـدات وخامـات وعمالة، و«متى» هي متى سيتم تسليم هذا العمل، ومتى هذه فقط كانـت مهمـة مستر «آي».

ومستر «آي»، أو هكذا كان مكتوبا، على بادج أفرولـه «Mr;I»، ظللنـا كثيرًا نعتبره مجرد شخص سد خانة، فقد كان لدينا على السفينة كـثيرون مـن نوعية هؤلاء السد خانة، وكان «آي» يأتي في كل مرة ولا يكلم أحدا نهائيا، فقـط كان يشير بيده ليأخذ الإذن بالنزول لأسفل غرفة الماكينات، ومعه ملفات وقوائم مراجعة «Checklists»، ويتجول لمدة خمس دقـائق علـى الأكثـر، ليـسجل بعض الملاحظات في قوائمه، ثم ينصرف وهو يبتسم ابتسامة صينية، لم تكن لها أي مغزى لدينا، فهو في النهاية صيني، والصينيون في نظرنا مجرد بـني آدمـين شبه بعض.

ولكن بفضول المصريين المعروف، أصر واحد منا ذات يوم علـى التحـدث مع «آي» ومعرفة ما إذا كان صينيا صينيا أم أنه صيني تايواني، فمـاذا سـنعرف عن الصينيين أكثر من ذلك؟ والبركة في أفلام «جاكي شـان»، وتقـدم الأخ ليـسأله

عن اسمه بالكامل، على اعتبار أننا لم نقرأ من اسمه إلا حرفا واحدا وهو حرف «I»، فضحك الرجل ضحكة صينية ربما تكون ضحكة مقلدة طبعا، فأنا أعتقد أنه لا يوجد أي شيء صيني أصلي حتى الآن، عدا فناجين الشاي المتبقية من طقم الصيني الخاص بالمرحومة والدتي، المهم قال بإنجليزية صينية أصلية: « My name is I»، والحقيقة أن السيد «آي» قد نوّر المحكمة، فقد كنا ننتظر منه هذا التوضيح بالفعل، فسألناه مرة أخرى عن معنى اسمه هذا الغريب، المكون من حرف واحد، فقال الرجل إن اسمه ليس بالإنجليزية، ولكن بلهجة أحد أقاليم الصين، ويعني بالإنجليزية «Chicken»، فلم يبادره أحد منا بالسؤال عمَّا إذا كانت هذه الفرخة مشوية أم محمرة، أم على طريقة كنتاكي فرايد تشكين، فلم نكن ندري بالطبع مدى تقبل الصينيين للهزار المصري، الثقيل منه أو الحرَّاق «سبايسي»، أو ربما خوفا من مستر «آي» الذي يمكنه تسجيل هزارنا معه ويأخذه معه للصين، لتُعيد تصديره لنا وللعالم كله بعد ذلك، كمنتج هزار مصري تقليد صُنع في الصين الشعبية!!

انصرف الأخ «فرخة»، الشهير بـ«آي»، بعد أن علمنا أنه موظف مهم في الترسانة؛ فهو مسئول عن ضبط الجودة والالتزام بالبرنامج الزمني المحدد للأعمال، لكن الغريب في الأمر أن إدارة الترسانة كانت تضع لتلك المهمةِ «المهمة» مجرد «فرخة»، والمفروض أن مهمة مثل هذه، من وجهة نظرنا نحن، لا تحتاج أقل من «ديك رومي» حتى ينفش ريشه على الجميع.

(26) هذه الأشياء لا تحدث في سنغافورة

أوشكت زيارتي لسنغافورة على الانتهاء، ولكن ظل يلح عليَّ سؤال واحد، كنت أسأله لنفسي كلما شاهدت وجوه الناس في الشوارع وفي المطاعم والكافتيريات وحتى في الفنادق، كنت أسأل نفسي: «هل الناس في سنغافورة سعداء؟»، و«الناس» هنا تعني مواطني سنغافورة، وليس من يقدم إليها للسياحة، أو حتى لزيارة قصيرة للعمل مثل العبد لله.

وعلى الرغم من أن الإجابة عن هذا السؤال تبدو صعبة في نظر البعض، خصوصا لو كان الأمر يتطلب إجراء بحوث ودراسات وإحصاءات علمية واستطلاعات للرأي من طرف مراكز علمية مستقلة ومحايدة، تختلف بالطبع عن استطلاعات وإحصاءات مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار التابع لمجلس الوزراء في مصر، التي تُظهر المصريين دائما من أكثر شعوب الأرض سعادة، لكن المسألة في الحقيقة تبدو سهلة جدًّا في سنغافورة، حتى لو كان المجتمع السنغافوري متعدد الأعراق والثقافات والمستويات الاقتصادية، لكن هناك مؤشرًا سهلاً جدًّا يمكن تطبيقه في ذلك البلد، هو مؤشر جودة الحياة.

وجودة الحياة هنا تعني أن المواطن يعيش حياته بسهولة، فلا يُعاني صعوبة في الحصول على أشياء المفروض أنها حق دستوري له في الأساس؛ فالحق

في التعليم والعمل والعلاج والعدالة والأمـن والحيـاة في بيئـة نظيفـة هـي حقـوق دستورية لا جدال فيها، وكذلك الحق في اختيار الحكام ونواب الشعب بطريقـة ديمقراطية حرة لا تخضع لتوجيه أو نفوذ من أحد، والحـق في الـسير في شـوارع نظيفة ومنظمة والمرور فيها آمن ولا يخضع إلا لسلطة الدولـة، لا لـسلطة الباعـة الجائلين أو فارضي الإتاوات واللصوص والبلطجية، كل هذه حقـوق لكـل مـواطن تجاه الحكومة، وكل هذه الحقوق للمواطنين تأتي بالطبع بالتوازي مع واجبـات المواطن تجاه الدولة، المثلة في الحكومة، وعلى رأسها دفـع الـضرائب المفروضـة عليه قانونا، والالتزام بجميع القوانين المنظمة للحياة، وبهذا يتحـول المجتمـع لمنظومة من الحقوق والواجبات، التي تلتحم مـع بعـضها كـتروس تـدير الحيـاة التي يحياها المواطن كعنصر أساسي من عناصر الإنتاج للدولة وللمجتمع الذي هو جزء منه.

فكيـف لمـواطن أن يعمـل وينـتج إذا لم يجـد وسـيلة مواصـلات سـهلة ومريحة وغير مكلفة له ماديا ليذهب بها لمقر عمله القريـب كـذلك مـن سـكنه؟ وكيف له أن يعمل وينتج وهـو خـالي البـال إذا كـان لا يـأمن علـى أولاده الـذين تركهم في البيت، أو ترك أحدهم مريضا في فراشه ولا يملك أن يدفع له مصاريف العلاج؟ وكيـف لـه أن يعمـل وينـتج إذا لم يـشعر بعدالـة توزيـع زملائـه علـى مناصبهم في العمل طبقا لكفاءتهم؟ وهل يمكنه الإخلاص في العمل إذا كان رئيسه في العمل أقل منه كفاءة وصعد فوقه بوساطة أو محسوبية أو قرابة؟ وهل يستطيع

الإنسان الإنتاج وهو يحصل على نفس الدخل الشهري لزميله الكسول؟ وكيف ينتج أساسا وهو يعتبر أن دخله الشهري أقل كثيرًا من الجهد الذي يبذله في العمل؟ وكيف له أن يعمل بذهن صافٍ وهو يفكر في كيفية الحصول على خبز لأطفاله أو أسطوانة غاز طلبتها منه زوجته في الصباح، وبسببها قد خرج من البيت دون أن تُعد له كوبا من الشاي، أو لم يجد الماء أساسا لينزل له من الحنفية حتى يغسل وجهه على الصبح، فاضطر للخروج و«العماص» في عينيه؟

وكل هذا فقط عن حقوقه في المنزل وفي العمل، لكن الحياة ليست كلها ما بين المنزل والعمل، ألا يوجد حق له في الترفيه والراحة؟ هل تتوافر الحدائق والمتنزهات ليقضي فيها إجازته مع أولاده، حتى يرجع لعمله وهو أكثر نشاطا وحيوية، لا أن يقضي الإجازة في كي ملابسه وقلب ياقات القمصان المهترئة، أو رتق الأحذية التي أكلها الأسفلت من كثرة المشي، أو أن يقضي إجازته على أبواب المصالح الحكومية لينهي فيها أوراقه المعطلة لأسباب تافهة، مثل تعديل اسم طفل من أطفاله، أخطأ في كتابته موظف راسب دائما في الإملاء؟

وكيف يعيش المواطن آمنا وهو الذي يتجنب دائما دخول قسم الشرطة؛ لأنه ببساطة يعرف جيدا أن هذا المكان الذي أُنشئ أساسا لتطبيق القانون وخدمة المواطنين قد أصبح بقدرة قادر مثالا للقفز على القانون وعلى حقوق المواطنين، وأن السادة الضباط فيه قد حوَّلوا أنفسهم لباشاوات، وبدلا من أن يخدموا الناس بوظيفتهم، صار على الناس أن يخدموهم بالأمر، وإلا تنصبُّ عليهم التهم

الجاهزة، مصحوبة بمرمطـة الكرامـة سابقة التجهيـز، مـن الـسادة المخـبرين وأعوانهم من المسجلين خطر؟

تلك هي مؤشرات جودة الحياة، عفوا ليـست في سـنغافورة، فهـذه هـي الحياة البسيطة الضرورية لكل مواطن في أي بلد، المواطن الذي لا يطلب أن يمتلك سيارة خاصة، ولا يطمع في إجازة في قرية في الساحل الشمالي، ولا رحلة بحرية على يخت في شرم الشيخ، ولا دعوة لرحلة غطس في الغردقة، ولا يحتفل بعيـد ميلاده في «أبل بيز»، أما في سنغافورة فالأمر يختلف كثيرًا؛ ففي سنغافورة لـك كل الحقوق ما دمت تعمل، أما إذا انقطعت عـن العمـل لأي سـبب غـير المـرض، فأنت لست خارجا على القانون الـسنغافوري فقـط، لكنـك خـارج مـن المجتمـع السنغافوري نفسه، وربما ضد الدولة السنغافورية ذاتها، فمـن يريـد أن يعـيش هناك يجب أن يعمل، أو أن يبحث له عن بلد آخر يطعم المواطنين الأصحاء وهـم أطول من دلفات باب زويلة لكـنهم لا يعملـون، وأعتقـد أن كـثيرًا منـا حاليًّـا لا يحب الحياة في سنغافورة، فلن نجد فيها وظائف كثيرة، لا تتوافر إلا لـدينا في مصر، وبرواتب فلكية لساعة العمل الواحدة، من ساعات العمل الحقيقي!

(27) جزيرة سانتوزا

بما أنني قد أوشكت على مغادرة سنغافورة، فقد حان الوقت لوصف الأشياء التي كنت أتمنى أن أشاهدها هناك، ولكن رأيتها فقط من بعيد، نعم لا تتعجبوا، فمن هذا الذي يمكنه المشاهدة والتمعن في كل شيء في بلد ما حتى أهله؟ وكم منا من لم يشاهد أماكن كثيرة في مصر على الرغم من أنها مقصد مهم لكثير من السائحين الأجانب، وأعرف أناسا لم يغادروا مسقط رأسهم حتى احتضنهم تراب هذا المسقط، والتجربة السنغافورية الصناعية والتجارية والسياحية جديرة بالدراسة والتمعن، وليس مجرد المرور عليها لضيق الوقت؛ فالزيارة أساسا زيارة عمل، أو لضيق ذات اليد، فلم تكن الزيارة بغرض السياحة والتسوق، كما يفعل الإخوة في الخليج، الذين لا يفوِّت بعضهم عاما دون السفر للخارج، خصوصا لدول جنوب شرقي آسيا، حتى يخرجوا من جو ضغط العمل الذي يؤديه نيابة عنهم الآسيويون أيضا!!

والحقيقة أن الإحاطة بكل ما تحتويه سنغافورة من أماكن تستحق الزيارة هي شيء في غاية الصعوبة حتى للسائح؛ فالبلد، المكون من جزيرة واحدة كبيرة وعدة جزر صغيرة تحيط بها، يمثل بانوراما متكاملة من التصنيع والتجارة والترانزيت والسياحة والتسوق والترفيه، في منظومة على أعلى

مستوى، لا يمكنك بأي حال من الأحوال أن تحيط بها في زيارة واحدة ولا حتى في عدة زيارات؛ فسنغافورة تتغير كذلك في كل مرة تراها فيها، ولهذا قد حان الوقت للتقصي عن الأماكن التي مرت كلقطة سريعة وعلقت بالذاكرة بالأسماء والروايات فقط.

والأماكن والقصص كثيرة ومتعددة، منها ما حدث بالفعل، لكن حكاية واحدة هي التي لفتت انتباهي، هذه الحكاية كانت عن جزيرة استوائية، مررت عليها ورأيتها فقط من بعيد، فلم تكن هناك فرصة لزيارتها مع الأسف، على الرغم من أنني كنت أرى الأشجار والحيوانات على مرمى البصر، في جزيرة كاملة أشبه ما تكون بحدائق المنتزه في الإسكندرية، وقد جعلوا الوصول إليها بعدة وسائل مواصلات، على رأسها «التلفريك» مثل ذلك المنتشر في جبال الألب بسويسرا، وفي جبل لبنان، على حد علمي، وتلك الجزيرة تسمى جزيرة «سانتوزا».

وجزيرة سانتوزا جزيرة صغيرة الحجم، لكنها عظيمة المحتويات؛ فهي ليست مجرد حديقة استوائية، وإنما حديقة حيوان كذلك، وعلى رأس الحيوانات الموجودة بها الأسد الأبيض النادر جدا، الذي اتخذته سنغافورة شعارا لها، ذلك الشعار الذي برأس أسد وبجسم سمكة ويسمى «Merlion»، بل إن كلمة «Singapura» نفسها، بلغة الملايو، تعني في اللغة الإنجليزية «Lion Temple» أو بالعربية «معبد الأسد»؛ فالأسد في سنغافورة يعني

الكثير ثقافيا وتاريخيا، وشعار الدولة موجود في أكبر ميادين البلد، وكذلك أمام المباني الحكومية، ولهذا يوجد ذلك الأسد ضمن أشهر حيوانات الحديقة، وكذلك النمر الأبيض، ويبدو أن كل شيء في سنغافورة أبيض في أبيض، فسنغافورة من البلاد التي تأتي لأمثالنا فقط في المنام! !

ويوجد بالجزيرة كذلك «الأكواريوم»، وهو عبارة عن أحواض زجاجية يمكنك من خلالها مشاهدة الأحياء البحرية على تنوعها، وبها كذلك حديقة للفراشات وحديقة للحشرات، وتتميز الجزيرة برمال شواطئها البيضاء، التي تنتشر عليها أشجار النخيل الاستوائي ونخيل جوز الهند، كما توجد بالجزيرة قلعة تحيط بها تماثيل لجنود ومدافع منصوبة، وبها أربعة فنادق على أعلى مستوى، تقدم خدمات الاستشفاء والتدليك والمساج والذي منه، لرواد الحديقة من السائحين، وكل هذا على عهدة الراوي الذي زار الحديقة وحكى لي، فلم أحظَ بتلك الخدمات السبع نجوم على كل حال.

لكن الملاحَظ في تلك الحديقة أنها لا تختلف كثيرًا عن جزيرة النباتات التي توجد لدينا في أسوان، وكنت قد زرتها قبل عامين، والتي أنشأها خالد الذكر ضحية تزوير التاريخ الخديو إسماعيل، والتي لا ينقصها إلا تلفريك وبعض الترويج السياحي، حتى يأتي لها السائحون كذلك من جميع أنحاء العالم، فعلى الأقل توجد جزيرة النباتات في وسط النيل، وتحيط بها مجموعة من الجزر الصغيرة، ولو تطلب الأمر إحضار أسد أبيض فلنحضر أسدا أبيضَ أو

حتى أسدا «فوشيا»، وكله من أجل الترويج السياحي، وما أكثر الأسود في حديقة حيوانات الجيزة، ولن يرفض الأسد بالطبع، وأنا أضمن ذلك، ومن لا يصدقني فليسأل الأسد!!

المهم أن نستغل هذه الجزيرة سياحيا بدلا من أن نتركها هكذا فريسة لأصحاب الفلايك الصغيرة، كما حدث مع العبد لله عندما زار أسوان الحبيبة، ولولا تذكرة العودة لما رجع للقاهرة أبدا بجيوبه المنفضة.

والغريب أن جزيرة النباتات في أسوان قد تم إهداؤها (آه والله إهداؤها) لحضرة فخامة اللورد «كيتشنر»، ممثل دولة الاحتلال البريطاني، نظرا لخدماته الجليلة في السودان، والحقيقة أن جناب اللورد مشكورا قد عمل على تزويدها بالنباتات النادرة، بمساعدة وزارة الري المصرية، حتى يقيم بها ويستمتع بشمس أسوان الرائعة، التي لم يكن يراها في ضباب لندن الحالك، ثم رحل اللورد ورجعت الجزيرة بأمان الله للحماية المصرية، بعد أن تركتها الحماية البريطانية، لتستقر أخيرا بين يدي الحماية (المراكبية).

ويجب أن نعي أنه ليس مهمًّا أن تكون للدولة موارد طبيعية، لكن المهم أن يتم استغلال تلك الموارد بصورة تعود بالنفع على اقتصادها، وبالتالي على مواطني تلك الدولة، وجزيرة «سانتوزا» خير مثال على ذلك، ما بين دولة تمتلك القليل لتصنع منه الكثير جدا، ودولة تمتلك الكثير جدا ولكن لا تستفيد منه شيئا!!

(28) عجائب المشتريات

حان وقت الرحيل ومغادرة سنغافورة العزيزة، فلم تتبق لنا إلا ساعات قليلة، وربما لا تزيد على يوم واحد على أكثر تقدير، وكما أنني لم أكن أعرف وجهتي التالية، كذلك لم أكن أعرف متى بالضبط كان يتحتم علينا مغادرة ذلك البلد، الذي مكثنا به أكثر من شهر، ورأينا وسمعنا فيه ما لم تره عين في سنة، ولا سمعته أذن في سنين، ولكن هكذا الدنيا لا يستقر حالها على حال، ومنذ أن خلقها الله واستخلف الإنسان فيها وهو يستعد من الرحيل إلى الرحيل.

لكن ساعات الرحيل لها مع المصريين طعم آخر، طعم مر وثقيل جدًّا جدًّا، ليس على النفس فقط، ولكن على الأكتاف وربما على الظهور كذلك؛ فالثقل هنا هو ثقل حقائب السفر، وربما الأكياس والكراتين الممتلئة والمربوطة بالأحبال، التي يحملها كل مصري أصيل، مستِّفًا فيها مشترياته من كل بلد يغادر منه إلى مصر، ليبدو البلد بعدها وكأن شيئا لم يتبق في أسواقه لكي يشتريه أهله المساكين!!

ومحترفو السفر يعرفون جيدًا أن الشراء وحمل الحقائب الثقيلة طابع مميز في المصريين، وجنسيات أخرى قليلة ربما يكون فيها عرق مصراوي، وفي الوقت الذي تجد فيه السائح الأجنبي يسافر وهو يحمل معه فقط حقيبة «هاند باج» يعلقها على ظهره، وقد يتخذها كذلك للنوم كوسادة، تجد فيه الإخوة المصريين، من أمثالي وأمثالكم، يحملون كل ما ثقل وزنه ورخص ثمنه، في

مشهد متكرر في كل مطارات العالم، وعلى رأسها مطارات الخليج بالطبع.

ولا أدري هل هذه النزعة المصرية الأصيلة قد ترسبت في أذهان المصريين بسبب سِني القحط والحصار الاقتصادي في بستان الاشتراكية في الستينات، التي كان المصري فيها محروما من كل شيء، حتى من الصابون «أبو ريحة» والسكر الأبيض المكرر، ليواجه بعد ذلك سنوات الانفتاح «السداح مداح»، التي جعلت أقصى آمال المصري والمصرية هي الحصول على زجاجة شامبو من «لاكتويل» و«آي لايك إت»، حتى إن البعض كان لا يستطيع الحصول على ثلاجة من شركة إيديال إلا إذا حجزها له قريب أو حبيب مسافر للخليج بالعملة الصعبة، وبرقم جواز سفره من السوق الحرة.

ويبدو أن هذا النهم لكل ما هو مستورد قد ترسب في الوجدان المصري، فصار السفر للخارج فرصة للبعض لشراء البضائع، التي لو فكر حاملها قليلا لوجد أن أغلبها موجود في أسواق العتبة، ولكفى نفسه شر الشراء والفصال والمناهدة والحمل والوزن والجمارك، والأهم شر نظرات عيون الجيران عندما يعود من السفر، التي تخترق كل حقيبة أو كرتونة، كأفضل من أفضل جهاز «إكس راي» في العالم، فتتسلل حتى بين ثنايا الأكياس، ويجد المسافر العائد بعد طول الغيبة كل من هب ودب متطوعا لحمل حقائبه عنه على سبيل المجاملة، وعلى سبيل جس النبض وتحميل الجمايل، التي قد تنتهي بزجاجة ماء تواليت أو برفان مضروب.

وهكذا كان الحال في الأيام الأخيرة لنا في سنغافورة؛ فقد انطلق السباق المحموم بين المتنافسين في الشراء، لتستيف الحقائب وربط الكراتين ببضائع جديدة وأخرى مستعملة وأخرى مخبأة لا يريد صاحبها الإفصاح عنها، ولله في خلقه شئون، فما بين القمصان والبنطلونات والجواكيت، ترقد علب الأدوية والمقويات و«الرويال جيل» وكبسولات «الجينسنج» الكوري وبرطمانات العسل الأسترالي وزيت كبد الحوت الياباني وأعشاب أخرى غريبة من الهند، وفي سنغافورة تجد ما يسرك.

أما عن الأجهزة الكهربائية فحدث ولا حرج، فهناك من اشترى كاسيت استيريو على أنه ياباني، ثم اكتشف أنه صُنع في الصين، ومن اشترى «كمبيوتر» مستعملا، لم ينته استعماله في دولة سنغافورة فقط، ولكن في مجاهل مجاهل أفريقيا، أو هذا الذي اشترى طابعة كمبيوتر مستعملة من دون خرطوشة الحبر، ثم اكتشف أن ثمن خرطوشة حبرها يساوي ثمن طابعة أخرى جديدة، أما النكتة فكانت في ذلك الذي كان يريد شراء سيارة مستعملة وقرر أن يشحنها لمصر على إحدى البواخر، لكنه تراجع في آخر لحظة بعد أن عرف أن القوانين في مصر لا تسمح باستيراد السيارات المستعملة، أما النكتة الأنكت منها فأنه لم يلحظ أن عجلة القيادة (الدريكسيون) في سنغافورة على اليمين! !

أما أشد الأمور غرابة فكان عندما اشترى أحد الزملاء بندقية رش، ولم يكن يعلم أنها ضمن قوائم البضائع المحظور الخروج بها من مطار سنغافورة

والسفر بها على الطائرات، حتى لو وضعها في داخل الحقائب الـتي ستُـشحن في بطن الطائرة، وهذا الشخص، غير المحظوظ بالطبع، قد تم إيقافـه بعـد ذلـك في المطـار لـمدة يـومين، وتم إلغـاء سـفره علـى الرحلـة المحجـوز لـه عليهـا، وفي سنغافورة يدققون تماما في إجراءات الأمن على الطائرات، خصوصا لو كان حضرة الراكب من مواطني الدول الإرهابية أمثالنا!!

ولكن كان الملاحظ في الجميع أن الكل كان يشتري بلا وعي، وينسى تماما أن هناك ميزانا للأمتعة في المطار، وأن هناك مبالغ سوف تُدفع من لحـم الحـي، وربما تكون الحقيبة بما فيها لا تساوي ثمن كيلـوجرام واحـد زائـد علـى الحـد الأقـصى، وهـو 30 كيلوجرامـا، وقـد تـصل الرسـوم لأكثـر مـن 25 دولارا للكيلـوجرام الواحـد، فيكـون البـديل المـر لـصاحب الحقائـب هـو إلقـاء بعـض محتويات حقائبه في صناديق القمامة في المطار، ولا جدال في هـذا الموضـوع؛ فـلا تساهل ولا مرونة هنا مع المـصريين، مثلمـا يحـدث في مطـارات جـدة والريـاض والدمام وباقي مطارات الخليج مع شركة مصر للطيران.

وأخيرا، علمنا بموعد مغادرتنا لسنغافورة، الـتي كنـا نتركهـا وقلوبنـا تقطر «أناناس وباباز» من كثرة ما أكلناه من فواكه استوائية في ذلك البلـد العـامر بأسواقه التي تبيع كل شيء، حتى أتت إلينا الأخبار السارة بأننـا مغـادرون إلى إندونيسيا، فوداعا يا سنغافورة يا أيتها العزيزة، لكم كنـت أتمنـى ألا أغـادرك أبدا، إلا إلى إندونيسيا طبعا!!

الرحلة الثالثة

إندونيسيا.. بلاد الجزر الحمراء

(1) من سنغافورة إلى إندونيسيا

طالت مدة إقامتي في سنغافورة، لكنها مرت عليّ كشالٍ حريري هادئ شفاف لا يحجب الرؤية عن العينين ولا يمكن لأحد أن يشعر به كذلك؛ لأنك ترى الدنيا من خلفه جميلة، وكأنك تنظر عليها في صندوق الدنيا؛ حيث تمر عليك الصور تلو الصور وأنت لا تملك إلا أن تعجب بها أيّما إعجاب، ولكن ما إن يُزاح الستار عن رأسك ويدخل ضوء الشمس، حتى تتكشف لك الحقيقة، لتجد أن ما رأيته لم يكن مجرد صور جميلة وفقط، ولكن كانت هذه هي الصور التي سمح لك صاحب الصندوق بأن تراها، فأنت لم ترَ كل شيء بالطبع، وحتى ينتهي عرض الصور عليك وينتهي كل شيء وكأن شيئا لم يكن، لتكتشف أنك لم تكن إلا مجرد زائر عابر، وأن هذا لم يكن بلدك، ولهذا قد تحتم عليك الرحيل، ربما تتمنى أن يكون بلدك هكذا، ولكن تبقى هذه مجرد أمنيات نتجت من انطباعات أيام جميلة، وهكذا دائما الأيام الجميلة تمر سريعا.

وكما يكون الفارق بين الفواكه المعلبة في علب الكمبوت والفواكه الأخرى الطبيعية الطازجة على فروع الشجر في ساعة صبح مندية، كان هذا هو الفارق بين سنغافورة، التي بدأنا نتركها رويدًا رويدًا، وإندونيسيا، التي صرنا نقترب منها حثيثًا حثيثًا؛ فالحقيقة أن الصورة التي أبهرتنا في سنغافورة قد بدأت

تكتمل معالمها في مخيلتي، فلم تكن إلا صورة صناعية من فعل الإنسان، لكن الصورة في إندونيسيا كانت طبيعية جدًّا وإلى أقصى حد؛ فالجزر تكتسي باللون الأخضر، في صور لا يمكن أن تراها إلا في بورتريهات مرسومة بمنتهى الحرفية، ولا يمكن أن يتم رسمها إلا في تلك البقعة من العالم، التي تتكون من آلاف الجزر التي تكوِّن أرخبيلا عظيما يضم إندونيسيا وماليزيا والفلبين وتايلاند ودولا أخرى، قد لا نراها على الخريطة، لكنها موجودة!!

كنا نتوجه بالتحديد إلى جزيرة صغيرة من جزر إندونيسيا، المكونة من أكثر من سبعة عشر ألف جزيرة، ستة آلاف منها فقط مأهولة بالسكان، أكبرها ثلاث جزر هي: «كاليمانتان» و«سومطرة» و«جاوا»، أما الباقي فمأهول كذلك، ولكن بـ«بسم الله الحفيظ» و«ربنا يجعل كلامنا عليهم خفيف»، وكان هذا هو كل ما قرأته في كتاب صغير عن إندونيسيا، تحسبا للوصول ورؤية كل شيء على الطبيعة.

لم نكن نحتاج إلا لخمس ساعات فقط لكي نصل بالسفينة إلى تلك الجزيرة الإندونيسية، القريبة جدًّا من سنغافورة، ولكن كان علينا أن نتغول قليلا وسط الجزر الإندونيسية حتى نصل للجزيرة المقصودة، التي لا أتذكر اسمها مع الأسف، فما أكثر الجزر المتناثرة في إندونيسيا، والتي تمرق السفن فيما بينها وكأنها ثعابين استوائية تتهادى بين الأحراش، ولا أدري لماذا تذكرت فيلم «العار» وتخيلت أننا حتى نستطيع الرسو بالسفينة على الجزيرة

فيجب أن يذهب أحد منا لكي «يفش الهوامش»، حتى استيقظت من تلك الخيالات السينمائية على صوت سرينة السفينة التي انطلقت لتعلن الوصول لأرض الجزيرة، تلك الأرض التي لم يفتحها المسلمون، ومع ذلك تُعد أكبر البلدان الإسلامية من حيث تعداد السكان؛ ففيها ما يقارب الربع مليار نسمة، وربنا يزيد ويبارك.

وعلى الرغم من أن الجزيرة كانت صغيرة بالفعل، فإننا قد توغلنا في داخل الجزيرة كذلك؛ فالميناء يقع على ضفاف نهر يخترق الجزيرة، ولا أدري من أين تأتي مياهه؛ فربما كانت من الأمطار المتساقطة على قمم الجبال التي كنا نراها قريبة منا جدا، أو ربما كان هذا النهر مجرد قناة ملاحية عادية محفورة لدخول السفن، والحقيقة أنني لم أحاول التأكد من ذلك، فالأمر كان يتطلب اختبار عذوبة المياه حول السفينة، ولكني تراجعت في آخر لحظة، فلو كانت المياه عذبة فربما سيكون فيها تماسيح، ولو كانت المياه مالحة سيكون فيها قروش، أي أنني مأكولٌ مأكولٌ في كلتا الحالتين لا محالة.

(2) أشباح الجزيرة الحمراء

كـان المنظـر غريبـا حقـا؛ فبعـد ناطحـات الـسحاب الـتي تركناهـا في سنغافورة، وأرصفة الموانئ المجهزة بكل شيء، حتى ماكينات البيبسي والأيس كريم بالعملة المعدنية منها والورقية؛ إذ بنا نرسو وسط أحراش حقيقية، كانت أشبه ما تكون بأحراش أفلام «طرزان»، الذي انتظرتـه يهـل علينـا معلقـا بأحـد الفروع، ولكن ظني قد خـاب طبعـا، لـيس في «طـرزان» فقط ولكـن في أهـل تلـك الجزيرة كذلك، فعلى الرغم من رسو السفينة لأكثر مـن سـاعتين، فـإن أحـدا لم يأتِ للسفينة ليسألنا عن «ثلث الثلاثة كم؟»، فنقول لـه علـى سـبيل المجاملـة: «واحد»، على عكس سنغافورة التي انتشر عمالها على السفينة حتى قبل إحكام رباطها بالرصيف!!

كان الرصيف بدائيا لأقصى درجة، ومنـشأً بأقـل الإمكانـات، والجـودة بالموجود، فقد كان مبنيا بمجرد قطع من صخور الحجر الجيري المسنودة بعروق من الخشب الطويلة، وبدت السفينة متوسطة الحجم وكأنها عملاق يـستند علـى جدار صغير متهالك، ولكن كان يؤدي الغرض على كـل حـال، لكـن ظـل هنـاك هاجس يداعب الجميع على السفينة، فكلما نظرنا للغابة والأحراش التي نقـف وسطها، والليل الذي بدأ يخيم على المكان، حتى صارت الأحراش مظلمة لأقصى

حد، فلم يكن هناك قمر ولا حتى نجوم في السماء، فكرنا في ما الـذي يـضمن لنـا ألا تخرج علينا عفاريت وأشباح إندونيسية من وسط هذا الظلام الموحش الرهيب والصامت إلا من أصوات سيمفونية موسيقية مرعبـة، مـن عـزف نقيـق الـضفادع وأصوات أخرى لم نكن نميزهـا، حتـى ظهـرت لنـا هـذه الأشباح فعـلا، الـتي رأيناها تخرج علينا كالجراد من بـين الأحـراش، وكانـت ترتـدي كـذلك اللـون الأحمر!!

كانت مفاجأة لنا جميعًا بالطبع، وإن لم تستمر كثيرًا؛ فقـد كانـت هـذه الأشباح تسكن في خيالات بعضنا فقط، بعد أن ظهر أن هذه الأشـباح الحمـراء لم تكن إلا عمال الشحن في الميناء، وقـد ارتـدوا «الأفـرولات» ذات اللـون الأحمـر، وكانت البضاعة كذلك حمراء اللون، بل إن التراب الموجـود علـى الرصـيف كـان كذلك أحمر، ولهذا سمَّينا الجزيرة باسم الجزيرة الحمراء، أما الـشيء الوحيـد الذي لم يكن أحمر في تلك الليلة فكان عروقنا التي هرب الدم منها مـع الخـوف والأسف، ولكن لم نكن ندري إلى أين هرب.

كانـت الجزيـرة حمـراء بالفعـل، ولـولا الأشـجار الخـضراء الكـثيرة والكثيفة الموجودة على أرضها لظننا أنها قطعة من جهنم، ولكن يبدو أن الجنـة لم تترك جهنم وحدها في هذا المكان، فخيمت عليه بأشجارها الوارفـة بمنتهـى الحنان، وسبب احمرار أرض تلك الجزيرة هو وجود خام الألومنيوم الأحمـر في ترابها، الذي يسمى تجاريـا خـام «البوكـسيت»، ويبـدو أن هـذه الجزيـرة هـي

جزيرة «بنتان»، التي كانت ولا تزال تصدر ترابها للخارج، ليصير حللا وأبوابا وشبابيك وطائرات وقوارب، وأي شيء نخاف عليه من الصدأ، باستخدام هذا المعدن العبقري، الذي حمى البشرية من النحاس وصدأه وجنزرته ورقص السادة المبيضين في حلل النحاس زمان.

(3) القردة تظهر من وسط التلال

كانت تلال خام البوكسيت منتشرة في كل مكان، وهي تدر علي أهل تلك الجزيرة ثروات هائلة، أو المفروض أنها تدر عليهم، فلم نرهم حتى الآن لنـرى أثر النعمة علـيهم، لكـن فقـط رأينـا تلـك الـتلال عنـدما أشـرقت الـشمس علـى الجزيرة؛ حيث جمعوها وجهزوها للتصدير، ليتم تحميلها على سفينتنا وسفن أخرى، ويبدو أنهم قـد أرهقـوا أنفـسهم ع الفاضـي؛ فقـد كـان الـتراب الأحمـر موجـودا في كـل مكـان، أو هكـذا رأينـاه عنـدما تركنـا الـسفينة للتجـول علـى الجزيرة، وسرنا وسط أشجار المانجو العالية، التي تنتشر على جـانبي الطريـق (المدق) غير المرصوف، والمؤدي إلى طريق السيارات الرئيسي، الذي انتظرنا عليه لأكثر من نصف ساعة، حتى ظهرت سيارة تاكسي وحيدة، وبـسائق إندونيـسي طبعا، كان يقود سيارة أحدث موديل من شـركة «أنتيكـا»، فقـد كانـت الـسيارة فيـات 1100 موديـل مـا قبـل الـسبعينات، والـتي يـسمونها لـدينا في مـصر «القردة»، فقلنا الحمد لله أنها أتت في السيارة، فلم تظهر لنـا أي قـرود أخـرى، خصوصا من فوق أشجار المانجو.

كان مظهر السيارة وسـائقها يـوحي بـأن الغنـى العائـد مـن تـلال ذلـك البوكسيت في الجزيرة لم يمس سكانها بأي لمسة رفاهية حتى الآن، على الـرغم

من أنه مُكتَشفٌ في الجزيرة منذ عشرات السنين، إلا تلك الرفاهيـة الواضـحة في الفيلات التي على جانبي الطريـق، والـتي يبـدو أنهـا كانـت مخصـصة للعمـال والمديرين الأجانب، أو المحتلين الأوروبيين، لا فرق، وهي تشبه إلى حد كـبير فيلات موظفي هيئة قناة السويس في مدن القنـاة، الـتي كـان يـسكنها الأجانـب كذلك، بطرازها الإنجليزي وأسقفها المائلة المغطاة بالقرميـد الأحمـر، ويبـدو أن الأجانب لا يبخلون علينا بترك بصمتهم على البيئة المحلية، ببناء تلك الأحياء المعمارية الراقية، حتى لو كان ذلـك مـن عوائـدنا الوطنيـة، تلـك العوائـد الـتي انتقلت مؤخرا من سارقيها المحتلين الأوروبيين إلى محتلين آخرين محليين، لم يكذِّبوا خبرا واستوعبوا الخبرة الأجنبيـة، ولكـن لـيس في إنـشاء تلـك التحـف المعمارية، ولكن في نهب العوائد الوطنية، دون أن يتركوا أي أثر علـى المنطقـة، فلم يبنِ المديرون الجدد أي مبانٍ جديدة ولا حتى محطة أتوبيس، وأحياء هيئـة قناة الـسويس في بورسـعيد والإسماعيليـة والـسويس لم تُـبنَ فيهـا فـيلا واحـدة جديدة بعد تأميم القناة في عام 56، اللهم إلا الفيلات المخصصة لـرئيس الهيئـة طبعا، وعندما أرادوا بناء مساكن للعمـال والمـوظفين بنـوا عمـارات كالحـة علـى الطراز الاشتراكي الروسي والـصيني، بـل إن الـبعض يُـصر علـى هـدم الفـيلات الكلاسيكية الأثرية الرائعة، التي لا تزال باقية مع الأسف، ولا أدري لماذا تبدو النعمة على الأجانب عندما يستغلون مواردنا، وعندما تنتقـل ملكيتهـا لمـديرينا الوطنيين! تجدهم يقنعوننا دائما بأنه لم يبقَ منها إلا ما نتسول بـه علـى بـاب

السيدة!!

عودة للإندونيسي سائق التاكسي، الذي كان يضحك بصورة غريبة، بعد أن استقبلنا بقوله: «السلام عليكم» بلغة عربية مكسرة، بعد أن علم أننا مصريون مسلمون، ثم سألنا عن الوجهة التي نريدها، فقلنا له بالإنجليزية التي لا يفهم معظمها: «على طول.. على طول»، فقد كنا نريد القيام بجولة حرة لرؤية معالم الجزيرة وفقط، فلم نكن نريد شراء أي شيء، بعد طول مدة إقامتنا في سنغافورة، التي اشترينا منها كل شيء نتخيله في الحياة، فانطلق السائق بالسيارة التي كانت «قردة» فعلا، وتسلقت الطرق الصاعدة وسط الجبال الخضراء.

كان منظر الجبال الخضراء في غاية الروعة والجمال، والأشجار والنباتات تكسو كل مكان، أشجار المانجو والجوافة والأناناس، وكلها كانت مثمرة وتفتح النفس المسدودة، أما الناس فكان يبدو عليهم الطيبة، وهم يلبسون قبعات مخروطية منسوجة من خوص النخيل، ولم يكن الجو حارا كما كنا نتخيل، على الرغم من أننا كنا في شهر يوليو وفي منطقة استوائية، ولكن يبدو أن ارتفاع مستوى سطح الجزيرة، أعلى من مستوى سطح البحر، قد قلل من درجة الحرارة، ولأننا أيضًا كنا نصعد بالفعل لأعلى، وإن لم نكن نشعر بذلك لأن الطرق كانت لولبية مثل الثعابين التي تمرق هي الأخرى بين المراعي والأشجار.

توقف السائق عن الضحك على غير العادة، فلم نكن نشاركه في الضحك أو حتى في الحديث، كما يرغب معظم سائقي التاكسي في العالم، خصوصا الثالث أو الفقير منه، ليتحفنا جنابه بنصائحه القيمة عن البلد وعن أهله وأسراره، وما يمكن أن نطلبه منه لكي يحملنا لبعض الأماكن الخاصة، دون حتى أن نطلبها صراحة منه، ويبدو أنه قد بدأ يشعر بالقلق منا، على الرغم من أننا نحن الذين كان يجب عليهم ذلك؛ فقد أخذنا هو إلى حيث لا ندري ولا نعلم، ولو كان قد سلمنا لعصابة من العصابات، فلن يسمع أحد لنا صوتا في تلك الغابات الشاسعة، ولن يعرف حتى الذباب الأزرق لنا طريق جرة، كما يقولون، خصوصا أننا قد توغَّلنا كثيرًا وسط الجبال والمزارع، ومن هذا الذي سينتشلنا إذا حدث في الأمور أمور؟ ولكن ما كان يطمئننا فعلا أن السائق كان يبدو عليه الطيبة الواضحة، كما أننا كنا أربعة والكثرة تغلب الشجاعة، هذا إذا لم يأخذنا إلى قبيلته، وهؤلاء كثيرون قطعا، وهم إندونيسيون ولا يعرفون أي كلمة إنجليزي، ولا حتى عربي مكسر، وربما عظامنا هي التي كانت ستتكسر.

ولكن، لحسن الحظ، فقد بادرنا السائق بالإشارة؛ فقد كان عاجزا عن التعبير بالإنجليزية، واستفسر عن الوجهة التي كنا نريدها، فيبدو أنه لم يفهم في المرة الأولى أننا نريد التجول جولة حرة في البلد، فأشرت له أنا ورسمت دائرة بإصبعي السبابة، ففهم أخيرا أننا نريد جولة لرؤية المناظر الطبيعية، فظل يلف بنا بين الجبال حتى وصل بنا إلى مركز تجاري كبير، يبدو عليه أنه حديث

البناء، وأشار لنا إن كنا نريد التجول فيه، فوافقنا وطلبنا منه أن يأتينا بعد ساعتين، ولم نعطه نقودا بالطبع، حتى نضمن عودته، فلو لم يأت حضرته لتوصيلنا للميناء، فلن يكون لنا أمل في الرجوع للسفينة، وربما لن نرجع إلى مصر إلا على يد البوليس، فمن هذا الذي يستطيع العثور علينا في هذا المكان إلا البوليس أو أجهزة التتبع بالأقمار الصناعية؟

تجولنا في المركز التجاري، والحقيقة أننا لم نجد فيه أي شيء يستحق الشراء، حتى خرجنا منه فوجدنا السائق ينتظرنا في الخارج، وهو يشرب كوب شاي إندونيسي في «الخمسينة»، فلم يكن قد غادر المكان وانتظرنا حتى خرجنا، عندها تأكدنا أن النذالة كانت تنتظرنا لو كنا قد دفعنا له الأجرة سابقا، ورجع بنا السائق من حيث أتينا، ولكن بأسرع مما كنا نتخيل، طمعا في مبلغ كبير، ولكن «دقدقة» المصريين قد وصلت لإندونيسيا، فلا يمكن أن نشتري منهم تراب جزيرتهم الأحمر، وكذلك يضحك علينا سائق تاكسي بسيارة «قردة»، فأقل واجب يجب أن يتم النصب علينا بمرسيدس «تمساحة» تليق بمقامنا.

(4) موقف محرج جدا لإندونيسي لا يعرف الإنجليزية

هلَّ علينا بقامته القصيرة، وهو يرتدي الطاقية السوداء نفسها التي كان يرتديها «أحمد سوكارنو» الرئيس الإندونيسي الأشهر، الذي نعرفه نحن في مصر بسبب ذكره في مسرحية عادل إمام «شاهد ما شافش حاجة»، وليس بسبب ثقافتنا واهتمامنا بالتاريخ الإندونيسي طبعا، ودعوته لمؤتمر «باندونج» لدول عدم الانحياز عام 1958، مع الزعماء «عبد الناصر» و«نهرو» و«تيتو»، ومن يومها بات جنابه مقررا دراسيا علينا في كتب التاريخ والتربية الوطنية، التي يبيعها معظمنا طبعا عند أقرب مقلة لب وفول سوداني، ومن هنا جاءت شهرته في مصر ودول أفريقيا وآسيا، حتى أطيح به في انقلاب عسكري على يد «سوهارتو» عام 1967، بعد أن أمضى في الحكم 23 سنة، ثم مات في عام 1970، ولكن يبدو أن صديقنا الإندونيسي الذي دخل علينا لم يمُت بعد، على الرغم مما كان يبدو عليه من أنه من جيل الرئيس السابق، وربما من جيل الذي سبقه، ممن رحلوا منذ زمن بعيد.

لم يكن صديقنا الإندونيسي العجوز يجيد اللغة الإنجليزية بالقدر الكافي، وقد بدا ذلك واضحا عليه، خصوصا عندما حمل لنا إلى السفينة عينات من

الفواكه الاستوائية التي يريد بيعها لنا، وقد فرشها على المنضدة في صالون السفينة، وصار يشير على كل فاكهة منها على المنضدة، ثم يكتب سعرها على آلة حاسبة كبيرة الحجم، ثم يعرضها علينا لنعرف السعر، وغير ذلك لم يكن يستطيع الحديث في أي شيء.

ولكن كعادة المصريين دائما، يستطيعون التفاهم مع أي لسان خلقه ربنا، وتحول الرجل بقدرة قادر، بعد أن كان يتفاهم معنا بلغة الإشارة العالمية، إلى ببغاء يرطن ويردد كلام أهل بحري في إسكندرية، ثم بدأ الرفاق يسألونه عن حاله وماله، فقال الرجل إن لديه محلا في البلدة القريبة من الميناء، وإنه يورد التموينات الغذائية للبواخر، ثم سألناه عن اسمه، فقال إن البحارة الفلبينيين يسمونه «Papa son»، وهنا ضحك الجميع؛ لأن الرجل الطيب لم يكن يعلم فعلا ما معنى هذه الكلمة القبيحة.

والحقيقة أنني شخصيا لم أكن أعرف معناها؛ ففي كل القواميس الإنجليزية لن تجد لها معنى؛ لأنها ليست كلمة إنجليزية من الأساس، فقد كانت لفظا منحوتا من كلمة أخرى شعبية دارجة، وما أكثر الشعبيات التي لا نعلمها من اللغة الإنجليزية، وكثيرا ما نسمع كلمات مثلها في الأفلام الأمريكية، وتحتها ترجمة مؤدبة من معامل أنيس عبيد بالقاهرة، وتكون الترجمة بجملة «عليك اللعنة» أو «بحق الجحيم» أو ما شابه ذلك، وكانت هذه الكلمة ترادف كلمة «Mama son»، وبعد أن سألت الإخوة عن معناها

اكتشفت أنه فضيحة بكل المقاييس، فـ«ماما صن» هي المرأة القوادة، كما يـسميها البحارة وغيرهم، فعلمت أن صاحبنا الـشيخ الإندونيـسي إمـا أنـه رجـل طيـب لأقصى حد، وإما أنه رجل خبيث لأقصى حـد، ولم أكـن أستطيع الحكـم عليـه بصراحة في هذا الموضوع؛ فالمرة الوحيدة التي ذهبنا فيها لمحله في البلد لم نجـد عنـده إلا المـانجو والمـوز والأنانـاس، ولم نجـد أي «مهلبيـة» يـا مهلبيـة، أو «شيكولاتة» يا شيكولاتة على رأي إسماعيل ياسـين، ويبـدو أننـا ظلمنـا الرجـل فعلا، الذي كان يجب عليه أن يتعلم الإنجليزية جيدا قبل أن يـنعم علـى نفـسه بهذا اللقب، حتى لو بلغ من العمر ثمانين خريفا، درءا للشبهات ولمكر العقـول التي تذهب أبعد من مستوى قواميس «إلياس» و«المورد».

كان محل الرجل بـسيطا جـدا، وأشـبه بالأكـشاك الـتي تحـيط ببيـوت الطلاب المغتربين في مصر؛ حيـث تـستطيع أن تجـد بهـا كـل شـيء، مـن إبـرة الخياطة إلى مـشابك الغـسيل، مـرورا بحجـارة البطاريـة للراديـو والكـشافات، وأمـواس الحلاقـة وحتـى بـنس الـشعر، ناهيـك عـن قـسم خـاص بالفواكـه والخضراوات، بالإضافة إلى المكسرات والتسالي من اللـب والفـول الـسوداني، أو الفول الإندونيسي طبعا، إحنا فين والسودان فين؟!

سحب الرجل لنا ثلاثة كراسي خرزان (خيزران)، من النوعيـة نفـسها التي كنا نستعملها في المقاهي زمان، ووضعها لنا تحت مروحة السقف؛ فقد كان الجو رطبا إلى حد ما ونحـن في سـاعات الليـل الأولى، وأحـضر لنـا أكـواب شـاي

ساخنة مع الماء البارد، والحقيقة أننا قد خجلنا بعد كل هذا الكرم أن نخرج مـن المحل من دون شراء أي شيء، فاشترى كل منا باكو لبان وكيس أرواح، كان ثمن كل منها عشرة آلاف روبية حتة واحدة، أي ما يعـادل دولارا أمريكيـا واحـدا، وعمار يا إندونيسيا.

(5) حذارِ من أكل المانجو في إندونيسيا

على الرغم من أنني قد حذرت قبل ذلك من أكل الشيبسي في فنادق دبي، لاعتبارات فواتيرية سياحية فندقيـة، لا تـترك شاردة ولا واردة إلا وتحاسب النزيل عليها، ونحمد الله على أن الشخير في الفنادق مجانا، وإلا كانـت فـواتير الفنادق ستتضمن بدل إزعـاج، أو بـدل إخـلاء للغـرف المحيطـة بغرفـة النـائم المشخر السعيد، لكن المسألة في إندونيسيا تختلف كثيرًا؛ فكل شيء هنا طبيعي، بما فيه الشخير بالطبع، ويمكنك أن تنام تحت هذه الأشجار الوارفـة وتـشخر بأعلى صوتك ولن يعترض عليـك أحـد، بـل إن صـوت شـخيرك قـد تُعجـب بـه الشجرات الوارفة فتُساقط عليك بعضا مـن ثمارهـا، عـسى أن تـستقر إحـداها في حنجرتك القوية فتسكتها إلى الأبد، خصوصا لو كانت الحبة الـساقطة مـن هـذا المانجو الشهي الطازج، المنتشر في كل مكان، ليس فقط على فروع الأشجار، لكنه متساقط أيضًا على الأرض، فقد كانت أشجار المانجو والجوافة المحيطـة بالمينـاء كثيرة بالفعل، لكن المشكلة أنه لم يكن يبدو أن لها صاحبا، لنشتري منه قفصين نقاوة، وكأننا على طريق القاهرة – الإسكندرية الزراعي.

ويبدو أن البعض قد شاور عقله وقرر الاقتراب من الشجر ليلتقط بعـض الثمار، عملا بمبدأ اشغل وقتك بالنقاوة حتـى يعـود الجنـايني، ولكـن يبـدو أن

الجنايني لم يكن موجودا أصلا، فلا يبدو أن أحدا يهتم بهذه الأشجار نهائيا؛ فقد كان المانجو الذي يكسو الأرض منها أكثر كثيرًا من الذي ظل ينتظر السقوط من على الفروع، ولكن ظل السؤال المُلِح عليَّ: لماذا تركه عمال الميناء هكذا، وبإمكان كل عامل منهم أن يعود لبيته وهو يحمل لأولاده يوميا ما لا يقل عن قفصين مانجة فص؟!

ولكن بقي خطر واحد منع الإخوة من اختلاس بعض ثمار المانجو المتناثرة، وكان هذا الخطر هو الكلاب التي توجد حتما كحراس للجناين، إلا لو كان الإخوة في إندونيسيا قد وجدوا حيوانات أخرى للحراسة غير الكلاب، فظلت العقول تودِّي وتجيب، ولأن لي خبرة جيدة بالمانجو، فقد كانت لدينا شجرة كبيرة أمام البيت (يرحمها الله الآن)؛ لذلك فقد قلت لهم، رفقا بحالهم، بأن المانجو لا يؤكل هكذا من على الشجر، فيجب أن يقطف ويخزن في التبن حتى ينضج، والتبن هو «مطحون بواقي حصاد القمح أو الأرز»، أو يمكن لف المانجو بورق الجرائد، أما ما هو موجود أمامهم فهو مانجو أخضر، وإما أن يكون صلبًا جدًّا أو مالحاً جدًّا، أما الجوافة فقد كانت أعلى من أياديهم القصيرة.

ولكن يبدو أنهم لم يأخذوا بنصيحة العبد لله، والتقطوا ما طالته أيديهم من فوق الشجر؛ فمقامهم أعلى من مجرد لَمِّ ما تحت الشجر، على اعتبار أن المانجو حتى لو كان أخضر وصلبا، فيمكن لفه في ورق الجرائد، وما أكثر صفحات الوفيات والإعلانات المبوبة في جريدة الأهرام وغيرها، لكن المهم ألا يتم

لفه في صفحات أخبار الحكومة، حتى لا تأخذ بدورها ضريبة مبيعات على العصير، وربما رسم تنمية على القشر والبذور!!

عاد الجميع إلى السفينة، وكل شخص منهم يحمل في يديه تلالا من المانجو، فلم تظهر أي كلاب لتخيفهم، وحتى عمال الميناء كانوا ينظرون إليهم وهم يضحكون، ثم بدأ النزاع على ورق الجرائد، فلم تكن كل الجرائد المخزنة في الكبائن تكفي ربع كمية المانجو التي تم التقاطها، خصوصا مع إصرار البعض على لفه في جرائد مصرية بالعربي، على اعتبار أن لفه في جرائد أجنبية حرام، أو يعتبر أكله في هذه الحالة مكروها أو فيه قولان، حتى صدرت فتوى رسمية من أحد الفقهاء على السفينة بجواز لف حبة المانجو في أي ورقة جرائد أو حتى ورقة مجلة، على ألا تحتوي على صورة غير لائقة طبعا، وبدأ سماحة المفتي بنفسه ولف المانجو الخاص به كله أولا، والضرورات في العصيرات تبيح المحظورات من المجلات!!

وبدأ الجميع يُمنِّي نفسه بعد نضج المانجو بالاستمتاع بشعور «محمد صبحي» في مسلسل «يوميات ونيس»، وهو حابس نفسه في الحمام ويجلس فوق البانيو ليلتهم قفص مانجو بالكامل، بعد أن «يزروط» كل شيء من حوله، فالمعروف أن فن «الإتيكيت» قد ضبط كل شيء، لكنه لم يفلح حتى الآن في ضبط زروطة آكلي المانجو، خصوصا التيمور منها والفونس، ولكن أحلام هؤلاء قد تحولت مع الأسف لسراب بقيعة، قد حسبوه لطفاستهم عصيرا، بعد أن تهور

أحدهم على حبة طرية، وقطعها بالسكين لمجرد حب الاستطلاع «المانجـاوي»، ففوجئ بالحقيقة المرة!!

كانت الحبة تسكن في داخلها دودة طويلة، وصدق فيمن قد التقطها المثل «لو كان فيها خير ما تركها طير»، ولم يكن قد تركها العمال هكذا تحت الشجر، فقد كان كل هذا النوع من المانجو، الذي لا أدري ما اسمه بالضبط، يحتوي على تلك الدودة التي تسكن في داخله، ربما لعدم رشه بمبيدات أو ما شابه ذلك، ولا أدري كذلك إن كان يُصدر للخارج لبعض الدول، التي تعصره في مصانعها بدوده، ثم يشربه المواطنون على عماهم ببروتينه، وكم يشربون أو يأكلون على اعتبار أن المثل يقول «أصغر منك كله»، وأهو كله بروتين وصحي ومفيد!!

لكن القصة لم تنتهِ عند هذا الحد؛ فعندما انتشر خبر دودة المانجو في السفينة وقيام الجميع بإلقاء كل غنائمه المانجاوية «الحلال» في صناديق القمامة، بقيت كمية كبيرة من المانجو في ثلاجة السفينة، كان قد وردها صاحبنا التاجر الإندونيسي الطيب، ودفعت السفينة ثمنها بالدولار طبعا، فقد هرع الطباخ للكشف عليها، فوجدها من نوع آخر سليم من دون دود، فتنفس الجميع الصعداء، وعلى رأي المثل «الدولار الحلال ما يضيعش في إندونيسيا».

(6) الصلاة الحرام في مساجد إندونيسيا

كان صوت أذان المغرب ينادي من مئذنة مسجد قريب منا، فنوينا الدخول للصلاة فيه، حتى سمعنا صوت منادٍ آخر ينادي من بيننا، وهو يقول عبارة غريبة على مسامعنا، فقد قال: «فُض فُوه» لا تصلوا في مساجد إندونيسيا؛ فالصلاة فيها ربما تكون حراما!!

وكانت هذه هي الفتوى التي أفتى بها أحد المفتين من الذين كانوا معنا، والذي كانت كل مؤهلاته الإفتائية تتلخص في لحيته الطويلة، التي لم يحلقها منذ أكثر من عشر سنوات، ربما توفيرا لأمواس الحلاقة، لكن الأهم أنه كان عائدا لتوه من رحلة إلى العراق، التي لم يكن يعرف قبل زيارتها أن المسلمين في العالم فريقان كبيران: فريق أهل السنة والجماعة، وهو الأكبر، وفريق آخر كونفيدرالي يتكون من فرق أخرى صغيرة من الشيعة بطوائفها المتعددة، وما يستجد من فرق «سياسية» ميزت نفسها على حسب المذاهب، التي لم تكن موجودة في الأساس على عهد النبوة الأولى، فكانت هذه أولى بوادر خلط الدين بالسياسة، التي تنسى دائما أن الكل في النهاية مسلمون يصلون لرب واحد، لكن الصلاة يجب ألا تكون في مسجد واحد، كما أفتى صاحبنا الشيخ بأقدمية الذقن الطويل.

ولأن أحدا منا لم يكن قد عمل مفتيا لأعالي البحار قبل ذلك، ولم نكن

نعلم كذلك بمذاهب أهل إندونيسيا، وهل هم من الشيعة أم من السنة، فكل ما كنا نعلمه عنهم أنهم مسلمون مثلنا، ولكن يبدو أن هذا لم يكن يكفي مفتينا الهمام، فطلب منا توخي الحذر والسؤال قبل دخول المسجد، قبل أن تقع الطوبة في المعطوبة، وتكون صلاتنا غير مقبولة في مساجد الشيعة، حتى انقسمنا نحن كذلك لثلاث فرق: فرقة قررت ترك موضوع الصلاة نهائيًّا اتقاءً للشبهات، وذنبهم في رقبة مولانا المفتي، وفرقة قررت الصلاة على أي حال، والنية محلها القلب ورب هنا رب هناك، وفرقة قررت سؤال المصلين الداخلين للصلاة، لكن الحقيقة أن الفرقة الأخيرة لم تصل لأية نتيجة.

كانت الإجابة واضحة ودائمة من كل إندونيسي رأيناه يدخل للصلاة في المسجد، وسألناه عن الصلاة في هذا المسجد على أي مذهب، فكانت الإجابة واحدة في كل مرة: «Salat inside»، فلم يكن يبدو أن أحدهم يعرف معنى السؤال، أو حتى الفرق بين السنة والشيعة، أو لنقل إنهم كانوا يعتقدون أننا نسألهم عن مكان الصلاة وفقط، فقررنا أن نصلي كذلك وفقط، فنحن نصلي لرب المكان لا لمن قام ببنائه، حتى أفتانا المفتي بفتواه الأخيرة، وهي أننا إذا رأينا أحدهم يسجد برأسه على قطعة فخار فالمسجد للشيعة، وإن كان يسجد على حصير المسجد مباشرة فهو لنا كسُنَّة، بلا شك، فطلبنا منه أن يتوقف نهائيًّا عن إصدار تلك الفتاوى بغير علم، فلم تكن مهنته إلا «كهربائي» على السفينة، ولم نعلم حتى الآن أن هناك كهربائية شرعيين، ونحمد الله أن هؤلاء القوم في آسيا قد أسلموا قبل أن تصبح الفتوى في الدين هي مهنة كل من هب ودب أو من عقله

تكهرب، أو مهنة من لا مهنة له.

كان المشهد مبهرا للغاية داخل المسجد، على الرغم مما كان يبدو عليه من البساطة الشديدة، وأشبه ما يكون بالمساجد في القرى المصرية؛ حيث الصلاة تكون على حصير مصنوع يدويا، قبل ظهور الحصير البلاستيك حاليا، وتتدلى من سقفه العالي مجموعة من المراوح الكهربائية البطيئة، أما الإضاءة فكانت بمصابيح الفلورسنت البيضاء، أو التي كانت بيضاء بعد تراكم بقايا فضلات الذباب عليها، ولكن الإبهار كان في الإضاءة الحقيقية، التي تنبع دائما من القلوب العامرة بالإيمان، والتي اصطفت للصلاة في أبدع منظر يمكن أن تراه أو أن تسمعه في حياتك.

والحقيقة أن السمع هنا أبدع من الرؤية، فما أروع أن تسمع القرآن ينساب من على لسان غير ناطق بالعربية؛ حيث تجد صعوبة النطق والتلعثم في الحروف والكلمات، ولكن اللسان يصر على القراءة، كما طفل صغير يردد الآيات التي حفظها للتو، فيقع في أخطاء النطق والتشكيل، ولكنها أخطاء يجازي بها الله عباده خير الجزاء، فسبحان من أنطق تلك الألسن بما لا تفهم من الكلمات والمعاني، لتدخل معهم في حالة من الخشوع الغريبة، التي تتلاشى معها كل تلاوات الطبلاوي والحصري والشيخ محمد رفعت.

انتهينا من الصلاة والحمد لله، على الرغم من كثرة الفتاوى التي كادت تمنعنا منها، ولكن كانت سعادتنا أكثر بالمسلمين هناك والفطرة التي فطرهم الله عليها.

(7) أكبر دولة إسلامية..

ولم يفتحها المسلمون

لم ينتشر الإسلام في تلك البلاد على يد جيش من المجاهدين يقوده قائد عربي مسلم، لكنه انتشر على أيدي التجار اليمنيين من عدن وحضرموت ومن عُمان، الذين كانوا يبحرون إلى جزر سومطرة وجاوا وغيرهما من جزر جنوب آسيا للتجارة، ليحملوا البضائع من هناك لليمن، وكثيرا ما كانوا يستدينون بباقي الثمن، حتى يعودوا إليهم في العام التالي، ليقضوا لأهل الجزر أولا ما عليهم من ديون، وقبل أن يشتروا منهم بضائع جديدة، فأحب الناس هناك ذلك الدين، الذي يأمر أهله بأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، حتى لو لم يكن الدائنون على نفس دين المدينين، فانتشر الإسلام هناك بقوة العقيدة لا بقوة السلاح، حتى صارت البلاد التي لم تفتحها جيوش المسلمين أكبر بلاد المسلمين سكانا حاليا، ونحمد الله أن الإسلام لم يظهر في الجزيرة العربية مع ظهور النفط والغاز، واستقدام هؤلاء الناس ليعملوا تحت مظلة الكفيل في الخليج! !

والحقيقة أن الإسلام قد انتشر في تلك البلدان الأعجمية انتشارا عظيما بقوة السماحة لا بقوة السيف، فصاروا أكثر تمسكا به، في الوقت الذي أصبحت فيه ديار المسلمين العربية هي أكثر البلدان ابتعادا عن تعاليم الإسلام

الصحيحة، التي تضع حقوق الإنسان وحرمة دمه وماله وعرضه في المقام الأول، وحتى قبل حرمة بيت الله الحرام.

كما أن للعلم مقاما رفيعا في القرآن الكريم، وأول كلمة نزلت من كتاب الله كانت «اقرأ»، ويمتلئ القرآن الكريم بعبارات مثل «يعقلون» و«يتفكرون» و«يعلمون»، ومع ذلك صارت بلاد المسلمين أقل البلاد احتفاءً بالعلم والعلماء، وكتاب الله لم يضع أحكاما فاصلة إلا فيما يتعلق بالأموال والأنفس والأعراض، أما ما دون ذلك فقد تُرك لاجتهاد المسلمين طبقا لمتغيرات زمانهم، أو ما هُم به أعلم من شئون دنياهم، كما أخبرنا النبي – صلى الله عليه وسلم – عندما أراد بعض الصحابة استشارته في كل أمور الحياة البسيطة، ولو أشار عليهم النبي بشيء لاعتبروه أمرا دينيا نافذا ولا يمكن تغييره تبعا لتغير ظروف الحياة، وبهذا يكون المسلمون قد وضعوا أنفسهم في قوالب جامدة، تماما كما فعل بنو إسرائيل مع موسى – عليه السلام – فكانوا كلما فرض الله عليهم شيئا سألوه عن التفاصيل، فتزيد عليهم المطالب التي تجعل من الدين قيدا يتقيد به كل إنسان، لا نورا من الله للبشرية حتى يهتدوا به ويسعدوا في الدنيا وينتهوا به إلى السعادة والنعيم في الدار الآخرة؛ فالدين في الأساس هو أسلوب حياة للفرد، لا طريقة لكي يتخلص الفرد من حياته لكي يضمن الآخرة، ولا يوجد مجتمع مثالي، وهؤلاء الذين يريدون تغيير المجتمع للصورة التي يريدونها ينسون في معظم الأحيان أن يغيروا من أنفسهم أولا قبل النظر باستعلاء على الخطَّائين من الآخرين.

(8) أصوات مصرية تغني في إندونيسيا

على الرغم من أن البلدة كانت تبدو صغيرة، وتبدو بيوتها بسيطة ومتناثرة هنا وهناك، بل وتستطيع أن تعدها على أصابعك بمنتهى السهولة، فإن قربها من الميناء وكثرة قدوم الغرباء من البحارة إليها قد جعلاها تمتلئ بالمحلات العامرة بالبضائع المختلفة، وكذلك بالمحلات التي تقدم الخدمات المختلفة، كالسنترالات وصالونات الحلاقة والمقاهي، حتى وجدنا محلا صغيرا وغريبا؛ لأنه كان يبيع أشياء لم نكن نتوقعها فعلا.

كان آخر شيء يمكن أن نتوقعه أن نسمع ذلك الصوت الخارج من هذا المحل؛ فقد كان الصوت هو صوت المطرب «عمرو دياب»، والمحل كان لبيع الأسطوانات المدمجة (السي دي) المنسوخة، وبداخل المحل رأينا أكواما من الأسطوانات، لمطربين مشهورين من جميع الجنسيات، ويبدو أن صاحب المحل قد عرف أن زبائن الجزيرة في تلك الأيام مصريون، فشغل لنا الأغنية الأشهر في ذلك التوقيت «حبيبي يا نور العين».

ولم يكن المحل لبيع أسطوانات الأغاني فقط، ولكن أسطوانات الأفلام والمسلسلات كذلك، وأغلبها أسطوانات الأفلام الهندية، ولكننا قد وجدنا رفًّا كاملاً يحتوي أفلاما مصرية حديثة وقديمة، بل وبعض مسلسلات رمضان

الشهيرة، مثل مسلسل «هارون الرشيد» ومسلسل «عمر بن عبد العزيز»؛ ففي هذه البلاد يعشقون كل ما يمت لتاريخ الإسلام بصلة، هكذا قال لنا البائع الذي كان يعرف بعض الكلمات العربية المكسرة، وقد ذكر لنا أن والده كان يتمنى السفر للقاهرة، ليتعلم في الأزهر الشريف، لكنه لم يستطع ذلك لفقره، وقد أراد أبوه إرساله هو بعد ذلك، لكنه لم يرغب في الدراسة الدينية، فبيع الأسطوانات في نظره أفضل حاليا!!

مس كلام البائع وترا في قلبي، فقد رجعت بذاكرتي لزمن لم أعشه بالطبع، وقت أن كانت القاهرة تشع نورا على مسلمي دول جنوب شرقي آسيا، بقوتها العلمية الناعمة الصادرة من الأزهر الشريف، الذي كان يصدر الدعاة لتلك الدول بل ولأرض الحجاز، مهبط الإسلام الأول، نفسها، حتى يعلموهم علم الإسلام وفقهه وشرائعه، بطريقة علمية وأكاديمية صحيحة، على ألسنة شيوخ مؤهلين درسوا ورسخوا في العلم، وليس بطرق عشوائية تغلب عليها الآراء الشخصية، كما انتشرت المدرسة الفقهية الخليجية حاليا، التي تركز على طريقة أداء العبادات والمظهريات، وتنسى أو تتناسى المعاملات، وهي جوهر ولب الدين؛ فالدين في الأصل هو طريقة لتهذيب المعاملات بين الناس؛ فـ«الدين المعاملة»، أما العقائد والعبادات فهي بين العبد وربه، وتدخلك فيها بغير النصيحة بالحسنى لا يتفق مع مبدأ الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وهذا الذي يركز على ملابس ولِحَى الناس، ويملأ الدنيا نصحا

وضجيجا لكل من هب ودب، بينما ينسى حقوق الغير والجار والطريق والـصدق والأمانة وعدم أكل حقوق الناس بالباطل، لا يفعل شـيئا إلا أنـه يُكَـرِّه النـاس في شريعة الله، وهو يظن أنه يـدعوهم إليهـا، وربمـا يكـون هـذا هـو أحـد أسـباب انصراف بائع الأسطوانات عن الدراسة الدينية، واكتفى فقط ببيعها علـى هيئـة شرائط وأسطوانات ومسلسلات وأفلام؛ فأغلب شيوخ الزمن الحالي يفعلون ذلك، بل وأغلبهم ليسوا شيوخا من الأساس!!

والحقيقة أننا من قصَّرنا مـع أولئـك النـاس؛ فمـن لـديهم أقـدم جامعـة للدراسات الإسلامية في العالم ولا يستغلونها في نشر تعاليم الإسلام الـصحيحة، بل وفي الترويج للبلد نفسه، هم يشبهون تماما من لديه كنز مدفون يعلم عنه كل شيء، لكنه لم يحاول مرة واحدة أن يستخرجه ويستفيد منه، بينما يظل يصرخ بين الناس: «عندي كنز.. عندي كنز»؛ فعلى حد علمي أنه بجانب الدعاة الذين كانوا يُرسَلون لتلك البلاد في الماضي، كانت هناك منح دراسية مجانية لأهل تلك البلاد، للقدوم والدراسة في جامعـة الأزهـر، حتـى يعـودوا لـبلادهم بعـد ذلـك لينشروا ما تعلموه من فقه إسلامي، ومن آداب إسلامية كذلك، ذلك الفقـه الـذي درسوه في قاعات المحاضرات وفي الكتب العلمية المعتمدة، وليس عن فلان الـذي قال بأنه قد أخذ عن فلان، وكلهم ليس لهم أهلية؛ لأنهم لم يدرسـوا الفقـه مـن الأساس، بل انعزلوا في غرف مغلقة ليقرأوا بعض الكتب المنتقاة غير المراجعـة، ليخرجوا على الناس بعد ذلك بفتاواهم.

انتهت زيارتنا للمحل الغريب، بعد أن سلمنا على صاحبه الذي رحـب بنا أيّما ترحيب؛ فهؤلاء الناس يعشقون كل ناطق بالعربية، وبـالأخص طريقـة نطقها المـصرية؛ لأنهـا الأسـهل نطقـا بـين كـل اللـهجات، وكانـت المسلـسلات الرمضانية، الدينية منها والتاريخية، لها أثر كبير في ذلك مع أهل تلك البلاد، ربما لتعثرهم في نطق القرآن الكريم، ويعتبرون أن هذه نعمة أنعم الله بها علينا، ولكـن للأسـف نحـن لا نـشعر بهـا، بـل ويهمـل أكثرنـا تعلـم اللغـة العربيـة الصحيحة حاليا مع الأسف!!

(9) حان وقت الرحيل

لم يعد هناك شيء آخر يمكن أن نراه بعد ذلك في تلك الجزيرة، التي كانت تعبر عن روح الحياة البسيطة في إندونيسيا، فلم نرَ أي ناطحات سحاب أو جسور ضخمة، كما يمكن أن نراه بالطبع في جاكرتا، عاصمة البلاد، التي ربما قررت أن تلتحق بركب منظومة البناء والعمران في جنوب شرقي آسيا، ولكن ظلت تلك الجزيرة هي ما كنت أريد أن أراه أنا شخصيا، بعد زيارة سنغافورة الطويلة، فهنا تتبين الفرق الواضح بين دول تمتلك كل الموارد الطبيعية، لكنها لم تفعل بها أي شيء، أكثر من السماح للأجانب باستغلالها؛ حيث لا يبقى منها للمواطنين إلا الفتات، بينما الحكام وأعوانهم ينعمون في بحار من العمولات، ودول أخرى لا تمتلك أي شيء من الموارد إلا المواطن، فلم تجد بُدًّا من الاستثمار فيه، وكان العائد مجزيا فعلا، ومن دون أي عمولات أو تنازلات.

ولست هنا بمعرض المقارنة بين إندونيسيا وسنغافورة؛ فلا مجال للمقارنة على أي وضع؛ فإندونيسيا التي تتكون من آلاف الجزر، وأغلبها مهجور بلا سكان، بينما قارب تعداد إندونيسيا الربع مليار، لا تمكن مقارنتها بسنغافورة الجزيرة الواحدة ذات الخمسة ملايين إنسان، لكن يقارب دخلها القومي خُمس دخل إندونيسيا القومي، لكن الأهم أن أنظمة التعليم في سنغافورة

في طليعة الأنظمة على مستوى العالم، وهنا نصل إلى سر تقدم سنغافورة، على الرغم من عدم وجود موارد طبيعية، وإلى سر اعتماد إندونيسيا على تصدير المواد الخام، وكذلك على السياحة إلى جزيرة جاوا وغيرها من الجزر، وليس مثل جارتها ماليزيا التي بجانب الموارد الطبيعية أصبحت لديها خطط تصنيع وصارت مركزا من مراكز تطوير التكنولوجيا في جنوب شرقي آسيا، وهذا لا يتأتّى إلا إذا كانت هناك أنظمة تعليمية متطورة، تُخرج مواطنين مؤهلين علميا وفنيا، لا مجرد خريجين يحملون شهادات ربما لا تساوي ثمن الورق المطبوعة عليه، والكارثة الكبرى أن يظن هؤلاء الخريجون أن الشهادات العلمية التي يحملونها هذه ذات قيمة، حتى تأتيهم المفاجأة المرة عندما يحتكون بأسواق العمل، فيصير عليهم التعلم مرة أخرى أو البقاء للأبد في صفوف جيوش من البطالة.

حان وقت الرحيل، وفي الرحيل شجون، خصوصا عندما تحس بأنك وإن كنت بعيدا عن أرض الوطن، لكن ترى الوطن ومشاكله ماثلة أمام عينيك في بلدان أخرى، لكن على كل حال كان عزائي الوحيد أننا لسنا وحدنا الذين حباهم الله بموارد طبيعية ولكن لا يحسنون استغلالها، بل ويفرطون فيها بمنتهى السهولة، وهو إحساس عظيم جدًّا بالطبع، أن تشعر على الأقل بأن وطنك ليس هو الوحيد الذي ينتظر في مؤخرة العالم!!

الرحلة الرابعة

أستراليا.. بلاد اللبن والعسل

(1) هنا أستراليا..

وممنوع دخول الجراثيم

الطريق إلى أستراليا ليس بعيدا عن هنا؛ فأستراليا وجنوب شرقي آسيا مرتبطان ارتباطا جغرافيا، وتبدو أستراليا كقارة على هيئة جزيرة كبيرة، وربما تكون قد انفصلت عن أرخبيل جزر جنوب آسيا، في حقبة ما من حقب التاريخ الجيولوجي للأرض، وعلى كل حال كنت قد قرأت أن العالم كله كان قارة واحدة ثم انفصلت القارات الواحدة تلو الأخرى، وإلى هنا وسوف أتوقف عن الفتاوى فيما لا أعلم، والحقيقة أن ما كنت أعلمه عن أستراليا سابقًا كان بعيدًا جدًّا عن كل ما بدأت أتخيله الآن؛ فأستراليا ذلك المجهول الذي لم نكن نعرف عنه شيئًا، إلا أنها كانت مصدرًا مهمًّا لجنود الإمبراطورية البريطانية التي غربت عنها الشمس، وكانوا يرسلونهم لنا في مصر قديما أيام الاحتلال البريطاني، هذا بجانب أنها مصدر مهم للبغال الأسترالية، غير البشرية طبعا، التي نضرب بها المثل في الضخامة، والحقيقة أن البغال ليست وحدها هي الضخمة في هذا البلد، فكل شيء في هذه الدولة القارة ضخم بالفعل، ربما بفعل العزلة عن العالم، أو هكذا كان يتخيل معظمنا، فلا توجد بقعة حاليا بمعزل عن العالم، فما يربط العالم حاليا هو العلم، والدول التي لا تشارك في مسيرة العلم

والتقدم البشري هي التي تعيش بمعزل عن العالم حقا، وهذا ما لا يجب أن نطلقه على القارة الأسترالية التي تعتبر نفسها محمية طبيعية ومتحفا مفتوحا للتاريخ الطبيعي، فلا يوجد لأستراليا أي تاريخ حضاري بشري كما نعلم.

ومن هذا الموضوع، بدأت أولى بشائر الجزيرة الأسترالية التي لا تسمح لأي غريب بأن يطأ أرضها دون أن تتأكد من أنه خالٍ تماما من كل الأمراض والأوبئة، ومن كل الجراثيم والبكتيريا؛ فالسلطة هناك للطبيعة، والحق في الحياة هو حق أصيل وتحميه الدولة بجميع أجهزتها، من القادمين في المطارات والموانئ البحرية، وربما من نسمات الهواء القادمة إليهم بلا تأشيرة دخول، وكذلك مياه البحار القادمة إليهم من بحار أخرى لا يسيطرون عليها، وهكذا أتت الأوامر من هناك؛ فغير مسموح بالدخول لأي سفينة إلى الموانئ الأسترالية وهي تحمل في بطنها ماءً سفاحًا، أو – عفوا – ماءً غير الماء الأسترالي، الطاهر الشريف الخالي من الجراثيم.

ولتوضيح تلك النقطة لغير المتخصصين في السفن والنقل البحري، فإن سفن البضائع عادة ما تملأ خزانات خاصة فيها بمياه البحر، تسمى خزانات الاتزان (Ballast tanks)، لتزيد من غاطسها وهي فارغة من الحمولة، حتى يتحسن اتزانها في البحر العالي، خصوصا أن الشرق الأسترالي الذي يُطل على المحيط الهندي يعج بالأعاصير والدوامات البحرية القاسية، لكن الأوامر الأسترالية السامية لجميع السفن كانت بالتخلص من أي مياه تمت تعبئتها من

مناطق خارج الحدود البحرية الأسترالية، وقبل الوصول لأستراليا بفترة كافية، ولأن السفن لا يمكنها الإبحار في تلك المناطق من دون تعبئة تلك المياه، فتلجأ لتفريغ الخزانات من مياهها وهي خارج المياه الأسترالية، ثم تعيد تعبئة الخزانات مرة أخرى قبل الوصول إلى المياه الأسترالية؛ حيث تقوم السلطات هناك بدورها بأخذ عينة من تلك المياه فور الوصول، وقبل الرسو على أرصفة الموانئ، ليتم تحليلها في معامل متخصصة، للتأكد من خلوها من الجراثيم والبكتيريا؛ لأن هذه المياه سوف يتم ضخها مرة أخرى على أرصفة الموانئ أثناء شحن السفن بعد ذلك، لاستبدال وزنها على السفينة بوزن البضاعة.

ولأن الدولة الأسترالية لا تضمن جودة أي مياه خارجية، سوى مياه بحارها النظيفة فقط، فقد وضعت تلك القواعد التي تطبقها بمنتهى الصرامة على كل السفن التي سترسو في موانئها، ولمن لا يدرك خطورة المياه المخزنة في خزانات السفن، فهي مصدر مثالي لنقل الأمراض والأوبئة، حتى لو لم تكن منتشرة في الدول التي أتت منها، فيكفي أن نقول بأن تلك المياه قد يتم تخزينها في الخزانات لشهر أو ربما لشهور، فتكون بيئة صالحة لنمو البكتيريا والجراثيم، وكذلك لنقل يرقات الحشرات والطحالب التي تؤثر على التركيب البيولوجي في البيئة المنتقلة إليها.

تم تغيير مياه السفينة على كل حال، وكذلك غسيلها من فوق ومن تحت، ولم يكن يتبقى إلا أن يتم تطهير أجسام البحارة أنفسهم، وربما قص

شعورهم وتقليم أظافرهم ونقعهم في براميل «ديتول»؛ فموعد كشف هيئة السفينة قد اقترب، عفوا إجراءات الحجر الصحي؛ فكل شيء هنا بمقدار وحسب أوامر أصحاب الدار، الذين لا يتهاونون أبدا في حماية دارهم من أي شيء ضارٍ قد يأتي به أي دخيل، على الرغم من قسوة البحر وشدته، الذي منعنا من النوم لثلاثة أيام متصلة، في إعصار دائم في الجنوب الأسترالي يسمى «Bight»، ينتج من تلاقي تيارات المحيط الهندي مع المحيط المتجمد الجنوبي، ليتجمعا معا في خليج «Great Australian Bight»، الذي أرهقنا بالفعل كأن لم نرهق من قبلُ.

(2) أستراليا تلوح في الأفق..
ولكن قف مكانك

بدأت أستراليا تلوح في الأفق، وصرنا نرى أنوار المدن من بعيد، ولكنا وقفنا مرة أخرى، فما زال هناك الكثير من العمل حتى نحظى بالزيارة الشريفة للأراضي الأسترالية ونملّس بأيادينا على شبابيك مقامات أوليائها الصالحين، عسى أن نحظى بالبقاء في تلك الجنة الطاهرة التي تجبر كل قدم تطأ ثراها أن تدخل بيضاء من غير سوء أو جراثيم، ولهذا ظلت معظم أرضها خالية بلا سكان، وربما تظل هكذا حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ فمعظم المدن الأسترالية الكبيرة تقع في الجنوب، مثل «ميلبورن» و«بيرث» و«بيرث باين» و«أديلايت» و«فريمانتل»، ثم المدينة الأشهر والأكبر «سيدني»، التي يظن الكثيرون أنها عاصمة أستراليا، لكن العاصمة هي مدينة أخرى صغيرة تسمى «كانبيرا»؛ فالعبرة هنا ليست بكبر المدن ولا بأهميتها، فكل المدن عند أولئك الناس سواء، ولا يمكن أن تختصر الوطن كله في العاصمة، وما سواها تصبح مجرد أجنة تعيش على حبلها السري، الذي إذا ما انقطع ضاعت البلاد والعباد!!

أما أقل مدن أستراليا فيوجد في الشمال؛ حيث تجد «داروين»، أما الوسط

الأسترالي فخالٍ تماما مـن الـسكان، إلا مـن قطعـان «الكانجـارو» – وهـو شـعار الدولة طبعا – التي تمرح بصغارها التي تحملـها في كيـسها الجلـدي، في فـضاء خالٍ بلا حدود، فأنت في دولة تقع في قـارة كاملـة، ولا يتعـدى تعـداد سـكانها الخمسين مليونا من البشر، بالإضافة إلى البغال طبعا، التي لم نرَ أيا منها حتى الآن، على الرغم من وصولنا لميناء «ألباني»، الذي يقع في أصـغر مـدن أسـتراليا، ومع ذلك هو من أكبر موانئ تصدير القمح في الجنوب الأسترالي الشرقي، ولهذا وقفنا أمامه حتى يتم فحص الـسفينة، قبـل الـسماح لنـا بالـدخول وبـدء عمليـة الشحن، لكن ظلت أضواء «ألباني» تتراءى أمام أعيننا وتغرينا، ولكن لمن استكمل نظافته فقط، حتى يرتمي بين أحضانها الدافئة.

(3) على أبواب «ألباني».. الجميلة المظلمة

هل هناك فرق بين الوصول لمدينة ما في الليل والوصول إلى المدينة نفسها في النهار؟ هناك فرق كبير طبعا، قد تراه في دبي العامرة بالأضواء ليلا، وفي القاهرة التي كانت زاهرة وصار الليل يخفي أتربتها وعشوائياتها، وهذا ما اكتشفته كذلك في أستراليا، عفوا اكتشفت العكس تماما؛ فلم تكن الصورة في الليل بمثل الروعة التي كنت أنتظرها، كان المكان مظلما وفقط، ومكونات الصورة لن تختلف كثيرًا، خصوصا لو كان الوصول إليها عن طريق البحر، فمهما كانت الصورة مضيئة أم مظلمة، فأنت لن ترى أي شيء إلا بعد تمام الوصول، الذي كان في الليل حالك السواد، إلا من مصابيح صغيرة كانت بالكاد تنير المكان، صورة غريبة لم أعتَد عليها مع الهبوط بالطائرة، الذي كان له معي شأن آخر؛ فعلى الأقل يمكنك أن ترى أنوار المباني الساطعة في الليل، ولكنك في «ألباني» لن تجد أيا من هذه الأنوار الساطعة؛ فالمشهد بدا وكأنه بيئة ريفية مظلمة تبحث عن ضوء من القمر أو النجوم، لتنير ليلها الطويل الحالك، في بلدة لا يبدو أن بها مطارا ولا حتى محطة أتوبيس.

(4) عفاريت وأمطار وبرد في عز الصيف

وصلنا في السابعة مساءً، كان الوضع غريبا حقا؛ فكل شيء هادئ تماما على رصيف الميناء، ويبدو وكأنه خالٍ من البشر، على الرغم من أنه كان يعمل بالفعل وبكامل طاقته، وبدت أبراج الصوامع العالية التي تحتوي القمح الأسترالي كأبراج مدافع «نفارون» الضخمة في الفيلم الشهير، التي تم توجيهها نحو السفينة وكأنها ستلتهمها، وقد كان هذا إعلانا واضحا من الميناء بأننا لن نمكث هنا كثيرًا؛ فقد جاءت المفاجأة الصاعقة للجميع بأن شحن البضاعة كلها سوف يتم في خلال عشرين ساعة فقط، ما جعلني أهرع لأرتدي ملابس الخروج، حتى لو كانت الشوارع مظلمة، أو حتى لو كانت تسكنها العفاريت الأسترالية، فربما تكون هذه زيارتي الأولى لأستراليا، وتكون الزيارة الأخيرة كذلك، وزيارة في اليد حاليا خيرٌ من عشر زيارات على شجرٍ ربما ينبت في علم الغيب.

أعددت العدة ولبست أغلب ملابسي فوق بعضها؛ فقد كنا في شهر أغسطس، ولا داعي للعجب هنا؛ ففي أستراليا، التي تقع في أقصى الجنوب الشرقي من الكرة الأرضية، لا تجد الصيف صيفًا ولا الشتاء شتاءً؛ فالشتاء هنا هو فصل الصيف في كل الكرة الأرضية، وكذلك الصيف هو شتاء بقية العالم، وقد استقبلتني لسعة برد خفيفة، ثم بدأ تساقط بعض الأمطار في الخارج، فقلت:

سأخرج حتى لو أمطرت صواريخ موجهة، على الرغم من أن العبد لله لم يكن قد أحضر معه أي ملابس شتوية!!

ولكن يبدو أنني لم أكن الوحيد الذي قرر الخروج على الرغم من البرد؛ فقد كان أغلب الزملاء يتأهبون كذلك للخروج، لكننا انتظرنا جميعًا حتى انتهى تساقط المطر، ثم انطلق الجميع للخارج، تاركين فقط هؤلاء التعساء، الذين كان يتحتم عليهم البقاء في السفينة، وتبعتهم أنا كذلك، لكني قد تأخرت عنهم قليلا، بعد أن لاحظت ملاحظة غريبة لفتت انتباهي على رصيف الميناء.

(5) حروف وكلمات عربية
على أرض أستراليا

على الرغم من أن الإضاءة كانت خافتة جدا، لكني لاحظت وجود حروف عربية، كانت مكتوبة على أرض رصيف الميناء، وبحب استطلاع متأصل لديَّ تقدمت لأقرأها طبعا، فقد ظننتها اكتشافًا مهمًّا، ربما أفوق به اكتشاف الأخ «هوارد كارتر»، مكتشف مقبرة «توت عنخ آمون»؛ فربما يكون العرب قد سكنوا أستراليا في العصور الوسطى قبل أن يكتشفها الإنجليز ويغتصبوها منهم ليضموها للتاج البريطاني.

ولكن خاب ظني فيما خمَّنته طبعا، وكان مجرد حلم في ليلة صيف أسترالية باردة، لحست مخي الذي كان يتكتك هو الآخر من البرد، فلم تكن تلك الحروف إلا كتابات كتبها زائرون مصريون، ليخلدوا أسماءهم وأسماء سفنهم بأحرف مكتوبة بالطباشير، باعتبار أن السفن المصرية من أكثر السفن زيارة لأستراليا، لكي تشحن القمح الأسترالي وغيره من الأقماح المتوافرة في العالم، حتى تطعم الأفواه الجائعة التي لم تعد تزرع، في أكبر بلد مستورد للقمح في العالم، ولم تعد هناك دولة تنتج القمح وتصدره إلا والزبون المصري مستهلك دائم ومضمون لديها، ويبدو أن الفراعنة، الذين كانوا ينحتون أسماءهم على

أعمدة وحيطان المعابد من أجل الخلود، قد صاروا الآن يخطونها على أرصفة الموانئ بالطباشير، وخلود عن خلود يفرق!!

لم تصبني هذه الحروف العربية بخيبة أمل واحدة فقط، مع الأسف، ولكن كانت هناك خيبة أخرى في الطريق؛ فقد تأخرت فعلا عن الزملاء الذين انطلقوا في طريقهم، وبقيت وأنا وحدي أسير في طرق مظلمة ومخيفة، والمطر قد عاد يتساقط فوق رأسي، وكأني عبد الحليم حافظ في فيلم الخطايا، ولم أجرؤ على الغناء طبعا، حتى لا يسمعني أي حيوان شارد هنا أو هناك، خصوصا الكلاب التي من المؤكد أنها أسترالية الجنسية ولا تعرف العربية، وربما لن تروق لها لغتي الغنائية العربية، ولا حتى لغتي الإنجليزية غير الكلابية وارد المدارس الحكومية، فيخرج لي كلب أسترالي مكتنز قد شبع من اللحم ويريد أن يحلي بعظامي على سبيل التغيير بحاجة حرشة، وينقض عليَّ مشمرا من بين تلك المباني القديمة، التي تشبه محالج القطن في كفر الزيات، فمن الواضح أن أهل أستراليا يعتزون بالماضي أيّما اعتزاز، فتركوا المباني هكذا على حالها، ربما منذ عهد الملكة فيكتوريا.

ولكن على كل حال، كنت أسير وكلي أمل في الوصول للمدينة الصغيرة، دون أي منغصات من أي حيوانات تسرح هنا وهناك، واستجمعت شجاعتي؛ لأن السهم قد نفذ بالفعل، وصار طريق الرجوع أطول فعلا من الاستمرار في السير والوصول للهدف الذي أنشده، وهو المدينة والناس والأضواء.

(6) مزلقان سكة حديد أسترالي

بدأت أنوار المدينة تلوح في نهاية الطريق الطويل، الذي كان مضاءً كذلك بلمبات صغيرة على أعمدة تلغراف إنجليزية قديمة مصنوعة من جذوع الشجر، الذي لاحظت أنه مقطوع كما هو، ومن دون أي تشطيب أو تهذيب لسطحه، فقد قطعوا الفروع والزيادات النافرة فقط، حتى بدت الأعمدة وكأنها قد غُرست في الأرض مرة أخرى، ويبدو أنهم أرادوا الحفاظ على الشكل الجمالي للمكان بالمحافظة على ما نحتته الطبيعة دون أي تدخل بشري عادة ما يفسد كل شيء.

كان عليَّ أن أعبر مزلقانا للسكة الحديد، أشبه بمزلقانات سكك حديد مصر؛ فقد كان مزلقانا يدويا، ولكن من دون عامل مزلقان ولا حواجز حديدية ولا جنازير ولا حبال ولا حتى لافتة صغيرة، وهذا ما تعجبت منه، ربما حتى الآن، ولعل القطارات في أستراليا تستأذن من المواطنين أولا، قبل أن تفرمهم عندما يقررون عبور المزلقانات، التي لم تكن مزودة إلا بالأنوار الحمراء، ومجرد جرس كهربائي وفقط، حتى ينبه العابرين إلى أن هناك قطارا قادما، وخذ حذرك يا عم، ولكن ماذا يفعلون مع البغال الأسترالي؟ لا أدري، حتى نستفيد منهم بهذه الخبرة البغالية، مع الجاموس الذي يقول المسئولون عندنا إنه السبب في معظم حوادث القطارات، إلا إذا كانت البغال الأسترالية أكثر

نصاحة والتزاما بقواعد المرور من الجواميس التي عندنا!!

لكني قد عبرت المزلقان، والحمد لله، دون أن يفرمني قطار واحد، وسرت حتى وجدت نفسي في قلب المدينة، التي لم أجد بها عمارة توحد ربنا؛ فكل مبانيها كانت منازل من دورين أو حتى من دور واحد فقط، وكانت تبدو تماما كما أحياء رعاة البقر، في أفلام الغرب الأمريكي «الكاو بوي»، ولكن بلا أي صوت لضرب الرصاص؛ فالشوارع كانت هادئة تماما، والهدوء ليس غريبا بالطبع على ذلك البلد.

(7) شوارع تصعد وتهبط

بمنتهى «الحنية»

الأرض المنبسطة هي عشق عربي أصيل، حتى إن عملية تسوية الأرض هي أولى خطوات مشاريع الإسكان في كل الدول العربية، باستثناء دولة لبنان طبعا، ويبدو أن تلك القاعدة غير موجودة في أستراليا؛ فالشوارع في «ألباني» صارت تصعد بي وتهبط بصورة غريبة، أما الأغرب فكانت المباني والبيوت التي تم بناؤها لتلائم تلك الانحناءات الأرضية، ويبدو أن الناس هنا في أستراليا يتعاملون مع الأراضي المرتفع منها والمنخفض بمنتهى «الحنية».

فالطبيعة في تلك البلاد مقدسة، ولا يجوز التعدي عليها، وبدا واضحا أن البلدة كلها مبنية على مجموعة من الهضاب والتلال الصغيرة، وأن شوارعها العريضة والطويلة قد تم تخطيطها بما يتلاءم مع تلك المرتفعات والمنخفضات، وبمنتهى الكرم المساحي كذلك؛ فالشوارع واسعة وتفتح النفس على المشي؛ فربما كانت الأرض هنا مجانا، وكما يقول المثل «أبو بلاش كتَّر منه»، ولكن ألا توجد في مصر أراضٍ كذلك «ببلاش»، حتى نوسع فيها من شوارعنا الضيقة، أم أن هذه الأراضي «البلاش» تُعطَى فقط للمستثمرين الأجانب، خصوصا الأمراء العرب منهم؟!

كانت الشوارع تميل وتلف وتـدور، ولا يبـدو أن هنـاك بـشرا يـسيرون فيها، حتى إنني قد صادفت زملائي في الشوارع أكثر من مـرة، وبـدا أن شـوارع مدينة ألباني الأسترالية قد تم احتلالها مؤخرا من قبل رحالة مصريين في مطلع القرن الحادي والعشرين، فكان حتما عليَّ أن أنضم للمجموعة، فـشاركت زمـيلا لي في التجول في الشوارع، ما دام الإخـوة في أستراليا قـد تركونـا هكـذا دون أن يرحبوا بالسائحين المتجولين في بلدهم، كما نفعل نحن على الأقل مع الـسائحين القادمين لمصر، فلا نترك سائحا أو سـائحة، طبعـا، في حالهـا، دون أن نعـرض خدماتنا و«ويلكم سير»، لكن يبدو أن بوادر موجات المقاومة الشعبية الأسترالية للغزو المصري قد بدأت تظهر؛ فقد رأيت ما يمكن أن يطلق عليه «دلفة» باب، أو أحيانا نسميه «هجمة»، ويبدو أن بشائر البغال الأسـترالي قـد ظهـرت أخـيرا، والذي حدث منه تصرف غريب بالفعل.

(8) عملاق.. وحاجة تكسف!

تقدم منا هذا الأسترالي، ملوحا بيده لنا وهو يضحك، فوقفنا لحظة لمعرفة ماذا يريد منا هذا العملاق، والذي ما إن اقترب منا حتى بدا واضحا الفرق الحقيقي بين ساكني العزب الأسترالية الشاسعة وساكني الشقق المصرية الضيقة، أو لنقل بين آكلي لحوم البقر الأسترالي المشوية بين المزارع، وآكلي الفلافل المقلية في الزيت في شوارع شبرا؛ فقد كان طويلا وطوله يتجاوز المترين، وعريضا بما يملأ العينين، ويملأ ملابسه أيضا، يملؤها حقا وليس كلاما، كما كانت تدعي علينا أمهاتنا قديما، كنوع من أنواع رؤية القرد «القزعة»، الذي يبدو في عيني أمه غزالا وفِرِع!!

مد العملاق لنا يده اليمنى للسلام، ولا يمكن مع حالة عملقته هذه إلا أن تسلم على جنابه وتكيل له جُل آيات الشكر والامتنان على أن تنازل ومد يده القوية ذات العضلات لكي يسلم علينا وينزِل عَصْر في أيادينا الضعيفة «المخستكة»، وقال لنا إن اسمه «Jack»، والحقيقة أنه يجب أن يكون «جاكا» فعلا؛ فـ«جاك» بالإنجليزية تعني رافعة (ونش)، حتى ضحكت في سري على الاسم، وهممت أن أسأله والقافية تحكم: «حضرتك ترفع كم طن؟»، لكني تراجعت بالطبع؛ فالجبن سيد الأخلاق، وحتى لا أكون أنا وزميلي من ضحايا

سقوط ذراع تلك الرافعة الضخمة على رؤوسنا، والذي يمكنه أن يلقينا على مرمى البصر، والشوارع منحدرة والأسفلت لن يرحم بشرة جلودنا المصرية الرقيقة.

ولكن ابتسم «جاك» ابتسامة كانت مطمئنة بالفعل، فكل ما كان يريده منا هو التعرف علينا فقط، كغرباء يتجولون في شوارع البلد، وقد بدا ودودا معنا، والشهادة لله، وتجاذب معنا أطراف الحديث، واتضح أنه من الخارج مخيف ورهيب، ومن الداخل أبيض كما اللبن الحليب، والمظاهر خادعة في كثير من الأحيان، وقد سألنا عن البلد وهل هو أعجبنا بهدوئه، الذي يقلقه هو شخصيا (عملاق ولا يثق في نفسه! !)، وقال إنه لا يحب هذا الهدوء، وقد كان يتمنى أن يسكن في سيدني أو في ميلبورن، فهو من عشاق المدن الكبيرة المزدحمة، فقلت له بأنه يمكن أن يأتي إلى القاهرة حتى يجد ما يسره من الزحام، ومن التلوث كذلك الذي لن يجده في أستراليا حتى في المدن الكبيرة، وربما يغير من وجهة نظره تماما عن الزحام بعد الزيارة القاهرية، وقد يحمد الله على تلك النعمة التي يعيش فيها ولا يشعر بقيمتها.

ظللنا نتحدث معه لمدة تزيد على نصف الساعة، ويبدو أن هذا الأسترالي لا يشعر بقيمة الوقت، على غير معلوماتنا عن الإنجليز وأحفادهم من رعايا التاج البريطاني؛ فقد ظل «يرغي» معنا في كل شيء، ولم نستطع الفكاك منه إلا بصعوبة؛ فالوقت عندنا كالسيف، ولكن ليس لكوننا عربا طبعا، على الرغم من أن المثل عربي أصيل، لكن أصبح آخر من يعمل به هم العرب أنفسهم،

لكنه كان كالسيف علينا كمصريين مسافرين ووقتنا محدود، وكنا كلما هممنا بأن نقول له: «فرصة سعيدة»، لننصرف بعد أن أصابنا بالصداع، كان يفتح معنا موضوعا جديدا، حتى علقت له على جملة كان قد قالها لنا، كانت فصل الخطاب بيننا وبينه، وتخلصنا منه بشق الأنفس.

كنت من مُحدثي السفر بالطبع، وأتكلم على سجيتي وكأنني في مصر، وكان زميلي يسبقني بأكثر من عشر سنوات، حتى تطرق الأسترالي في حديثه إلى حياة البحارة على السفن، وكيف أنهم بعيدون عن الحياة العائلية والنساء، لفترات ليست بالقصيرة، سواءً من كان منهم متزوجا أو أعزب مثلي في تلك الأيام، وفي أستراليا لا يفرقون بين الزواج أو عدمه في تلك الأشياء، حتى انطلق صاحبنا الذي ظننته عملاقا، ليقول لنا إنه من الممكن أن يدلنا على مكان توجد به نساء للمتعة، وهنا انطلقت أنا وقلت له بالإنجليزية: « This is immoral and we are muslims»، أي أن ذلك غير مقبول أخلاقيا ونحن مسلمون، بما معناه أننا كمسلمين لا نفعل ذلك خارج نطاق الزواج، وهنا أتتني ضربة قوية على قدمي من حذاء زميلي، الذي انتهزها فرصة وتعملق على رجلي أنا، حتى لا نضيع في خبر كان، بعدما عرف الأسترالي أننا مسلمان، كما كان يعتقد!!

وانصرفنا غير آسفين على هذا الأسترالي، حتى قال لي زميلي الذي تقمص معي سريعا دور الناصح المخلص الأمين: لا تتسرع بإعلان أنك مسلم في

تلك البلاد؛ فقد يكون من تتحدث معه يهوديا، وقد لا ينتهي الموضوع معنا على خير. فشكرته على النصيحة طبعا، التي لم أقتنع بها نهائيا، ليس شكا في أن أستراليا لا يوجد بها يهود؛ فهم منتشرون في كل العالم، خصوصا المتقدم منه، ولكن لأني أيقنت أن ديانة هذا الأسترالي لن تفرق معه كثيرًا، أو حتى ستضرنا في شيء كما ظن زميلي، فمن يعمل في مثل شغلته هذه لن يكون غيورا حتى على دينه؛ فقد كان واضحا أنه عملاق فعلا، ولكن بشوارب مبرومة تتجه لأعلى وحاجة تكسف بصراحة، لكن ليس في أستراليا طبعا!!

(9) العتبة الخضراء في أستراليا

كان الجو باردا فعلا، ولم يكن مناسبا لي السير هكذا بقميصي الصيفي، وارد محلات وسط البلد وشارع 26 يوليو (فؤاد سابقا)، حتى لو كان بكُمّين طويلين، والذي ابتل هو وكُمّاه من المطر الغزير الذي بدأ يهطل فوق رؤوسنا، فبدا القميص وكأنه وارد أرصفة العتبة، التي تفترش فيها القمصان وباقي أصناف الملابس الأرض مبتلة كذلك، ولكن بمياه المجاري الضاربة في الشوارع دائما، فكان حتما عليَّ الاختباء تحت مظلة من مظلات المحلات الكثيرة، والمنتشرة على جانبي شوارع «ألباني»، حتى عثرت أخيرا على الصدفة التي ظننتها خيرا من ألف ألف ميعاد؛ فقد وجدت المظلة المناسبة، وكانت كذلك أمام محل ملابس كبير وعامر بالشماعات المعلقة هنا وهناك، التي تحمل الكثير من السترات (الجواكيت) الرجالية والنسائية، على كل شكل وكل لون (بس انت تنقي يا بردان).

ولم يكن لبردان مثلي إلا الاندفاع إلى داخل المحل، وليكن بعدها ما يكون، فهذه فرصة ربما لن تتكرر مرة أخرى، فبالتأكيد الجواكيت هنا مصنوعة من الصوف الإنجليزي الأصلي، من فراء الأغنام الأسترالي المكتنزة بيضاء اللون، التي نراها على شاشة التليفزيون، ويعزفون لها الموسيقى حتى

«تربرب» أكثر وأكثر، وتبدو وكأنها تغسل أصوافها بالشامبو كل صباح، ثم تلمعها بالبلسم مع قدوم المساء، وليست مثل خرافنا البلدي التي لا تستحم أبدا إلا بعد ذبحها وسلخها في العيد، ولا يبدو أن فراءها يُستخدم إلا في الفرش على المصاطب في ليالي الشتاء الباردة في الأرياف!!

ولكن كانت المفاجأة الكبرى التي لم أكن أتوقعها طبعا؛ فقد كانت البضاعة الكثيرة جدا في داخل المحل كلها صينية الصنع، ولا يبدو أن هناك فرقا كبيرا بينها وبين بضائع أرصفة ومحلات العتبة، لكن العتبة الأسترالي التي لا أدري إن كانت خضراء كذلك في أستراليا أم تغير لونها، والحقيقة أن عتبتنا نفسها هي التي لم تعد خضراء ولا حتى استوى عودها، لكن العتبة الأسترالية كانت مستوية فعلا، وبضائعها التي على الرغم من أنها صينية الصنع، لكنها كانت معروضة بصورة أنيقة ومنسقة، وتقف على عرضها مجموعة من الفتيات الأستراليات الفاتنات، اللاتي لم يكُنَّ يجذبن أحدا من الزبائن من قميصه حتى يتمزق، ليضطر ويشتري رغمًا عنه قميصا جديدا، كما يحدث عندنا في العتبة ولكن من رجال بشوارب، ظنا منهم أن الزبون سيشتري بتلك الأساليب الرجالية الخشنة!!

لكن الأستراليين قد فهموا أن للزبائن أمزجة، ومن يريد الشراء فعلا ليس بحاجة إلى أن يسحبه أحد لداخل المحل، ومن لا يريد الشراء لن تجبره جنابك على الشراء، ولا حتى بمطواة قرن غزال، فيكفي فقط غمزة واحدة من

عين الغزال نفسه، ليحمل المشتري بضائع للعيلة وعيلة العيلـة، وهـذا مـا كـان يحدث بالفعل، فقد كانت الفتيـات يكـتفين فقـط بالابتـسام في وجـوه الزبـائن، والابتسامة مجانا وأسترالية أصلية، ولم تقلدها الصين حتى الآن لتـصدرها لكـل دول العالم.

وعلى الرغم من أن هذا ليس غريبا، فلكل بلد أسواقه الشعبية التي تبيع البضائع الرخيصة، الصينية منها ومـا يـستجد مـن بـضائع دول جنـوب شـرقي آسيا، لكن ما كان يبعث على التعجب بالفعل أن أسعار هذه المنتجات في أستراليا لم تكن رخيصة على الإطلاق؛ فقد كان سـعر أقـل جاكيـت وقعـت عينـاي عليـه وقررت شـراءه، ثـم تراجعـت طبعـا، يتجـاوز الثلاثمائـة دولار أسـترالي، أي حوالي مائتي دولار أمريكي، وعمار يا عتبة يا خضرا ويا محـلات وسـط البلـد، وحتى يا بوتيكات سور نادي الزمالك، بعد أن تبخر حلم الدفء الذي حلمت به على باب المحل؛ فقد أدركت بـأن جـيبي المتواضـع لا يحمـل إلا ثمـانين دولارا أمريكيا فقط، أي أقل من نصف جاكيت، وبكم واحد مع الأسف.

والحقيقة أن موضوع البضائع الصينية قـد حيّرنـي كـثيرًا؛ ففـي الوقـت الذي تجدها فيه بأرخص الأسعار في مصر وما يتشابه معها من بلدان في المستوى الاقتصادي، تجدها كذلك في البلدان الغنية بأسعار أخرى، ولكـن بجـودة أعلـى ومتقنة الصنع وبالـضمان، والواضـح هنـا أن الجـودة هـي العامـل المـؤثر في ذلـك الموضوع؛ فالصين لا تصنع البضائع التي تريدها لتسوقها للعالم، لكنها تبحث في

العالم كله عن احتياجات الناس، لتصنع لهم ما يريدون وبالجودة التي يرغبون فيها، أو لنقُل بالجودة التي تفرضها كل دولة على الوارد لها من منتجات من الخارج، ولكل جودة السعر المناسب لها، وإذا كانت هناك دول لا تفرض قيودا على جودة المنتجات الواردة لأسواقها، فهذه ليست مشكلة الصين بالطبع، فقبل أن نشتكي من إغراق الصين لأسواقنا ببضائع رخيصة مغشوشة، يجب أن نسأل أنفسنا أولا عن هذا الذي سمح بدخول تلك المنتجات ذات المواصفات المغشوشة للبلاد، وفي تلك الحالة ومع ضبط الجودة المطلوبة، ستكون المنتجات الصينية قريبة السعر من المنتج المحلي، وربما تكون أغلى منه لاعتبارات النقل والشحن وتعدد الوسطاء، وهنا لن يشتكي أحد من الإغراق.

هذا مع رفع جودة المنتج المحلي طبعا، بدلا من التباكي على اتفاقيات التجارة الحرة وزوال الحواجز الجمركية بين الدول؛ لأن أغلب المنتجين المحليين يحبون التسويق في ظل الحماية الاحتكارية للسوق المحلية، ببضائعهم الغالية قليلة الجودة، فتصبح الحماية ضررا بالغا للمستهلك المحلي، الذي نتركه فريسة لمنتج محلي كسول، يريد الحياة في زمن تنابلة السلطان بمنتجاته الرديئة الغالية، التي تحميها له الدولة بالجمارك والرسوم، بينما السلطان نفسه وأتباعه ورجال الأعمال أنفسهم، المتمتعون بكل تلك الحماية، يأكلون ويلبسون ويركبون أحدث الماركات والموديلات من الخارج، ومن دون أن يدفعوا جمارك في أغلب الأحيان.

كان محل الملابس، أو لنقُل ساحة عـرض الملابـس، إذا أردت الدقـة في الوصف، يحتاج إلى أسبوع على الأقل لمراجعة كـل أسـعاره، لكـن العينـة كانـت بيِّنة، وقد جعلـتني أخـرج مـن هـذا المحـل سـريعا، ولم يتبـقَّ لـي غـير دفء ابتسامات الحسناوات الأسـتراليات الطبيعيـة جـدا، وهـن يلبـسن سـترات مـن الصوف الأسترالي الأصلي، الذي لا أدري ما سعره حقا، والمؤكد أنـني لـن أقـدر على شرائه، وسوف أظل هكذا أتكتك من البرد، الذي لم تقـدم الـصين لـه حـلا حتى الآن، وإذا كان كل ما رأيته هو سعر الصوف الصيني المضروب، فـلا بـد أن أطلب معونة من المرحوم «أوناسيس»، حتى أرى صـوف أسـتراليا الأصـلي علـى كتفي.

(10) حكاية «كيت»..

بائعة الأيس كريم اللذيذ جدًّا

لا يمكن أن تذهب إلى أستراليا ولا تتذوق طعم الأيس كريم الأسترالي، الذي يُقال عنه إنه ألذ أيس كريم في العالم، كنت أسمع فقط بتلك المقولة ولم أصدقها إلا بعد أن تذوقته بنفسي على سبيل سد الجوع، الذي بدأ يداهمني بعد أن أبليت أرصفة الشوارع من المشي، حتى رأيت أول محل بقالة صغير (ميني ماركت)، فدخلت لأشتري أي شيء يسد الرمق، فإذا بعبوات الأيس كريم المخروطية الشكل هي أول من يرحب بي، وهي مرصوصة في ثلاجاتها في مدخل المحل، بالإضافة للبائعة البيضاء البضة، التي أتت لتشير بأفضل الأنواع بالفستق، ويكفي أن تقف هي بجانب الثلاجة، ليكون ألذ وألذ، حتى لو كان بالفول السوداني.

كانت «كيت» على وشك إغلاق المحل، لكنها انتظرت قليلا حتى تستقبل الزبائن الجدد، وقد استقبلتنا بابتسامة بداية اليوم لا بتكشيرة نهايته، على الرغم من أن الساعة كانت تقترب من الثامنة مساءً، وهذا موعد إغلاق أغلب المحلات في ذلك البلد؛ فهؤلاء الخواجات لا يحبون السهر مثلنا حتى الصباح، بل إن يوم العمل يبدأ عندهم غالبا في السادسة صباحا، أي مع طلوع الفجر، الذي

لا يصلونه مثلنا!! لكنهم يلحقون الرزق مع شروق الشمس والبركة في البكور، وكلها أقوال نقولها نحن فقط، أما هم فيعملون بها فعلا حتى دون أن يقولوها، أو حتى دون أن يعلموا بها، ولله في خلقه شئون!!

كانت ابتسامتها الساحرة هي جواز مرورنا للحديث معها، فلم تكن متعجلة في الانصراف من العمل كمن لدغه ثعبان، كما يحدث عندنا من البعض وربما من الكثيرين، عندما ينتهي وقت العمل ويحين وقت الانصراف، فيبدو أن الحياة الهادئة قد انعكست على أخلاق الناس كذلك في تلك البلاد، ويا لهذا الزحام والخنقة اللذين يخلفان للناس العصبية وسوء الخلق في التعاملات، اللذين لم نجدهما في ردود الأخت الفاضلة «كيت» بنت الخواجة «ريتشارد» سليل أعرق الأسر الأسترالية (ظلت أستراليا لوقت طويل مأوى للصوص الذين كانت تنفيهم الإمبراطورية البريطانية إليها)، والذي يمتلك – كما قالت لنا ابنته الصغيرة، ذات الثمانية عشر ربيعا إلا قليلا – مزرعة كبيرة لتربية الأبقار خلف التلال البعيدة، لكنها لم تعد تحب الإقامة في تلك المزرعة، وفضَّلت الإقامة في المدينة والعمل في ذلك الميني ماركت الصغير؛ لأنها قد صارت كبيرة ويجب أن تعتمد على نفسها الآن، وألف حسرة على شبابنا الرجال، الذين يبلغون من العمر أرذله وما زالوا يعتمدون على آبائهم!!

لم يكن غريبا أن تقول لنا «كيت» إن بعض منتجات الألبان التي تبيعها في الميني ماركت تأتي إليها من مزرعة والدها، والمؤكد بالطبع أن الأيس كريم

الذي التهمته أنا كان من ألبان البقر الذي نشأ وترعرع هناك وأكـل مـن البرسـيم المنقوع في عسل النحل، فلم أجد أحلى ولا ألذ من ذلك اللبن الحليـب، سـواءً مـن البقر أو من البشر! ! والحقيقة أن الطبيعة البكر هناك لا يمكن إلا أن تنتج هـذا الجمال البديع، فأنت في دولة هي أكبر مرعى طبيعي في العالم، وكل شيء ينـتج منها ألذ وألذ وألذ، والأيس كريم هـو مـا أعـني بـالطبع، ومـاذا تظنـون يعـني؟ وبعض الظن إثم! !

لم يكن جمال هذه البنـت الأسـترالية في عينيهـا الـبريئتين فقـط ولا في ابتـسامتها الـساحرة الـتي لا تـضاهَى، ولا حتـى في سلاسـل شـعرها الـذهبي المنسدل، الذي تنحدر بعض خـصلاته علـى الجـبين الأبـيض مـن بيـاض اللـبن الحليب، ولكن كان هذا الجمال يـتلخص في بـساطتها في كـل شـيء، بدايـة مـن ملابسها البيضاء البسيطة جدا، التي كانت واسعة وغير لافتة بالمرة، إلى العمـل البسيط الذي اختارته، على الرغم من أن والدها صاحب المزرعة التي كانت تبيع منتجاتها بنفسها، والتي لم أشك للحظة واحدة في أنها تسرح بنا لتتمنظر أمامنا بتلك الأشياء، متقمصة دور «شادية» المتمردة على واقعها في فيلم «بائعة الخبز»، ولا أدري لماذا تذكرت في تلك اللحظـة الكافتيريـات المحيطـة بكليـات المجمـع النظـري بجامعـة الإسـكندرية، والبنـات المتراصـات هنـاك بمنتهـى البـساطة والتلقائية! ! ولا يلبسن أي ملابس لافتة بالمرة! ! على الرغم من أن آباء معظمهن لا يمتلكون مزرعة ولا حتى مجرد برج حمام! !

تركتها على بـاب المحـل وقلـبي يكـاد يعتـصر ويـسيح علـى مأسـاتها وشقائها يا ولداه في العمل لدى الغير، بينما والدها الإقطاعي المفـتري مـن أغنـى الأغنياء في «ألباني»، لكني ركزت في أكل الأيس كريم الذي بدأ يسيح هو الآخر، وربما لن أستطيع استطعام أي أيس كريم مثله بعد ذلك، سواءً كان من منتجـات «نستله» أو حتى من منتجات «لندن ديري»؛ فقد كان من الواضح أن «الأسـترالي يوكل»؛ فهو على كل حال لم يكن في غرور «كيمـو كونـو» ولا «دولـسيكا»، الـتي تتمنظر على أهاليها، ولا أدري على ماذا بـصراحة! فالبـساطة دائمـا مـا تـصنع شيئا عظيما، كما أوصى مولانا «باسكن روبنز» في التذكرة.

(11) على أبواب الديسكو.. والعياذ باللّه

حان وقت العودة للسفينة؛ فالساعة قد تجاوزت التاسعة مساءً، وكل شيء قد صار مغلقا في هذا البلد، الذي يبدو أنه ينام من بعد العشاء، وبالطبع معظم الناس هنا لا يصلي العشاء، ولكن يبدو كذلك أن بعض المحال لم تكن قد نامت بعد، بل إنها قد بدأت في السهر فعلا، ولِمَ لا إذا كان هذا المكان مرقصا (ديسكو)، والعياذ بالله يعني؟ هكذا كانت تقول اللافتة المعلقة على بابه الزجاجي المغلق، الذي لم يكن مغلقا ومحكما فقط، ولكن كان زجاج الأبواب مغطى كذلك بستارة سوداء ثقيلة، لم تكن تكشف مطلقا ما كان يجري خلفها.

ولا أدري لماذا رجعت بي الذكريات إلى أول مرة مررت فيها على فندق «سيسل»، الواقع بجوار حديقة سعد زغلول في محطة الرمل بالإسكندرية، الذي رأيت على بابه لوحة إعلانات ملونة اقشعر لها قلبي الصغير، الذي كان أخضرَ ومثاليًّا في تلك الفترة، فكيف لهذا الفندق الكائن في بلد مؤمن أن يعلق صور الراقصات الكاسيات العاريات، اللاتي يرقصن في ليالي الفندق العامرة بالسياح، العرب منهم والأجانب ومن يسيح معهم من المصريين؟ بينما ظل سعد زغلول، الزعيم الوطني، الذي ناضل من أجل رحيل الاستعمار، ليرسي دعائم الحرية والديمقراطية، يدير وجه تمثاله ناحية البحر، وكأنه «مقموص» من أفعال أحفاده، وربما حزنا على ما آلت إليه أحوال الوطن، من جرَّاء الاستعمار

السياحي، لتتجلى مع المشهد مقولته الشهيرة «مفيش فايدة».

وفي دول الغرب الكافر، التي تعد أستراليا إحداها، على الرغم من أنها تقع في الجنوب الشرقي للكرة الأرضية فعلا، لكن الفكر والأصول غربية بالتأكيد، قد وُضِعت القوانين التي تحترم الشارع ومن يسير فيه، وحتى لو كانوا يرتكبون الفاحشة، والعياذ بالله؛ فهم يغلقون عليها بابا ويغطونه كذلك بستارة، ويضعون لك التحذير تلو التحذير، باختصار إذا أردت الدخول فلتدخل ولتتحمل المسئولية، فكما لن يمنعك أحد من الدخول، لن يجبرك أحد كذلك على الدخول، سواءً بالإغراء بلافتة مضيئة مبهرة، تحتوي صور راقصات لن تجدهن أساسا في الداخل، أو بشحط يتجاوز المترين يقف على باب المحل، ليقول لك «اتفضل بالعافية يا باشا»!!

ابتعدنا، على كل حال، عن هذا المكان الموبوء، الممتلئ بالفواحش التي بَطُن معظمها ولم يظهر منها إلا القليل، حتى لا تقوم علينا الساعة فجأة، فنُحشر مع من كنا في جوارهم، لكن ربنا – سبحانه وتعالى – هو الأعلم بما تخفي القلوب، على الرغم من أن البعض قد لا يدرك ذلك مع الأسف، ويحكم بالظواهر ظنا بالإثم، والإثم هنا هو أن يرانا أحد الزملاء الذين انتشروا في الشوارع كما عساكر الدورية زمان، فيظن أننا كنا من الخارجين من هذا المكان، أو ممن قد شاوروا شيطانهم للدخول إليه، لولا هبوط جناب العسكري الواعظ علينا، لينهانا عن إتيان ذلك الفعل الآثم، وجزاه الله خيرا على كل حال.

(12) البحث عن زوجة صالحة

بين المراقص والبارات

كان طريق رجوعي قصيرا هذه المرة؛ فقد كنت أرافق فيه أحد الزملاء المهندسين، والحديث والنقاش يقتلان الوقت ويخيفان كذلك الكلاب التي في الطريق، لكن الموضوع الذي بدأه معي ذلك الزميل المهندس كان غريبا بالفعل، ولم أكن أتوقعه على الأقل منه؛ فقد كان جنابه يغريني بمنتهى الجدية لكي أبقى في أستراليا وألا أسافر مع السفينة؛ لأن هذه فرصة لن تتكرر لمثلي؛ فلم أكن متزوجا في تلك الفترة، ولم تكن سني وقتها تتجاوز الخمسة وعشرين عاما، وفي نظره أن هذه سن مناسبة جدًّا للهروب، ولا أدري ماذا كان يقصد بكلمة الهروب، هل هو من السفينة أم من مصر؟!

وعلى الرغم من أن حججه كانت قوية بالفعل، خصوصا مع شاب صغير السن والتجربة مثلي في تلك الفترة، فقد كان يملك لكل سؤال مني إجابة شافية، حتى عندما سألته عن كيفية الحصول على الإقامة من دون أوراق، وكيف سأعمل من دون شهادات، فقال لي إن الشهادات تأتيك من مصر بالبريد السريع، أما الإقامة فعليك بالزواج من أي أسترالية، فقلت له إذا كانت الأخت «كيت» فتاة الأيس كريم موافقة، فأنا موافق جدًّا طبعًا، فعلى الأقل سوف أضمن كوب لبن

كل صباح من إحدى أبقار والدها الكثيرة، فقال لي: «أنت وشطارتك معها»، فقلت له: ولكن ما البديل يا عزيزي إذا لم توافق؟ فقال لي: هنا عليك وعلى «الديسكوهات والبارات». فقلت له: أفادكم الله وجزاكم الله خيرا. فلم يعد لكلامه أي صدى في أذني، وقلت له: ولماذا لم تهرب أنت منذ عشر سنوات؟ وقد كنت أعلم أنه كان يزور أستراليا مرتين في السنة على الأقل، كما قالوا لي كثيرًا، فكان رده عليَّ أنه كان مخطئا ويندم على ذلك. فقلت له: فلتعتبرني مثلك في تلك السن. فضحك وقال لي: أنا كنت أريد مصلحتك فقط. فشكرته، وقلت له: إن كنت أريد الهجرة، فيجب أن أكون مطلوبا من البلد الذي سأهاجر إليه، لا أن أفرض نفسي عليهم فرضا، ثم أنتظر محاسن الصدف هناك.

ويبدو أن محاسن الصدف كانت تنتظرنا فعلا، عندما صادفنا على بوابة الميناء شابا في حدود الثلاثين من العمر، قال لنا إنه أفغاني الجنسية وهو لاجئ حاليا في أستراليا بإقامة مؤقتة؛ حيث كان يعمل على إحدى البواخر ثم هرب في «ألباني»، ولأن «ألباني» صغيرة فقد عثر عليه البوليس بسهولة، وتم إيداعه في الحجر الصحي لمدة أربعة أشهر، حتى يَثبت أنه خالٍ من الأمراض المعدية، ثم تم إرساله بعد ذلك إلى معسكر للاجئين، حتى يتم البت في أمره، وقد كانت له عدة مشاكل، على رأسها أنه «ملوَّن»، وفي أستراليا يرفضون تجنيس الملونين (قمة العنصرية)، بالإضافة لكونه مسلما، ولكن لم يعلن له هذا رسميا، حتى تم في النهاية إعطاؤه إقامة مؤقتة، وألحق بالعمل كعامل شحن في الميناء، ولكن بأقل

من نصف أجرة الأستراليين البيض، ولما سألناه: هل أنت سعيد بحياتك هنا؟ قال باختصار: هي أفضل كثيرًا من الحياة في بلدي. فنظرت إلى زميلي نظرة ذات مغزى، كانت تغني عن أي كلام كان يمكنني قوله بعد ذلك.

والحقيقة أنني لم أكن يوما من هواة الهجرة لخارج مصر، على الرغم من عشقي للسفر منذ الصغر، وإذا كان ولا بد يعني من الهجرة، فلتكن بالطرق الشرعية عن طريق سفارة البلد، حتى لو كانوا يضعون شروطا تبدو في باطنها تعسفا لرفض المتقدم، فما بالك لو عثر البوليس على ذلك المرفوض مقدما، وهو هارب في بلدهم؟ ولو أفلت من البوليس فليس له إلا عصابات الاتجار بالبشر، ليعمل عبدا عندهم وبأبخس ثمن؛ فالأصل في الموضوع أن تكون مطلوبا للبلد لا طالبا له، حتى لا تتحول لمجرد متسكع في شوارعه، ربما أكون مخطئا في وجهة نظري في نظر البعض، وربما ندمت بعض الشيء على ذلك يوما ما، لكنها في النهاية وجهة نظر، قد تعجب البعض وقد لا تعجب آخرين، لكن البحث عن زوجة «صالحة» بين المراقص والبارات هو أمر صعب جدا، أعتقد ذلك يعني.

(13) توصيلة أسترالية زي العسل

كانت الأرض مغسولة بماء المطر، الذي بدأ يتبخر رويدًا رويدًا مع مداعبة أشعة الشمس له ولقطراته الشفافة، لتتراقص حباتها مع جزيئات الهواء، وهي تفوح عطرا ممزوجا برائحة الطفولة البريئة، ورائحة الأنوثة العذراء التي لم يمسسها بشر؛ لتبقى الطبيعة البكر الرشيدة، التي يحتويها الإنسان بمنتهى الحنان، ليحفظها ويرعاها من كل معتدٍ آثم، وتلك هي الطبيعة الأسترالية التي تشم رائحتها حتى قبل أن تراها.

على الرغم من أن عملي كان ينتهي في الرابعة فجرا، فإنني قد صحوت في السابعة صباحا، أو كما يقولون من النجمة، فلا يمكن أن تأتي إلى أستراليا ولا تمشي في شوارعها الجميلة مع تباشير الصباح وفي ضوء النهار؛ فتحت أشعة الشمس الأسترالية الحنون يمكنك أن ترى الجمال أكثر جمالا، وما قد رأيته من جمال في الليل قد دفعني بالفعل لإعادة مشاهدته في الصباح، حتى تكتمل الصورة، وفي الإعادة فن وإجادة، حتى لو كنت أراها وأنا نصف نائم.

لم تكد عيناي تقعان على ذلك المنظر الرائع؛ حيث الأشجار الخضراء الوارفة بأوراقها اللامعة، التي تتألق في أحضان التلال متوسطة الارتفاع، حتى وقعت في عشقها وعشق من تركها هكذا، ولم يعتدِ عليها اعتداءً تتريًّا جائرًا،

كما اعتدنا من كثيرين في بلادنا، التي صار فيها أعداء الخضرة والجمال أكثر عددا من حبات الرمال، حتى إن البعض صار يظن أن التطاول في البنيان هو سر الغنى، وأن الرفاهية لا تعني إلا البقاء في المباني المكيفة، بينما الشوارع تفتقر إلى الإحساس والناس يقتربون من البلادة.

كان الوقت محدودا والطريق طويلا، الطريق نفسه الذي سرت فيه بالأمس، ولكن بلا كلاب هذه المرة، لكن كان عليَّ أن أعود قبل الثانية عشرة ظهرا، وإلا سوف تتحقق أمنية زميلي الذي نصحني بالبقاء في أستراليا، وأُصبح مرغمًا على الهروب بتأخري، لا بطلا وهاربا بإرادتي، ولكن لاحت بارقة أمل في الأفق؛ فقد كان هناك ما كنت أريده حقا؛ فأخيرا قد ظهرت أمامي سيارة، كنت قد نسيت تلك الوسيلة من المواصلات في ذلك البلد، فقلت: ربما أجد توصيلة ولا أمشي مشواري الطويل هذا مرة أخرى، ووقفت السيارة بالفعل ولكن ليس لي، وإنما أمام «كشك سجائر»، كشك سجائر أسترالي طبعا، أي أنه ربما لا يبيع السجائر أصلا، فقط كان يبيع كروت البوستال وبعض اللوازم والبسكويت والشيكولاتة، هذا ما رأيته عندما فتحه صاحبه العجوز، بعد أن نزل من السيارة الـ«ميتسوبيشي لانسر»، التي كانت تقودها فتاة في حدود العشرين ربيعا، عندما يكون الربيع ربيعا بالفعل، وقد بدا للوهلة الأولى أنها ابنته وأتت لتوصيله لعمله، فحرام بصراحة أن تمثل هذه البسكوتة، الناعمة في نعومة الزبدة، لهذا العجوز أي شيء آخر، ولكن الحمد لله فقد كان ظني حسنا.

تقدمت من الكشك الذي انتهى الرجل من فتحه بمساعدة ابنتـه، ونعـم البنوة، فقلت أشتري أي شيء ولو حتى رباطا لحذائي الكاوتش، ثـم أسـأل عـن أقصر طريق للوصول للمدينة، ربما أحظى بتوصـيلة مـن إخواننـا الأسـتراليين، وبالفعل اشتريت بعض كروت البوستال؛ فهـي هوايـة قديمـة عنـدي، وكنـت أهوى جمعها، وكانـت الكـروت تحتـوي علـى صـور لمدينـة «ألبـاني» ومعالمهـا السياحية، فلم أجد أي شيء آخر يستحق الشراء بصراحة، ثـم طرحـت سـؤالي على الرجل، فما كان من البنت، جزاها الله خيرا، إلا أن عرضت علـى العبـد لله التوصيل لأي مكان أريده داخل البلدة؛ فالبلدة على كل حال صـغيرة جـدا، وإن كانت بعيدة بعض الشيء، لكن أهلها، كما يبدو، طيبـون ومثـل العـسل، إلى أن ظهرت زلازل وبراكين وزعابيب عكرت الجو الصحو الجميل! !

لم أكد أرقص فرحا بتلك التوصيلة المجانيـة، الـتي يبـدو أنهـا سـوف تؤدي فعلا لهروبي في أستراليا، ولم تفتـأ أختنـا الأسـترالية الفاضـلة أن تفـتح لجنابي باب السيارة اللانسر، حتى انشقت الأرض وأخرجت مـا بداخلـها مـن براكين وزلازل، ولم أقل – باعتباري إنسانا – ما لها؟ فقد نـزل علـيَّ قـضاء الله الذي لا راد لقضائه، ولم يكن قضاءً واحـدًا، لكـن كـان قـضاءين، فقـد هـلَّ علـيَّ زميلان قد صحيا كذلك من النجمة مثلي، فلم أملك إلا أن أعزم عليهما بالمشاركة في التوصيلة، وإلا كنت سأصبح القصة الـتي ستنتعش بهـا منتـديات الـسفينة، التي ملت من تكرار القصص القديمة، وصارت تتوق لأي شـيء جديـد ولـو كـان

مزيفا، فلم يكن مني إلا أن أسلم بالقضاء والقدر، وساعة القدر يعمى البصر.

وعلى الرغم من أنني كنت أجلس بجوارها في الكرسي الأمـامي، فـإنني شغلت نفسي بمشاهدة معالم الطريق، فقد كان هناك جهازا مخابرات من أقـوى الأجهزة في العالم يترصـدان لـي في الكنبـة الخلفيـة، وأي كلمـة أو حركـة غلـط سوف تعلم بها كل وكالات الأنباء، وسـتذيعها المحطـات الفـضائية والأجهـزة الملاحية على الـسفينة، حتـى وصـلت بنـا الـسيارة إلى وسـط المدينـة، وشـكرت الأخت الفاضلة التي لم أستطع حتى سـؤالها عـن اسمهـا، وانتظرنــي الـزميلان العزيزان حتى غابت هي بسيارتها عن العيون، فالتفتُّ ناحيتهما فوجدتهما قد انصرفا كذلك، ونعم الإخوة في الله والزمالة في العمل الصراحة!!

(14) فنجان قهوة.. والعطر مجانًا

لا أنكر أنني ضعيف جدًّا تجاه أي رائحة للقهوة جيدة الصنع، وقد أنفقت ثروة لا أندم عليها في محل «البن البرازيلي» بمحطة الرمل بالإسكندرية، الذي كنت أمر عليه يوميا في شارع الغرفة التجارية، في رحلات ذهابي للدراسة، التي كنت غالبا ما أستهلها بفنجان القهوة «المستكوفي المحوجة»، والمحمصة على نار هادئة في هدوء شوارع الإسكندرية قبل الثامنة صباحا، في شتاء الإسكندرية المغسول بماء المطر والبحر، فتستمتع به مع شرب أحلى فنجان للقهوة، من خلف زجاج تطرق عليه حبات المطر المتساقط، وكان هذا هو نفس الانطباع الذي راودني أمام ذلك المحل الصغير للقهوة، الواقع في أحد شوارع «ألباني» الهادئة، التي ذكرتني بذلك الهدوء المفتقَد من الأيام الخوالي، وربما من الإسكندرية نفسها حاليا.

لم تكد تلك الرائحة الزكية جدًّا جدًّا تخترق أنف العبد لله وتداعب نخاشيشه حتى شعرت بانتعاشة غريبة، غطت على كل استسلام مني لهجمات النوم، أو جيوش التثاؤب التي كانت تجتاحني في تلك اللحظة كالزلزال، كما يقول كاظم الساهر، على الرغم من أننا كنا في أول النهار، حتى دخلت سريعًا إلى داخل المحل، وطلبت فنجانا من القهوة الأسترالي، الذي لن يختلف كثيرًا

عن نظيره البرازيلي، فكل منهما عالم جديد بكر في كل شيء، وجلست أتابع الإخوة الأستراليين من خلف الزجاج، الذين كانوا يدخلون تباعا للمحل ليتناولوا القهوة سريعا، وعلى الواقف دون أن يجلسوا مثلي، ثم ينتشرون بعد ذلك في الشوارع، لكي يذهبوا إلى أعمالهم بخطوات عسكرية منتظمة، لا يتسكع فيها بنطلون ساقط، أو جونلة يُقاس طولها بالملليمتر، إلا أن روائح أخرى قد بدأت تهل عليَّ، كنت أظنها من بقايا رائحة برفانات الزبونات الأستراليات الصغيرات، لكنها كانت خليطا من كل أنواع الزهور والفواكه التي خلقها ربنا.

كثيرا ما كنت أقرأ عن الشوارع التي يتم رشها بالعطور يوميا في أوروبا، لكنها كانت مجرد قراءات لم أشهدها حقيقة حتى الآن، لكن الرائحة التي ملأت أنفي قد جعلتني أدرك أن هناك شيئا ما أكبر من مجرد رش الشوارع بالعطور، كما كنا نهرب بخيالاتنا المحبوسة في واقعنا المؤلم، ما بين مقالب القمامة التي تتخلل المساكن، والمفروضة على عيوننا وأنوفنا فرضا، وأكياس القمامة السوداء الملقاة على نواصي الشوارع، لتعيث فيها القطط والفئران فسادا، متناسية ذلك العداء التاريخي بينهما، وتستقر على معاهدة سلام «فأرو قططية»، حتى تنتهي من تقسيم الغنائم التي لن تنتهي أبدا.

والحقيقة أنه لا يوجد بلد يرش شوارعه بالبرفان، إلا إذا كانت أرصفته مصنوعة من الرخام القرمزي، ولو كان ولا بد من رش الروائح، فهناك زهور وورود تمكن زراعتها في الشوارع، لتقوم بالمهمة نفسها على أكمل وجه وبأرخص

التكاليف، فقط تجهـز قطعـة أرض كانـت مقلبـا للقمامـة، وتزرعهـا بزراعـات بسيطة، ولا حاجة إلا لبعض المياه والسماد، أما العمالـة فمـا أكثـر العـاطلين في بلدنا ! !

ولكـن يبـدو أن القطـط والفئـران كـان لهـا رأي آخـر في بعـض البلـدان، وترغب في استمرار معاهدة السلام فيما بينها، طالما بقيت فيها الخرابـات علـى حالها؛ فقد خلق الله الكون كله برائحة واحدة في كل مكان، لكن البـشر أنفـسهم هم من ينشرون الروائح الزكي منها والخبيث، ثم يظهر مـن لا يطيقهـا ويظهـر كذلك من يتعايش معها، مع القطط والفئران طبعا ! !

انطلقت خارجا من محل القهوة، بعد أن دفعت خمسة دولارات كاملة، ثمنا لفنجان القهـوة الـذي أتـاني أساسـا دون «وش»، فقـط كـان برغـوة بـسيطة مصطنعة أشبه برغوة العرق سوس، لكـن الرائحـة كانـت حقيقيـة بالفعـل، ولا تختلف عن رائحة قهوة الإسكندرية التي كسبت الرهان في النهايـة، حتـى لـو غطت على رائحة قهوتها أي روائح أخرى، قادمة من ميدان المنشية أو من حلقة السمك.

كانت الرائحة الزكية قادمة من المحل المواجه لمحل القهوة، فقـد كـان محل عطور باريسية، وقد فتح أبوابـه علـى مـصاريعها، فانـدفعتُ خلـف تلـك الرائحة بلا وعي، حتى دخلت المحل الذي كانت تنتشر زجاجات العطور فيـه على الأرفف، وأمام كل صنف زجاجة تجربة «Tester»، لتجرب العطر قبـل

شرائه، كعادة كل محلات العطور الشهيرة في العالم، أما لدينا فعليك أن تشتري زجاجة العطر أولا ثم تجربهـا بعـد ذلـك مـع نفـسك، أو أن تـسأل شخـصا قـد اشتراها وأُعجب بها من قبل، بل وتجبر نفسك على الإعجاب باختيـاره، أو أن يكون لك عطرك الخاص الذي ربما تشتريه بروشتة طبية، وقـد يكـون هـذا هـو السبب في انتشار بيع العطور في صيدليات بلدنا!!

كانت الأسعار تمثل حاجزا كبيرا بيني وبين شراء أي شيء من أصـناف هذه العطور بصراحة، والغريب أن السعر كان مكتوبا هكذا على كل صنف، فلـم يكتبوا مـثلا أن الـسعر مفاجـأة أو اسـأل المـسئول، أو «اتفـضل يـا باشـا» توجـد تشكيلات أحلى داخل المحـل؛ فقـد كنـت بالفعـل في داخـل المحـل، والفرجـة بلاش وكذلك تجربة العطور «بـبلاش»، وقـد رأيـت بعـينيَّ، اللـتين سيأكلهما الدود ويتلذذ بالنني إلى يوم القيامة، كيف أن سـيدات محترمـات جـدًّا يـدخلن المحل لدقيقة واحدة ويتعطرن من زجاجة الـ«Tester»، على أفضل ما يكون، ثم يخرجن من المحل «وآدي وش الـضيف»، دون شـراء ولا يحزنـون، ودون أن تتقدم منهن بائعة واحدة من البائعات اللاتي كـن أكثـر جاذبيـة مـن البرفانـات نفسها، لتقول لها: «حضرتك عايزة حاجة معينة»؟!

ويبدو أن الناس في تلك البلاد لا يحاولون حتى أن يجبروك على فعل أي شيء، خصوصا في موضوع الشراء هذا، وأنـا شخـصيا أنـصرف مباشـرة إذا تقـدم مني أي شخص يعرض عليّ شراء أي شيء، فلا أرى إلا أنه يغتصب مني الحـق

في الاختيار، وإلا لماذا تُعرض البضاعة أمام الزبائن، إلا إذا كان البعض يظن أنـه سيجبرك على اختيار شيء ما بأسلوب مباشر وفج فعلا، فتوجد أساليب كـثيرة غير مباشرة تغري المشترين، هذا إذا لم نعتبر أن آخر شخص يمكن سـؤاله عـن جودة بضاعة ما هو بائعها بالتأكيد، الذي يريد التخلص من الراكد منها ليبيـع غيرها.

عطَّرت نفسي بما فيه الكفاية، على سبيل التجربة طبعا، عملا بالـسنة الأسترالية وشكرا على كل شيء، لأخرج بعد ذلك مـن المحـل وأنـا أفـوح عطـرا نفاذا من كل الأنواع، بينما ظلـت حافظـة نقـودي عـذراء، وإن كانـت عـذراء إلا خمسة دولارات، ثمن فنجان القهوة، لكنها كانت على كل حال تفوح عطرا.

(15) بلاد اللبن والعسل

التجول في الشوارع يختلف من بلد إلى آخر، فهناك بلاد يكون التجـول فيها نهارا أفضل كثيرًا من التجول في الليل، وهناك بلاد أخرى يكون الليل فيها أفضل كثيرًا من النهار، ومن ذهب إلى أي من دول الخليج في شهر أغسطس يعلم جيدًا أن الخروج إلى الشوارع في النهار هو قطعة مـن العـذاب؛ لهـذا لا تـرى في الشوارع نهارا إلا الأجانب، الذين أتوا إليها للعمل، ليحملوا علـى أكتـافهم هـمَّ البلاد، حتى في أشد ساعات النهار حرارة، أما المواطنون هناك فيلزمون البيوت، أو يلزمون السيارات المكيفة إذا استدعت الحاجـة، ثـم تبـدأ جـولاتهم غالبـا في الليل، أما في أستراليا فهذه بلاد من النوع الأول النهاري؛ فالليل فيها هو للنـوم فقط.

كانت الشوارع، التي كنت أراها خاوية بالأمس، قـد اسـتحالت لخليـة من النحل، والنحل يطن فيها في كل اتجاه، فأنت في ساعة صبحية في بلاد الكـل يعمل فيها، ولا أحد ينام فيها حتى الظهر وربما حتى يؤذن العصر، إلا من كان يرغب في الانتحار عن طريق الموت جوعا، وحتى لو كنت في بلد غني، وطبيعتـه البكر تكفي أن يسكنه أضعاف أضعاف السكان، ويمكـنهم أن يـسبحوا في أنهـار من اللبن والعسل، لكنهم يؤمنون حقا بأنه لا يستحق الحياة من يستحل العيش

فقط فوق أكتاف الناس، وإذا أردت أن تهلك بلدا فلتجعل أهله مترفين، يـأكلون ويشربون مما يُستخرج من بـاطن أرضـهم وبـسواعد غيرهـم، وعلـى الإنـسان أن «يخشوشن» في حياتـه؛ لأن النعمة لا تدوم، وعلى الرغم من أن هذه الكلمـات قـد صدرت من نبي الإسلام محمد – صلى الله عليه وسلم – فإن كثيرًا من بلاد الكفر هي التي صارت تعمل بها، وبمنتهى الإيمان مع الأسف!!

(16) إنهم يعلمون الأطفال حتى على الأرض

لم يعد هناك شيء أمامي يمكنني أن أراه، ولم يعد هناك وقت كذلك يمكنني أن أضيعه؛ فأرقام ساعتي الرقمية صارت تتسلم من بعضها، في سباق التتابع نحو الساعة الحادية عشرة، التي كانت نقطة النهاية بالنسبة لي، لأبدأ في طريق العودة الطويل، الذي سأمشيه بالطبع؛ فلم يكن لي خيار آخر، وحتى لو كانت هناك توصيلة بالمجان، أعتقد أنني لم أكن لأقبلها، وأترك متعة مشاهدة كل هذه المناظر الطبيعية الخلابة التي تحيط بي من كل ناحية، من البحر والسماء والتلال الخضراء، إلى الأرض وما عليها، فقد كان هناك منظر رائع حقا.

كان المنظر لحوض زرع، فقط حوض زرع به بعض الزهور والنباتات البسيطة، يمكنك أن تراها في أي بلد، ولكن في أستراليا الوضع كان مختلفا بالفعل؛ لأنهم لا يضعون الزهور هكذا دون أن يعرِّفوا الأطفال بأسمائها؛ فقد كانت هناك لافتات صغيرة مغروسة على حافة كل حوض، وكذلك كروت صغيرة مربوطة ومعلقة على ساق كل نبتة، والغريب أن أحدا من الأطفال، أو حتى من الكبار أحيانا، لم يشاور عقله ويخلع تلك اللافتات، ليلعب بها عسكر

وحرامية، أو أن يبيعها كحديد خردة بالكيلو!!

لم أتبين معاني الكلمات المكتوبة لأسماء تلك النباتات؛ فكان يبدو أنهـا أسماء لاتينية، ويبدو أن أهل تلك البلاد قد اعتبروا الشوارع متاحف فعلا للتاريخ الطبيعي، وقد احترم تلك الرغبة جميع الناس حتى الأطفال منهم، وهذا ما جعلني كذلك أتراجع عن قطف أي وردة، لأشم فيها وأنا أمشي في طريق عودتي، فربما تكون هذه الوردة لها رقم قومي مسجل، أو ربما يكون هناك بوليس أسترالي لمكافحة قطف الورود، مثل بوليس الآداب عندنا.

وفي طريق عودتي كذلك، شاهدت كيف يتم الحفاظ على الطبيعة، لتعيش مثل ملكة على رأسها تاج، ليس فيه ياقوت ولا ألماس، لكنه مزين بجواهر الاحترام وحسن المعاشرة؛ فهذه هي الطبيعة البكر التي كلما حنونا عليها تحنو علينا، وكلما قسونا عليها قست علينا، فهي المارد الذي يحتاج للمسة عطف، حتى لا ينفجر غضبه ولا يستطيع أحد الوقوف في وجه حمم بركانه، وكثيرا ما نسمع عن حرائق الغابات في أستراليا، التي تلتهم آلاف الهكتارات من أشجار الغابات، ولا تفلح معها جيوش من الطائرات الهليكوبتر، وكانت هذه هي الصورة التي كنت أطالعها على شاشة التليفزيون، عندما عدت سالما منهكا إلى السفينة، فقد حان وقت الرحيل ولكن إلى بلد آخر في أستراليا؛ فقد أبحرنا سريعًا إلى «فريمانتل».

(17) عادة ظللت أفعلها ولا أخجل منها

كانت عندي عادة قديمـة غريبـة، لم أتخلـص منهـا إلا مـؤخرا بحكـم التكنولوجيا الحديثة؛ فقد اتخذت قرارا، منذ أن سافرت للمرة الأولى، أن أكتب خطابا من أي بلد أصل إليه، على أن أرسله من البلد نفسه، فقد كنت أدرك أنني يوما ما سوف أرجع لتلك الخطابات لأتصفحها وأسرح في ما بين سطورها، فتلك السطور حتما ستحفظ لي ما ستعجز أدراج الذاكرة المتخمـة عـن حفظـه، ليـصير نـهبا لجيوش بدأت تكسب مني في كل يوم أرضا، خـلال معـركتي المـستمرة مـع النسيان، حتى صار رأسي عامرا بمستوطنات جيش الاحتلال النـسياني، الـذي لن يرضى بأي اتفاقية تقسيم بيننا، وسوف يلتهم ذكرياتي الجميلة في النهاية، لترقد أشلاؤها مع اللاجئين في مخيمات الزهايمر!!

ولأنـها كانت عادة غريبة فعلا، فقد تخلى عنها كثير من الناس حاليـا، حتى قبل أن يخترعوا رسائل الهواتف المحمولة، ولهذا كنت أخفي تلك العادة عن العامة والخاصة، حتى لا أُتَّهم بالرجعية والتخلـف، وإن كنـت لا أدري مـا الرجعية في ذلك، إلا إذا كان هذا هو العداء التاريخي في بلاد الشرق، مع كل مـا هو مكتوب ومسطور، والحنين الدائم لكل مـا يحكيـه اللـسان، الـذي كـثيرًا مـا ينسى ويبدل في الأشياء، أما الورق فيحفظ كل شـيء ويوثقـه، ولكـن مـع عقـول

اعتادت على التهرب من كتابة الواجب المدرسي، فهذه العقول دائما ما تستنكر عليك استخدام القلم والورق، في غير أوقات الدراسة المملة، أو في غير شئون العمل الأثقل على القلب من حرارة شمس الظهيرة في شهر أغسطس.

ولكن، على كل حال، ظلت هذه الهواية سرية، وكم من الأسرار التي يحفظها الإنسان بينه وبين نفسه، وهي ليست بأسرار أساسا، وكان هذا ما شغلت به نفسي في الطريق من «ألباني» إلى «فريمانتل»، وكانت سطور الخطاب تصطف أمامي، وصفحاته تتوالى عليَّ بلا رحمة، وكلما انتظرت قدوم النهاية، إذا بانطباعات أخرى وذكريات جديدة تأتي إليّ لتراودني عن نفسي، فكنت أهم بها ولا أستعصم؛ ففي أستراليا التي يقولون عنها إنها نهاية العالم، لم يكن هناك نهاية لمشاهداتي فيها، التي كانت تتركز في يومين فقط، فحمدت الله على أنهما يومان، وإلا كنت سأغرق فيما بين السطور، لتغطي جسدي آلاف الصفحات.

بدأت فريمانتل تلوح في الأفق، وهي كمدينة أكبر كثيرًا من «ألباني»، لكن المفاجأة أنها كانت بعيدة أكثر من اللازم، مما كان يستحيل معه الخروج سيرا على الأقدام كما كنا نفعل في «ألباني»، ومن كان يريد الخروج فعليه أن يطلب سيارة أجرة (تاكسي)، والتاكسيات في هذه البلاد لا تأتي إلا بالتليفون، فلا يمكن أن تقف هكذا على أول الشارع لتشير لتاكسي لم يضع الفوطة الصفراء بعدُ على العداد، الذي لا يستخدمه أساسا وموجود على سبيل الديكور، مثل

ديكورات كثيرة في حياتنا، وعلى رأسها اللافتة الشهيرة المكتوب عليها «ممنوع التدخين».

حاولت البحث عن أي طريقة لأصل للمدينة، لمجرد رمي خطابي الطويل في أقرب صندوق بريد، حتى يُكتب لي في تاريخي – ولو مرة واحدة على الأقل – أنني قد أرسلت خطابا من أستراليا، ولكن لم يكن هناك نصيب؛ فقد كنا على ما يبدو في منطقة ليس بها صريخ أسترالي ابن يومين، ولا حتى من صنف البغال الأسترالي، فلم نكن نسمع أي صوت حولنا إلا صوت هدير ماكينات شحن القمح في الميناء، وكان الوقت محدودا كذلك، فاستعوضت ربنا في وقتي الضائع في كتابة الخطاب، الذي استقطعته من وقت نومي وراحتي، ومنهم لله الإخوة الأستراليون، الذين أنشأوا موانئهم في آخر بلاد الأستراليين أيضا.

ظلت الرسالة حبيسة درج مكتبي، حتى ألقيتها فعلا في أقرب صندوق بريد، ولكن بعد أن تركنا فريمانتل وأستراليا كلها؛ فقد ألقيتها في صندوق بريد صيني أصلي وليس تقليدا؛ فقد كانت الصين هي محطتي التالية، التي ستكون كذلك هي بداية الجزء الثاني من هذه الرحلات؛ فقد انتهى الجزء الأول هنا ولله الحمد، وإلى اللقاء القريب بإذن الله.

وأخيرًا.. اعتذار

وجب عليّ الاعتذار للقارئ العزيز؛ فلم تكن الرحلات السابقة في 3000 يوم، وإنما في أقل من مائة يوم فقط، ولهذا يبقى لك في ذمتي عزيزي القارئ 2900 يوم، أعدك بأن أسلمها لك في الأجزاء القادمة من هذا الكتاب، فلم يتسع المجال هنا إلا لهذا، وهذا إذا أمد الله في عمري وعمركم طبعًا، وإذا حدث – لا قدر الله – غير ذلك، فرجاءً لا تطلبوا شيئًا من الورثة، وإلى لقاء قريب بإذن واحد أحد.

اقعدوا بالعافية..

المعتذر بما هو أعلاه

إيهاب بن فاروق

الفهرس